مسابقة فضيلة الشيخ
صفوت نور الدين
رحمه الله تعالى

الحلقة (١٦)
المستوى الأول

المنهج المقرر

حفظ القرآن/ من سورة العنكبوت إلى سورة الناس

التفسير/ سورة الأحزاب حسب المنهج المقرر.

حفظ الحديث وشرحه / تيسير العلام شرح عمدة الأحكام (كتاب الطهارة) حسب المنهج المقرر

العقيدة/ العقيدة الواسطية شرح الشيخ الهراس بتعليق الشيخ صفوت نور الدين

التفسير

سورة الأحزاب

مدنية وآياتها ثلاث وسبعون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا(١) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً(٢)وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً(٣)}

شرح الكلمات:

{ **اتَّقِ اللَّهَ** } : أي دم على تقواه بامتثالك أوامره واجتنابك نواهيه.

{**وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ**}: أي المشركين فيما يقترحون عليك.

{**وَالْمُنَافِقِينَ** }: أي الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر بما يخوفونك به.

{**إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً**}: أي عليما بخلقه ظاهراً وباطناً حكيما في تدبيره وصنعه.

{**وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ**}: أي تقيد بما يشرع لك من ربك ولا تلتفت إلى ما يقوله خصومك لك من اقتراحات أو تهديدات.

{**وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ**}: أي فوض أمرك إليه وامض في ما أمرك به غير مبال بشيء.

معنى الآيات:

لقد واصل المشركون اقتراحاتهم التي بدأوها بمكة حتى المدينة وهي عروض المصالحة بينه وبينهم بالتخلي عن بعض دينه أو بطرد بعض أصحابه، والمنافقون قاموا بدورهم في المدينة بتهديده ﷺ بالقتل غيلة إن لم يكف عن ذكر آلهة المشركين في هذا الظرف بالذات نزل قوله تعالى {**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ**} ناداه ربه تعالى بعنوان النبوة تقريراً لها وتشريفاً له ولم يناده باسمه العلم كما نادى موسى وعيسى وغيرهما بأسمائهم فقال {**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً**} أي اتق الله فخفه فلا تقبل اقتراح المشركين، ولا ترهب تهديد المنافقين بقتلك إن الله كان وما يزال عليماً بكل خلقه وما يحدثون من تصرفات ظاهرة أو باطنة حكيمًا في تدبيره وتصريفه أمور خلقه وعباده فهو تعالى لعلمه وحكمته لا يخذلك ولا

يتركك، ولا يمكن أعداءك وأعداءه منك بحال وقوله {**وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ**} من تشريعات خاصة وعامة ولا تترك منها صغيرة ولا كبيرة إذ هي طريق فوزك وسلّم نجاحك أنت وأمتك تابعة لك في كل ذلك، وقوله {**إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً**} هذه الجملة تعليلية تحمل الوعد والوعيد إذ علم الله بأعمال العباد صالحها وفاسدها يستلزم الجزاء عليها فمتى كانت صالحة كان الجزاء حسناً وفي هذا وعده، ومتى كانت فاسدة كان الجزاء سوءاً وفي هذا الوعيد. وقوله {**وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً**} أمر تعالى رسوله وأمته تابعة له أن يتوكل على الله في أمره ويمضي في طريقه منفذاً أحكام ربه غير مبالٍ بالكافرين ولا بالمنافقين، وأعلمه ضمناً أنه كافيه متى توكل عليه وكفى بالله كافياً ووكيلا حافظاً.

هداية الآيات

١- وجوب تقوى الله بفعل المأمور به وترك المنهي عنه.

٢- حرمة طاعة الكافرين والمنافقين فيما تقترحون أو يهددون من أجله.

٣- وجوب اتباع الكتاب والسنة والتوكل على الله والمضي في ذلك بلا خوف ولا وجل.

قال تعالى {مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللاَّئِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ(٤) ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً(٥)}

شرح الكلمات:

{مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ}: أي لم يخلق الله رجلا بقلبين كما ادعى بعض المشركين.

{تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ}: يقول الرجل لامرأته: أنت عليّ كظهر أمي.

{وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ: أي ولم يجعل الدعيَّ ابناً لمن ادعاه.

{ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ}: أي مجرد قول باللسان لاحقيقة له فى الخارج فلم تكن المرأة أماً ولا الدعي ابنا.

{هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ: أي أعدل.

{فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ}: أي أخوة الإسلام وبنو عمكم فمن لم يعرف أبوه فقولوا له: يا أخي أو ابن عمي.

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ}: أي لا حرج ولا إثم في الخطأ، فمن قال للدعي خطأ يا ابن فلان فلا إثم عليه.

وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ}: أي الإثم والحرج في التعمد بأن ينسب الدعي لمن ادعاه.

{وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً}: ولذا لم يؤاخذكم بالخطأ ولكن بالتعمد.

معنى الآيات:

لما كان القلب محط العقل والإدراك كان وجود قلبين في جوف رجل واحد يحدث تعارضاً يؤدي إلى الفساد في حياة الإنسان ذي القلبين لم يجعل الله تعالى لرجل قلبين في جوفه كما ادعى بعض أهل مكة أن أبا معمر جميل بن معمر الفهري كان له قلبان لما شاهدوا من ذكائه ولباقته وحذقه وغره ذلك فقال إن لي قلبين أعقل بهما أفضل من عقل محمد ﷺ فكانت الآية رداً عليه قال تعالى {**مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ**} وفيه إشارة إلى أنه لا يجمع بين حب الله تعالى وحب أعدائه وطاعة الله وطاعة أعدائه، وقوله {**وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللاَّئِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ**} أي لم يجعل الله تعالى المرأة المظاهر منها أما لمن ظاهر منها كأن يقول لها أنت عليّ كظهر أمي وكان أهل الجاهلية يعدون الظهار محرّماً للزوجة كالأم فأبطل الله تعالى ذلك وبيّن حكمه في سورة المجادلة، وأن من ظاهر من امرأته يجب عليه كفارة: عتق رقبة أو صيام شهرين متتابعين أو إطعام ستين مسكينا.

وقوله تعالى {**وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ**} أي لم يجعل الله الدعيّ ابنا إذ كانوا في الجاهلية وفي صدر الإسلام يطلقون على المتبنى ابناً فيترتب على ذلك كامل حقوق البنوة من حرمة التزوج بامرأته إن طلقها أو مات عنها، وقوله {**ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ**} أي ما هو إلا نطق بالفم ولا حقيقة في الخارج له إذ قول الرجل للدعيّ أنت ولدي لم يصيّره ولده وقول الزوج لزوجته أنت كأمي لم تكن أما له. قوله تعالى {**وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ**} فلا يطلق على المظاهر منها لفظ أم، ولا على الدعيّ لفظ ابن، {**وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ**} أي الأقوم والأرشد سبحانه لا إله إلا هو.

وقوله تعالى في الآية (٥) من هذا السياق {**ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ**} أي ادعوا الأدعياء لآبائهم أي انسبوهم لهم يا فلان بن فلان. فإن دعوتهم إلى آبائهم أقسط وأعدل في حكم الله وشرعه. {**فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ**} فادعوهم باسم الأخوة الإسلامية فقولوا هذا أخي في الإسلام {**وَمَوَالِيكُمْ**} أي بنو عمكم فادعوهم بذلك فقولوا يا ابن عمي وإن كان الدعي ممن حررتموه فقولوا له مولاي {**وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ**} أي إثم أو حرج {**فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ**} من قول أحدكم للدعي يا ابن فلان لمن ادعاه خطأ لسان بدون قصد، أو ظنا منكم أنه ابنه وهو في الواقع ليس ابنه ولكن الإثم في التعمد والقصد المعتمد، وقوله {**وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً**} أي غفورًا لمن تاب رحيمًا لم يعاجل بالعقوبة من عصى لعله يتوب ويرجع.

هداية الآيات

١- إبطال التحريم بالظهار الذي كان في الجاهلية.

٢- إبطال عادة التبني، وما يترتب عليها من حرمة نكاح امرأة المتبنّى.

٣- وجوب دعاء الدعي المتبنّى بأبيه إن عرف ولو كان حماراً.

٤- إن لم يعرف للمدعى أب دعي بعنوان الأخوة الإسلامية، أو العمومة أو المولوية.

٥- رفع الحرج والإثم في الخطأ عموما وفيما نزلت فيه الآية الكريمة خصوصاً وهو دعاء الدعي باسم مدعيه سبق لسان بدون قصد، أو بقصد لأنه يرى أنه ابنه وهو ليس ابنه.

قال تعالى {النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفاً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً(٦) وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً(٧) لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً أَلِيماً(٨)}

شرح الكلمات:

النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ: أي فيما يأمرهم به وينهاهم عنه ويطلب منهم هو أحق به من أنفسهم.

وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ: في الحرمة وسواء من طلقت أو مات عنها منهن رضي الله عنهن.

وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ: أي في التوارث من المهاجرين والمتعاقدين المتحالفين.

إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفاً: بأن توصوا لهم وصيّة جائزة وهي الثلث فأقل.

كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً: أي عدم التوارث بالإيمان والهجرة والحلف مكتوب في اللوح المحفوظ.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ: أي اذكر لقومك أخذنا من النبيين ميثاقهم على أن يعبدوا الله وحده ويدعوا إلى عبادته.

وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ: أي وأخذنا بخاصة منك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم، وقدم محمد ﷺ في الذكر تشريفاً وتعظيماً له.

وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً: أي شديداً والميثاق: العهد المؤكد باليمين.

لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ: أي أخذ الميثاق من أجل أن يسأل الصادقين وهم الأنبياء عن صدقهم في تبليغ الرسالة تبكيتاً للكافرين بهم.

وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً أَلِيماً: أي فأثاب المؤمنين وأعد للكافرين عذاباً أليما أي موجعا.

معنى الآيات:

لما أبطل الله تعالى عادة التبني وكان النبي ﷺ قد تبنى زيد بن حارثة الكلبي فكان يعرف بزيد بن محمد ﷺ وأصبح بذلك يدعى زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ أعلم تعالى كافة المؤمنين أن نبيه محمد ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وأزواجه أمهاتهم في الحرمة فلا تحل امرأة النبي لأحد بعده ﷺ، ومعنى أن {**النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ**}أي فيما يأمرهم به وينهاهم عنه ويطلبه منهم هو أحق به من أنفسهم، وبذلك أعطى الله تعالى رسوله من الرفعة وعلو الشأن ما لم يعط أحداً غيره جزاء له على صبره على ما أخذ منه من بنوّة زيد رضي الله عنه الذي كان يدعى بزيد بن محمد فأصبح يعرف بزيد بن حارثة.

وقوله تعالى {**وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ**} يريد في الإرث فأبطل تعالى بهذه الآية التوارث بالإيمان والهجرة والحلف الذي كان في صدر الإسلام وأصبح التوارث بالنسب والمصاهرة والولاء لا غير. وقوله {**كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً**} التوارث بالأرحام أي بالقرابات مكتوب في اللوح المحفوظ وقوله {**إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفاً**} أي إلا أن توصوا بوصيّة جائزة وهي الثلث لأحد من المؤمنين والمهاجرين ومن حالفتم فلا بأس فهي جائزة ولا حرمة فيها، وقوله {**كَانَ ذَلِكَ**} أي المذكور من التوارث بالقرابات لا

غير وجواز الوصية بالثلث لمن أبطل إرثهم بالإيمان والهجرة والمؤاخاة، في اللوح المحفوظ وهو كتاب المقادير مسطوراً أي مكتوباً مسطراً فلا يحل تبديله ولا تغييره. وقوله تعالى {**وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ**} أي اذكر يا رسولنا لقومك أخذنا الميثاق وهو العهد المؤكد باليمين من النبيين عامة بأن يعبدوا الله وحده ويدعوا أممهم إلى ذلك، ومن أولي العزم من الرسل خاصة وهم أنت يا محمد، ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وقوله {**وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً**} أعيد اللفظ تكراراً لتقريره، وليرتب عليه قوله {**لِيَسْأَلَ**} تعالى يوم القيامة {**الصَّادِقِينَ**} وهم الأنبياء {**عَنْ صِدْقِهِمْ**} في تبليغ رسالتهم تقريعاً لأممهم الذين كفروا وكذبوا. فأثاب المؤمنين {**وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً أَلِيماً**} أي موجعاً وهو عذاب النار.

هداية الآيات

١- وجوب تقديم ما يريده الرسول من المؤمن على ما يريده المؤمن لنفسه.

٢- حرمة نكاح أزواج النبي ﷺ وأنهن أمهات المؤمنين وهو ﷺ كالأب لهم.

٣- بطلان التوارث بالمؤاخاة والهجرة والتحالف الذي كان في صدر الإسلام.

٤- جواز الوصية لغير الوارث بالثلث فأقل.

٥- وجوب توحيد الله تعالى في عبادته ودعوة الناس إلى ذلك.

٦- تقرير التوحيد بأخذ الميثاق به على كافة الأنبياء والمرسلين.

قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً(٩) إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا(١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً(١١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً(١٢) وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً(١٣) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيراً(١٤)}

شرح الكلمات:

{اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ}: أي اذكروا نعمة الله أي دفاعنا عنكم لتشكروا ذلك.

{جُنُودٌ}: أي جنود المشركين المتحزبين.

{رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا}: هي جنود الملائكة والريح ريح الصبا وهي التي تهب من شرق.

{بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً}: أي بصيرًا بأعمالكم من حفر الخندق والاستعدادات للمعركة.

{إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ}: أي بنو أسد وغطفان أتوا من قبل نجد من شرق المدينة.

{وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ}: أي من غرب وهم قريش وكنانة.

{وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ}: أي مالت عن كل شيء إلا عن العدو تنظر إليه من شدة الفزع.

{وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ}: أي منتهى الحلقوم من شدة الخوف.

{وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا }: أي المختلفة من نصر وهزيمة، ونجاة وهلاك.

{هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُو}: أي ثم في الخندق وساحة المعركة أختبر المؤمنون.

وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً}: أي حركوا حراكاً قويا من شدة الفزع.

{وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ: أي شيء من النفاق لضعف عقيدتهم.

{مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً}: أي ما وعدنا من النصر ما هو إلا غروراً وباطلا.

{يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ}: أي يا أهل المدينة لا مقام لكم حول الخندق فارجعوا إلى دياركم.

{إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ}: أي غير حصينة.

{إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً}: أي من القتال إذ بيوتهم حصينة.

{وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ}: أي المدينة أي دخلها العدو الغازي.

{ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ}: أي ثم طلب إليهم الردة إلى الشرك لآتوها أي أعطوها وفعلوها.

{وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيراً}: أي ما تريثوا ولا تمهلوا بل أسرعوا الإجابة وارتدوا.

معنى الآيات:

قوله تعالى {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ**} الآيات هذه قصة غزوة الخندق أو الأحزاب قصها تبارك وتعالى على المؤمنين في معرض التذكير بنعمه تعالى عليهم ليشكروا بالانقياد

والطاعة لله ورسوله وقبول كل ما يشرع لهم لإكمالهم وإسعادهم في الحياتين فقال تعالى {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**} أي يا من آمنتم بالله ربا وإلهاً وبمحمد نبياً ورسولاً وبالإسلام دينياً وشرعاً {**اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ**} المتمثلة في دفع أكبر خطر قد حاق بكم وهو اجتماع جيوش عدة على غزوكم في عقر داركم وهم جيوش قريش وأسد وغطفان وبنو قريظة من اليهود ألبهم عليهم وحزّب أحزابهم حيي بن أخطب النضري يريد الانتقام من الرسول والمؤمنين إذ أجلوهم عن المدينة وأخرجوهم منها فالتحقوا بيهود خيبر وتيما، ولما بلغ النبي ﷺ خبرهم أمر بحفر الخندق تحت سفح جبل سلع غربي المدينة، وذلك بإشارة سلمان الفارسي رضي الله عنه إذ كانت له خبرة حربية علمها من ديار قومه فارس.

وتم حفر الخندق في خلال شهر من الزمن وكان ﷺ يعطي لكل عشرة أنفار أربعين ذراعاً أي عشرين متراً، وما إن فرغوا من حفره حتى نزلت جيوش المشركين وكانوا قرابة اثني عشر ألفاً ولما رأوا الرسول والمسلمين وراء الخندق تحت جبل سلع قالوا هذه مكيدة لم تكن العرب تعرفها فتناوشوا بالنبال ورمى عمرو عبد ود القرشي بفرسه في الخندق فقتله علي رضي الله عنه ودام الحصار والمناوشة وكانت الأيام والليالي باردة والمجاعة ضاربة أطنابها قرابة الشهر. وتفصيل الأحداث للقصة فيما ذكره تعالى فيما يلي:

فقوله تعالى {**إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ**} هي جنود المشركين من قريش ومن بني أسد وغطفان {**فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا**} لما جاءتكم جنود المشركين وحاصروكم في سفح السلع أرسلنا عليهم ريحاً وهي ريح الصبا المباركة التي قال فيها رسول الله ﷺ نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور وهي الريح الغربية. وفعلت بهم الصبا الأفاعيل حيث لم تبق لهم ناراً إلا أطفأتها ولا قدراً على الأثافي إلا أراقته، ولا خيمة ولا فسطاطاً إلا أسقطته وأزالته حتى اضطروا إلى الرحيل وقوله {**وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا**} وهم الملائكة فأصابتهم بالفزع والرعب الأمر الذي أفقدهم كل رشدهم وصوابهم ورجعوا يجرون أذيال الخيبة والحمد لله وقوله تعالى {**وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً**} أي بكل أعمالكم من حفر الخندق والمشادات والمناورات وما قاله وعمله المنافقون لم يغب عليه تعالى شيء وسيجزيكم به المحسن بالإحسان والمسيء بالإساءة.

وقوله تعالى: {**إِذْ جَاءُوكُمْ**} أي المشركون {**مِنْ فَوْقِكُمْ**} أي من الشرق وهم غطفان بقيادة عيينة بن حصن وأسد {**وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ**} وهم قريش وكنانة أي من الجنوب الغربي وهذا تحديد لساحة المعركة، وقوله

{**وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ**} أي مالت عن كل شيء فلم تبق تنظر إلا إلى القوات الغازية من شدة الخوف، {**وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ**} أي ارتفعت بارتفاع الرئتين فبلغت منتهى الحلقوم. وقوله {**وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا**} المختلفة من نصر وهزيمة وسلامة وعطب، وهذا تصوير للحال أبدع تصوير وهو كما ذكر تعالى حرفيّا.

وقوله تعالى {**هُنَالِكَ**} أي في ذلك المكان والزمان الذي حدق العدو بكم {**ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ**} أي اختبرهم ربهم ليرى الثابت على إيمانه الذي لا تزعزعه الشدائد والفتن من السريع الانهزام والتحول لضعف عقيدته وقلة عزمه وصبره. وقوله تعالى {**وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً**} أي أُزعجوا وحرّكوا حراكا شديداً لعوامل قوة العدو وكثرة جنوده، وضعف المؤمنين وقلة عددهم، وعامل المجاعة والحصار، والبرد الشديد وما أظهره المنافقون من تخاذل وما كشفت عنه الحال من نقض بني قريظة عهدهم وانضمامهم إلى الأحزاب وقوله تعالى: {**وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ**} أي النفاق لضعف إيمانهم{**مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ**} أي من النصر {**إِلَّا غُرُوراً**} أي باطلا: وذلك أنهم لما كانوا يحفرون الخندق واستعصت عليهم صخرة فأبت أن تنكسر فدعي لها الرسول ﷺ فضربها بالمعول ضربة تصدعت لها وبرق منها بريقٌ أضاء الساحة كلها فكبر رسول الله ﷺ وكبر المسلمون، ثم ضربها ثانية فصدعها وبرقت منها برقة أضاءت ما بين لابتي المدينة فكبر رسول الله ﷺ تكبير الفتح وكبر المسلمون وضرب ثالثة فكسرها وبرقت لها برقة كسابقتيها وكبر رسول الله ﷺ وكبر المسلمون ثم أخذ رسول الله ﷺ بيد سلمان فرقى من الخندق فقال سلمان بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد رأيت شيئاً ما رأيته قط فالتفت رسول الله إلى القوم فقال هل رأيتم ما رأى سلمان؟ قالوا نعم يا رسول الله فأعلمهم أنه على ضوء ذلك البريق رأى قصور مدائن كسرى كأنياب الكلاب وإن جبريل أخبرني أن أمتي ظاهرة عليها كما رأيت في الضربة الثانية القصور الحمراء من أرض الروم وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها، ورأيت في الثالثة قصور صنعاء وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها فأبشروا أبشروا فاستبشر المسلمون وقالوا الحمد لله موعود صدق. فلما طال الحصار واشتدت الأزمة واستبد الخوف بالرجال قال المنافقون وضعفاء الإيمان {**مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً**} إذ قال

معتب بن قشير يعدنا محمد بفتح فارس والروم وأحدنا لا يقدر أن يتبرز فرقاً وخوفاً ما هذا الوعد إلا وعد غرور!!

وقوله {**وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ(٣)**} أي من المنافقين؛ وهو أُويس بن قيظي أحد رؤساء المنافقين {**يَا أَهْلَ يَثْرِبَ(٤)**} أي المدينة قبل أن يبطل الرسول هذا الاسم لها ويسميها بالمدينة {**لا مُقَامَ لَكُمْ**} أي في سفح سلع عند الخندق {**فَارْجِعُوا**} إلى منازلكم داخل المدينة بحجة أنه لا فائدة في البقاء هنا دون قتال، وما قال ذلك إلا فراراً من القتال وهروباً من المواجهة، وقوله تعالى {**وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ**} أي يطلبون الإذن بالعودة إلى منازلهم بالمدينة بدعوى أن بيوتهم عورة أي مكشوفة أمام العدو وهم لا يأمنون عليها

وأكذبهم الله تعالى في قولهم فقال {**وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً**} أي ما يريدون بهذا الاعتذار إلا الفرار من وجه العدو، وقال تعالى فيهم ومن أصدق من الله قيلاً: {**وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ**} المدينة {**مِنْ أَقْطَارِهَا**} أي من جميع نواحيها من شرق وغرب وشمال وجنوب {**ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ**} أي طلب منهم العدو الغازي الذي حل عليهم المدينة الردة أي العودة إلى الشرك {**لَآتَوْهَا**} أعطوها فوراً {**وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرا**} حتى يرتدوا عن الإسلام ويصبحوا كما كانوا مشركين والعياذ بالله من النفاق والمنافقين.

هداية الآيات

١- مشروعية التذكير بالنعم ليشكرها المذكَّرون بها فتزداد طاعتهم لله ورسوله.

٢- عرض غزوة الأحزاب أو الخندق عرضاً صادقاً لا أمثل منه في عرض الأحداث للعبرة.

٣- بيان أن غزوة الخندق كانت من أشد الغزوات وأكثرها ألماً وتعباً على المسلمين.

٤- بيان أن حسن الظن بالله ممدوح، وأن سوء الظن به تعالى كفر ونفاق.

٥- بيان مواقف المنافقين الداعية إلى الهزيمة ليكون ذلك درساً للمؤمنين.

٦- تقرير النبوة المحمدية بإخبار الغيب التي أخبر بها رسول الله فكانت كما أخبر من فتح فارس والروم واليمن.

قال تعالى {وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُولاً(١٥) قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً(١٦)قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي

يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً(١٧) قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً(١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً(١٩)}

شرح الكلمات:

{وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ}: أي من قبل غزوة الخندق وذلك يوم أحد قالوا: والله لئن أشهدنا الله {قتالا لنقاتلن ولا نولي الأدبار.

{وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُولاً}: أي صاحب العهد عن الوفاء به.

{وَإِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً}: أي وإذا فررتم من القتال فإنكم لا تمتعون بالحياة إلا قليلاً وتموتون.

{مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ}: أي من يجيركم ويحفظكم من الله.

{إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً}: أي عذاباً تستاءون له وتكربون.

{قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ}: أي المثبطين عن القتال المفشلين إخوانهم عنه حتى لا يقاتلوا مع رسول الله والمؤمنين.

{هَلُمَّ إِلَيْنَا}: أي تعالوا إلينا ولا تخرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

{وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً}: أي ولا يشهدون القتال إلا قليلاً دفعاً عن أنفسهم تهمة النفاق.

{أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ}: أي بخلاء لا ينفقون على مشاريعكم الخيرية كنفقة الجهاد وعلى الفقراء.

{تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ}: أي تدور أعينهم من شدة الخوف لجبنهم كالمحتضر الذي يغشى عليه أي يغمى عليه من آلام سكرات الموت.

{سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ}: أي آذوكم بألسنة ذربة حادة كأنها الحديد وذلك بكثرة كلامهم وتبجحهم بالأقوال دون الأفعال.

{أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ}: أي بخلاء بالخير لا يعطونه ولا يفعلونه بل ولا يقولونه حتى القول.

{أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا}: أي إنهم لم يؤمنوا الإيمان الصحيح فلذا هم جبناء عند اللقاء بخلاء عند العطاء.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في عرض أحداث غزوة الأحزاب فقوله تعالى: {**وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ**} أي لقد عاهد أولئك المنافقون الله من قبل غزوة الأحزاب وذلك يوم فروا من غزوة أحد إذ كانت قبل غزوة الأحزاب بقرابة السنتين فقالوا والله لئن أشهدنا الله قتالاً لنقاتلن ولا نوليّ الأدبار، فذكرهم الله بعهدهم الذي قطعوه على أنفسهم ثم نكثوه، {**وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُولاً**} أي يسأل عنه صاحبه ويؤاخذ به. وقوله تعالى: {**قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ**} أي قل لهم يا رسولنا إنه لن ينفعكم الفرار أي الهروب من الموت أو القتل لأن الآجال محددة ومن لم يمت بالسيف مات بغيره فلا معنى للفرار من القتال إذا وجب وقوله {**وَإِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً**} أي وإذا فررتم من القتال فإنكم لا تمتعون بالحياة إلا قليلا من الزمن ثم تموتون عند نهاية أعماركم وهي فترة قليلة، فالفرار لا يطيل أعماركم والقتال لا ينقصها، وقوله تعالى {**قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً**} أي قل لهم يا رسولنا تبكيتاً لهم وتأنيباً وتعليما أيضا: من ذا الذي يعصمكم أي يجيركم ويحفظكم من الله {**إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً**} أي ما يسوءكم من بلاء وقتل ونحوه {**أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً**} أي سلامة وخيراً فليس هناك من يحول دون وصول ذلك إليكم لأن الله تعالى يجير ولا يجار عليه وقوله تعالى {**وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً**} أي ولا يجد المخالفون لأمر الله العصاة له ولرسوله من دون الله ولياً يتولاهم فيدفع عنهم ما أراد الله بهم من سوء، ولا نصيراً ينصرهم إذا أراد الله إذلالهم وخذلانهم لسوء أفعالهم، وقوله تعالى في الآية (١٨) في هذا السياق {**قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ**} أخبرهم تعالى بأنه قد علم المعوقين أي المثبطين عن القتال والمخذلين بما يقولونه سراً في صفوف المؤمنين كالطابور الخامس في الحروب وهم أناس يذكرون في الخفاء عظمة العدو وقوته ويرهبون منه ويخذلون عن قتاله. وقوله {**وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا**} أي تعالوا إلينا إلى المدينة واتركوا محمداً وأصحابه يموتون وحدهم فإنهم لا يزيدون عن أكلة جزور. وقوله {**وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً**} أي لا يشهد القتال ويحضره أولئك المنافقون المثبطون والذين قالوا إن

بيوتنا عورة إلا قليلاً إذ يتخلفون في أكثر الغزوات وإن حضروا مرة قتالاً فإنما هم يدفعون به معرة التخلف ودفعا لتهمة النفاق التي لصقت بهم.

وقوله تعالى {**أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ**} وصفهم بالبخل بعد وصفهم بالجبن وهما شر صفات المرء أي الجبن والبخل أشحة عليكم أي بخلاء لا ينفقون معكم ولا على الجهاد ولا على الفقراء والمحتاجين وقوله تعالى {**فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ**} أي بسبب هجوم العدو {**رَأَيْتَهُمْ**} أيها الرسول {**يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ**} لائذين بك {**تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ**} من الخوف {**كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ**} وهو المحتضر يغمى عليه لما يعاني من سكرات الموت وهذا تصوير هائل لمدى ما عليه المنافقون من الجبن والخوف وعلة هذا هو الكفر وعدم الإيمان بالقدر والبعث والجزاء.

وقوله {**فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ**} أي راحت أسبابه بانتهاء الحرب {**سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ**} أي سلقكم أولئك الجبناء عند اللقاء أي ضربوكم بألسنة ذربة حادة كالحديد بالمطالبة بالغنيمة أو بالتبجح الكاذب بأنهم فعلوا وفعلوا. وهذا حالهم إلى اليوم وقوله {**أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ**} أي بخلاء على مشاريع الخير وما ينفق في سبيل الله فلا ينفقون لأنهم لا يؤمنون بالخلف ولا بالثواب والأجر وذلك لكفرهم بالله ولقائه. ولذا قال تعالى {**أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا(١)**} فسجل عليهم وصف الكفر ورتب عليه نتائجه وقوله {**فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ**} أي أبطلها فلا يثابون عليها لأنها أعمال مشرك وأعمال المشرك باطلة، وقوله {**وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرا**} أي إبطال أعمالهم وتخييبهم فيها وحرمانهم من جزائها يسير على الله ليس بالعسير. ولذ هو واقع كما أخبر تعالى.

هداية الآيات

١- وجوب الوفاء بالعهد إذ نقض العهد من علامات النفاق.

٢- ترك الجهاد خوفاً من القتل عمل غير صالح إذ القتال لا ينقص العمر وتركه لا يزيد فيه.

٣- الشح والجبن من صفات المنافقين وهما شر الصفات في الإنسان.

٤- الثرثرة وكثرة الكلام والتبجح بالأقوال من صفات أهل الجبن والنفاق.

٥- الكفر محبط للأعمال.

قال تعالى {يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلاً(٢٠) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً(٢١) وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً(٢٢) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً(٢٣) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً(٢٤) وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً(٢٥)}

شرح الكلمات:

{يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا}: أي يحسب أولئك المنافقون الجبناء الأحزاب وهم قريش وغطفان.

{لَمْ يَذْهَبُوا}: أي لم يعودوا إلى بلادهم خائبين.

{وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ}: أي مرة أخرى فرضاً.

{يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ}: أي من جبنهم وخوفهم يتمنون أن لو كانوا في البادية مع سكانها.

{يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ}: أي إذا كانوا في البادية لو عاد الأحزاب يسألون عن أنبائكم أي أخباركم هل أنهزمتم أو انتصرتم.

{وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلاً}: أي ولو كانوا بينكم في الحاضرة ما قاتلوا معكم إلا قليلاً.

{أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ}: أي قدوة صالحة تقتدون به ﷺ في القتال والثبات في مواطنه.

{مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ}: من الابتلاء والنصر.

{وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ}: في الوعد الذي وعد به.

{وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً}: أي تصديقاً بوعد الله وتسليماً لأمر الله.

{صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ}: أي وفوا بوعدهم.

{قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ}: أي وفى بنذره فقاتل حتى استشهد.

{وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ}: أي مازال يخوض المعارك مع رسول الله وهو ينتظر القتل في سبيل الله.

{وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً}: أي في عهدهم بخلاف المنافقين فقد نكثوا عهدهم.

{وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ}: أي ورد الله الأحزاب خائبين لم يظفروا بالمؤمنين.

{وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ}: أي بالريح والملائكة.

معنى الآيات:

ما زال السياق في سرد أحداث غزوة الأحزاب فقوله تعالى **{يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا}** أي يحسب أولئك المنافقون الجبناء الذين قالوا إن بيوتنا عورة وقالوا لإخوانهم هلم إلينا أي اتركوا محمداً في الواجهة وحده إنهم لجبنهم ظنوا أن الأحزاب لم يعودوا إلى بلادهم مع أنهم قد رحلوا وهذا منتهى الجبن والخوف وقوله تعالى **{وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ}** أي مرة أخرى على فرض وتقدير **{يَوَدُّوا}** يومئذ **{لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ}** أي خارج المدينة لشدة خوفهم من الأحزاب الغزاة، وقوله تعالى **{يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ}** أي أخباركم هل ظفر بكم الأحزاب أو لا، **{وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ}** أي بينكم ولم يكونوا في البادية **{مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلاً}** وذلك لجبنهم وعدم إيمانهم بفائدة القتال لكفرهم بلقاء الله تعالى وما عنده من ثواب وعقاب هذا ما تضمنته الآية الأولى (٢٠)وقوله تعالى في الآية الثانية (٢١) **{لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً}** أي: لقد كان لكم أيها المسلمون أي: من مؤمنين صادقين ومنافقين كاذبين في رسول الله محمد ﷺ أسوة حسنة أي قدوة صالحة فاقتدوا به في جهاده وصبره وثباته، فقد جاع حتى شد بطنه بعصابة وقاتل حتى شج وجهه وكسرت رباعيته ومات عمه وحفر الخندق بيديه وثبت في سفح سلع أمام العدو قرابة شهر فأتسوا به في الصبر والجهاد والثبات إن كنتم ترجون الله أي تنظرون ما عنده من خير في مستقبل أيامكم في الدنيا والآخرة وترجون اليوم الآخر أي ترتقبونه وما فيه من سعادة وشقاء، ونعيم مقيم أو جحيم وعذاب أليم. وتذكرون الله تعالى كثيرا في كل حالاتكم وأوقاتكم، فاقتدوا بنبيكم فإن الاقتداء به واجب لا يسقط إلا عن عجز والله المستعان.

وقوله تعالى في الآية الثالثة في هذا السياق (٢٢) {**وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ**} أي لما رأى المؤمنون الصادقون جيوش الأحزاب وقد أحاطب بهم {**قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ**} بخلاف ما قاله المنافقون حيث قالوا {**مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً**} وقوله {**وَمَا زَادَهُمْ**} أي رؤيتهم للأحزاب على كثرتهم {**إِلَّا إِيمَاناً**} بصادق وعد الله {**وَتَسْلِيماً**} لقضائه وحكمه، وهذا ثناء عطر على المؤمنين الصادقين من ربهم عز وجل. وقوله تعالى {**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ**} هذا ثناء آخر على بعض المؤمنين الذين لما تخلفوا عن بدر فتأسفوا ولما حصل انهزام لهم في أحد عاهدوا الله لئن أشهدهم الله قتالا مع رسول الله ﷺ ليقاتلن حتى الاستشهاد فأخبر تعالى عنهم بقوله فمنهم من قضى نحبه أي وفى بنذره فقاتل حتى استشهد ومنهم من ينتظر القتل في سبيل الله، وقوله تعالى {**وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً**} أدنى تبديل في موقفهم فثبتوا على عهدهم بخلاف المعوقين من المنافقين فإنهم بدلوا وغيروا ما عاهدوا الله عليه وقوله تعالى {**لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ**} أي أجرى تعالى تلك الأحداث فكانت كما قدرها في كتاب المقادير، ليجزي الصادقين بصدقهم فيكرمهم وينعمهم في جواره ويعذب المنافقين بناره إن شاء ذلك فيميتهم قبل توبتهم، أو يتوب عليهم فيؤمنوا ويوحدوا ويدخلوا الجنة مع المؤمنين الصادقين وهو معنى قوله {**وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ**} ذلك لهم قضاء وقدراً أو يتوب عليهم فيتوبوا فلا يعذبوا، وقوله {إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً } إخبار منه تعالى عن نفسه بأنه كان ذا ستر على ذنوب التائبين من عباده رحيما بهم فلا يعاقبهم بعد توبتهم.

وقوله تعالى في آخر هذا السياق (٢٥) {**وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا**} وهم قريش وكنانة وأسد وغطفان ردهم بغيظهم أي بكربهم وغمهم حيث لم يظفروا بالرسول والمؤمنين ولم يحققوا شيئاً مما أمّلوا تحقيقه، وكفى الله المؤمنين القتال حيث سلط على الأحزاب الريح والملائكة فانهزموا وفروا عائدين إلى ديارهم لم ينالوا خيراً. وكان الله قوياً على إيجاد ما يريد إيجاده عزيزاً أي غالباً على أمره لا يمتنع منه شيء أراده.

هداية الآيات

١- تقرير أن الكفر والنفاق صاحبهما لا يفارقه الجبن والخور والشح والبخل.

٢- وجوب الائتساء برسول الله في كل ما يطيقه العبد المسلم ويقدر عليه.

٣- ثناء الله تعالى على المؤمنين الصادقين لمواقفهم المشرفة ووفائهم بعهودهم.

٤- ذم الانهزاميين الناكثين لعهودهم الجبناء من المنافقين وضعاف الإيمان.

٥- بيان الحكمة في غزوة الأحزاب، ليجزي الله الصادقين ..... الخ.

قال تعالى {وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً(٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَأُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً(٢٧)}

شرح الكلمات:

{ظَاهَرُوهُمْ }: أي ناصروهم ووقفوا وراءهم يشدون أزرهم.

{مِنْ صَيَاصِيهِمْ}: أي من حصونهم والصياصي جمع صيصيّة وهي كل ما يمتنع به.

{وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ}: أي ألقى الخوف في نفوسهم فخافوا.

{وَأَرْضاً لَمْ تَطَأُوهَا}: أي لم تطأوها بعد وهي خيبر إذ فتحت بعد غزوة الخندق.

معنى الآيات:

قوله تعالى **{وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ}** هذا شروع في ذكر غزوة بني قريظة إذ كانت بعيد غزوة الخندق في السنة الخامسة من الهجرة في آخر شهر ذي القعدة وخلاصة الحديث عن هذه الغزوة أنه لما ذهب الأحزاب وعاد الرسول ﷺ والمؤمنون إلى المدينة وكان بنو قريظة قد نقضوا عهدهم وانضموا إلى الأحزاب من المشركين عونا لهم على رسول الله والمؤمنين فلما ذهب الأحزاب وانصرف الرسول والمؤمنون من الخندق إلى المدينة فما راع الناس إلا ومنادي رسول الله ﷺ ينادي إلى بني قريظة فلا يصلين أحدكم العصر إلا ببني قريظة وهي على أميال من المدينة وذلك أن جبريل أتى النبي ﷺ ظهر ذلك اليوم فقال يا رسول الله وضعت السلاح إن يأمرك بالسير إلى بني قريظة فقام رسول الله وأمر مناديا أن ينادي بالذهاب إلى بني قريظة وذهب رسول الله والمسلمون فحاصروهم قرابة خمس وعشرين ليلة وجهدهم الحصار وقذف الله في قلوبهم الرعب فقال لهم رسول الله أتنزلون على حكمي فأبوا فقال أتنزلون على حكم سعد بن معاذ؟ فقالوا نعم فحكمه فيهم فحكم بأن يقتل الرجال وتسبى الذراري والنساء وتقسم

الأموال، فقال الرسول ﷺ مقرراً للحكم لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع السموات. فحبسهم رسول الله ﷺ في دار بنت الحارث من نساء بني النجار وخرج إلى سوق المدينة فحفر فيها خندقاً ثم جيء بهم وفيهم حيي بن أخطب الذي حزبّ الأحزاب وكعب بن أسيد رئيس بني قريظة، وأمر علياً والزبير بضرب أعناقهم وطرحهم في ذلك الخندق.

وبذلك انتهى الوجود اليهودي المعادي بالمدينة النبوية. والحمد لله.

فقوله تعالى {**وَأَنْزَلَ**} أي الله تعالى بقدرته {**الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ**} أي ظاهروا الأحزاب وكانوا عونا لهم على الرسول والمؤمنين وهم يهود بني قريظة {**مِنْ صَيَاصِيهِمْ**} أي أنزلهم من حصونهم الممتنعين بها، {**وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ**} ولذا قبلوا التحكيم فحكم فيهم رسول الله ﷺ سيد الأوس سعد بن معاذ رضي الله عنه فحكم فيهم بقتل المقاتلة من الرجال وسبي النساء والذراري وهو معنى قوله تعالى {**فَرِيقاً تَقْتُلُونَ**} وهم الرجال {**وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً**} وهم النساء والأطفال، وقوله {**وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ**} الزراعية {**وَدِيَارَهُمْ**} السكنية {**وَأَمْوَالَهُمْ**} الصامتة والناطقة وقوله {**وَأَرْضاً لَمْ تَطَأُوهَا**} أي أورثكم أرضاً لم تطئوها بعد وهي أرض خيبر حيث غزاهم رسول الله في السنة السادسة بعد صلح الحديبية وفتحها الله عليهم وقوله {**وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً**} تذييل المراد به تقرير ما أخبر تعالى به من نصر أوليائه وهزيمة أعدائه.

هداية الآيات

١- بيان عاقبة الغدر فإن بني قريظة لما غدرت برسول الله انتقم منها فسلط عليها رسوله والمؤمنين فأبادوهم عن

آخرهم ولم يبق إلا الذين لا ذنب لهم وهم النساء والأطفال.

٢- بيان صادق وعد الله إذ أورث المسلمين أرضاً لم يكونوا قد وطئوها وهي خيبر والشام والعراق وفارس وبلاد أخرى كبيرة وكثيرة.

٣- تقرير أن قدرة الله لا تحد أبداً فهو تعالى على كل شيء قدير لا يعجزه شيء.

قال تعالى {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً(٢٨) وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً(٢٩)يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً(٣٠)}

شرح الكلمات:

{قُلْ لِأَزْوَاجِكَ}: أي اللائي هن تحته يومئذ وهن تسع طلبن منه التوسعة في النفقة عليهن ولم يكن عند رسول الله ﷺ ما يوسع به عليهن.

{فَتَعَالَيْنَ} : أي إلى رسول الله ﷺ وكان يومئذ قد اعتزلهن شهرا.

{أُمَتِّعْكُنَّ} : أي متعة الطلاق المشروعة على قدر حال المطلق سعة وضيقا.

{وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً}: أي أطلقكن طلاقاً من غير إضرار بكن.

{تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ}: أي تردن رضا الله ورسوله والجنة.

{فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ}: أي عشرة النبي ﷺ زيادة على الإحسان العام.

{بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ}: أي بنشوز وسوء خلق يتأذى به رسول الله صلى الله عليه وسلم.

{يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ}: أي مرتين على عذاب غيرهن ممن آذين أزواجهن.

{وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً}: أي مضاعفة العذاب يسيرة هينة على الله تعالى.

شرح الكلمات:

شاء الله تعالى أن يجتمع نساء الرسول ﷺ لما رأين نساء الأنصار والمهاجرين قد وُسّع عليهن في النفقة لوجود يسر وسعة رزق بين أهل المدينة، أن يطالبن بالتوسعة في النفقة عليهن أسوة بغيرهن وكن يومئذ تسعا وهن عائشة بنت أبي بكر، وحفصة بنت عمر، وأم حبيبة بنت أبي سفيان، وسودة بنت زمعة، وأم سلمة بنت أمية، وزينب بنت جحش، وميمونة بنت الحارث الهلالية، وجورية بنت الحارث المصطلقية، وصفيّة بنت حيي بن أخطب النضريّة فأبلغت عائشة ذلك رسول الله ﷺ فتأثر لذلك، لعدم القدرة على ما طُلب منه وقعد في مشربة له واعتزلهن شهراً كاملا حتى أنزل الله تعالى آية التخيير وهي هذه **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ**

قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا} من لذيذ الطعام والشراب وجميل الثياب وحلي الزينة ووافر ذلك كله فتعالين إلى مقام الرسول الرفيع {**أُمَتِّعْكُنَّ**} المتعة المشروعة في الطلاق {**وَأُسَرِّحْكُنَّ**} **أي أطلّقكن سَرَاحاً جَمِيلاً**} أي لا إضرار معه، {**وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**} أي رضاهما {**وَالدَّارَ الْآخِرَةَ**} أي الجنة {**فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ**} أي هيأ وأحضر {**لِلْمُحْسِنَاتِ**} طاعة الله ورسوله {**مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً**} وهو المقامات العالية في حضرة النبي ﷺ في دار السلام.

وخيرهن ﷺ امتثالا لأمر الله في قوله {**قُلْ لِأَزْوَاجِكَ**} وبدأ بعائشة فقال لها: إني أريد أن أذكر لك أمراً فلا تقضي فيه شيئاً حتى تستأمري أبويك أي تطلبين أمرهما في ذلك وقرأ عليها الآية فاختارت الله ورسوله والدار الآخرة، وتتابعن على ذلك فما اختارت منهنّ امرأة غير الله ورسوله والدار الآخرة فأكرمهن الله لذلك وأنزل على رسوله: {**لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً**}

وقوله تعالى {**يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ**} أي بخصلة قبيحة ظاهرة كسوء عشرة النبي ﷺ فإن الله تعالى {**يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ**} يوم القيامة لأن أذيّة رسول الله ﷺ من أبواب الكفر والعياذ بالله تعالى {**وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً**} أي وكان تضعيف العذاب على من أتت بفاحشة مبينة شيئا يسيراً على الله لا يعجزه حتى لا يفعله وهذا لأمرين الأول لأن أذيّة الرسول من أبواب الكفر والثاني لعلو مقامهن وشرفهن فإن ذا الشرف والمنزلة العالية يستقبح منه القبيح أكثر مما يستقبح من غيره.

هداية الآيات

١- مشروعية تخيير الزوجات فإن اخترن الطلاق تطلّقن وإن لم تخترنه فلا يقع الطلاق.

٢- كمال أزواج النبي ﷺ حيث اخترن الله ورسوله والدار الآخرة عن الدنيا وزينتها.

٣- مشروعية المتعة بعد الطلاق وهي أن تعطى المرأة شيئا من المال بحسب غنى المطلق وفقره لقوله تعالى {**عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ**}

٤- وجوب الإحسان العام والخاص، الخاص بالزوج والزوجة والعام في طاعة الله ورسوله.

٥- بيان أن سيئة العالم الشريف أسوأ من سيئة الجاهل الوضيع. ولذا قالوا سيئات الأبرار حسنات المقربين كمثل من الأمثال السائرة للعظة والاعتبار.

قال تعالى {وَمَنْ يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً(٣١) يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً(٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً(٣٣) وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً(٣٤)}

شرح الكلمات:

{وَمَنْ يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ}: أي ومن يطع منكن الله ورسوله.

{نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ}: أي نضاعف لها أجر عملها الصالح حتى يكون ضعف عمل امرأة أخرى من غير نساء النبي.

{وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً}: أي في الجنة.

{يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ}: أي لستن في الفضل كجماعات النساء.

{إِنِ اتَّقَيْتُنَّ}: بل أنتن أشرف وأفضل بشرط تقواكن لله.

{فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ}: أي نظراً لشرفكن فلا ترققن العبارة.

{فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ}: أي مرض النفاق أو مرض الشهوة.

{وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً}: أي جرت العادة أن يقال بصوت خشن لا رقة فيه.

{وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ}: أي أقررن في بيوتكن ولا تخرجن منها إلا لحاجة.

{وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى}: أي ولا تتزين وتخرجن متبخترات متغنجات كفعل نساء الجاهلية الأولى قبل الإسلام.

{إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ}: أي إنما أمركن بما أمركن به من العفة والحجاب ولزوم البيوت ليطهركن من الأدناس والرذائل.

{وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ}: أي الكتاب والسنة لتشكرن الله على ذلك بطاعته وطاعة رسوله.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم مع أزواج النبي أمهات المؤمنين فبعد أن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة عن الحياة الدنيا وزينتها أصبحن ذوات رفعة وشأن عند الله تعالى، وعند رسوله والمؤمنين. فأخبرهن الرب تبارك وتعالى بقوله: {**وَمَنْ يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ**} أي تطع الله بفعل الأوامر وترك النواهي وتطع رسوله محمداً ﷺ فلا تعص له أمراً ولا تسيء إليه في عشرة، وتعمل صالحاً من النوافل والخيرات نؤتها أجرها مرتين أي نضاعف لها أجر عملها فيكون ضعف أجر عاملة أخرى من النساء غير أزواج الرسول ﷺ. وقوله: {**وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً**} أي في الجنة فهذه بشارة بالجنة لنساء النبي أمهات المؤمنين التسع اللائي نزلت هذه الآيات في شانهن.

هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٣١) وقوله تعالى: {**يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ**} أي يا زوجات النبي أمهات المؤمنين إنّكن لستن كجماعات النساء إن شرفكن أعظم ومقامكم أسمى وكيف وأنتن أمهات المؤمنين وزوجات خاتم النبيين فاعرفن قدركن بزيادة الطاعة لله ولرسوله، وقوله إن اتقيتن أي إن هذا الشرف حصل لكن بتقواكن لله فلازمن التقوى إنكن بدون تقوى لا شيء يذكر شأنكن شأن سائر النساء. وبناء عليه {**فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ**} أي لا تليّن الكلمات وترققن الصوت إذا تكلمتن مع الأجانب من الرجال. وقوله تعالى: {**فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ**} نفاق مع شهوة عارمة تجعله يتلذذ بالخطاب وقوله: {**وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً**} وهو ما يؤدي المعنى المطلوب بدون زيادة ألفاظ وكلمات لا حاجة إليها. وقوله: {**وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ**} أي اقررن فيها بمعنى أثبتن فيها ولا تخرجن إلا لحاجة لا بد منها وقوله: {**وَلا تَبَرَّجْنَ**} أي إذا خرجتن لحاجة {**تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى**} أي قبل الإسلام إذ كانت المرأة تتجمل وتخرج متبخترة متكسرة متغنجة في مشيتها وصوتها تفتن الرجال.

وقوله تعالى: {**وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ**} بأدائها مستوفاة الشروط والأركان والواجبات في أوقاتها مع الخشوع فيها {**وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**} بفعل الأمر واجتناب النهي. أمرهن بقواعد الإسلام وأهم دعائمه.

وقوله: {**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**} أي إنما أمرناكن ونهيناكن إرادة إذهاب الدنس والإثم إبقاءً على طهركن يا أهل البيت النبوي.

وقوله تعالى: {**وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**} أي كاملا تاماً من كل ما يؤثم ويدسى النفس ويدنسها. وقوله تعالى {وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ} من الكتاب والسنة وهذا أمر لهن على جهة والموعظة وتعدد النعمة.

وقوله {**إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً**} أي بكم يا أهل البيت خبيراً بأحوالكم فثقوا به وفوضوا الأمر إليه. والمراد من أهل البيت هنا أزواج النبي ﷺ وفاطمة وابناها الحسن والحسين وعليّ الصهر الكريم رضي الله عن آل بيت رسول الله وعن صحابته أجمعين

هداية الآيات

١- لا شرف إلا بالتقوى. إن أكرمكم عند الله أتقاكم.

٢- بيان فضل نساء النبي وشرفهن.

٣- حرمة ترقيق المرأة صوتها وتليين عباراتها إذا تكلمت مع أجنبي.

٤- وجوب بقاء النساء في منازلهن ولا يخرجن إلا من حاجة لا بد منها.

٥- حرمة التبرج وهي أن تتزين المرأة وتخرج بادية المحاسن متبخترة في مشيتها.

٦- على المسلم أن يذكر ما شرفه الله به من الإيمان والإسلام ليترفع عن الدنايا والرذائل.

٧- بيان أن الحكمة هي السنة النبوية الصحيحة.

٨- الإشارة إلى وجود جاهلية ثانية وقد ظهرت منذ نصف قرن وهي تبرج النساء بالكشف عن الرأس والصدور والسيقان وحتى الأفخاذ.

قال تعالى {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} [الأحزاب: ٣٥]

شرح الكلمات:

{إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ}: إن الذين أسلموا لله وجوههم فانقادوا لله ظاهراً وباطناً والمسلمات أيضا.

{وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ}: أي المصدقين بالله رباً وإلهاً والنبي محمد نبياً ورسولا والإسلام ديناً وشرعاً والمصدقات.

{وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ}: أي المطيعين لله ورسوله من الرجال والمطيعات من النساء.

{وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ}: أي الصادقين في أقوالهم وأفعالهم والصادقات.

{وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ}: أي الحابسين نفوسهم على الطاعات فلا يتركوها وعن المعاصي فلا يقربوها وعلى البلاء فلا يسخطوه ولا يشتكوا الله إلى عباده والحابسات.

{وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ}: أي المتذللين لله المخبتين له والخاشعات من النساء كذلك.

{وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ}: أي المؤدين الزكاة والفضل من أموالهم عند الحاجة إليه والمؤديات كذلك.

{وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ}: أي عن الحرام والحافظات كذلك إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم بالنسبة للرجال أما النساء فالحافظات فروجهن إلا على أزواجهن فقط.

{وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ}: أي بالألسن والقلوب فعلى أقل التقدير يذكرون الله ثلثمائة مرة في اليوم والليلة زيادة على ذكر الله في الصلوات الخمس.

{أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً}: أي لذنوبهم وذنوبهن.

{وَأَجْراً عَظِيماً}: أي الجنة دار الأبرار.

معنى الآيات:

هذه الآية وإن نزلت جواباً عن تساءل بعض أزواج النبي ﷺ إذ قلن للنبي ﷺ: ما لنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرجال فأنزل الله تعالى هذه ا لآية المباركة إن المسلمين والمسلمات، فإن مناسبتها لما قبلها ظاهرة وهي أنه لما أثنى على آل البيت بخير فإن نفوس المسلمين والمسلمات تتشوق لخير لهم كالذي حصل لآل البيت الطاهرين فذكر تعالى أن المسلمين والمسلمات الذين انقادوا لأوامر الله ورسوله وأسلموا وجوههم لله فلا يلتفتون إلى غيره، كالمؤمنين والمؤمنات بالله رباً وإلهاً ومحمد نبياً ورسولاً والإسلام ديناً وشرعاً، كالقانتين أي المطيعين لله رسوله والمطيعات في السراء والضراء والمنشط والمكره في حدود الطاقة البشرية، كالصادقين في أقوالهم وأفعالهم والصادقات كالصابرين أي الحابسين نفوسهم على الطاعات فعلاً، وعن المحرمات تركاً، وعلى البلاء رضاً وتسليماً والصابرات كالخاشعين في صلاتهم وسائر طاعاتهم والخاشعات لله تعالى كالمتصدقين بأداء زكاة أموالهم وبفضولها عند الحاجة إليها والمتصدقات كالصائمين رمضان والنوافل كعاشوراء والصائمات، كالحافظين فروجهم عما حرم الله تعالى عليهم من المناكح وعن كشفها لغير الأزواج والحافظات، كالذاكرين الله كثيراً بالليل والنهار ذكر القلب واللسان والذاكرات الكل الجميع أعد الله تعالى لهم مغفرة لذنوبهم إذ كانت لهم ذنوب، وأجراً عظيماً أي جزاء عظيماً على طاعاتهم بعد إيمانهم وهو الجنة دار السلام جعلنا الله منهم ومن أهل الجنة.

هداية الآيات

١- بشرى المسلمين والمسلمات بمغفرة ذنوبهم ودخول الجنة إن اتصفوا بتلك الصفات المذكورة في هذه الآية وهي عشر صفات أولها الإسلام وآخرها ذكر الله تعالى.

٢- فضل الصفات المذكورة إذ كانت سبباً في دخول الجنة بعد مغفرة الذنوب.

٣- تقرير مبدأ التساوي بين الرجال والنساء في العمل والجزاء في العمل الذي كلف الله تعالى به النساء والرجال معاً وأما ما خص به الرجال أو النساء فهو على خصوصيته للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن والله يقول الحق ويهدي السبيل.

قال تعالى {{وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا (٣٦) وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ

عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٣٧) مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا (٣٨) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩) مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا} [الأحزاب: ٣٦ - ٤٠]

شرح الكلمات:

{وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ}: أي لا ينبغي ولا يصلح لمؤمن ولا مؤمنة.

{أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ}: أي حق الاختيار فيما حكم الله ورسوله فيه بالجواز أو المنع.

{فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً}: أي أخطأ طريق النجاة والفلاح خطأً واضحاً.

{أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ}: أي أنعم الله عليه بالإسلام، وأنعمت عليه بالعتق وهو زيد بن حارثة.

{وَاتَّقِ اللَّهَ}: أي في أمر زوجتك فلا تحاول طلاقها.

{وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ}: أي وتخفي في نفسك وهو علمك بأنك إذا طلق زيد زينب زوجكها الله إبطالاً لما عليه الناس من حرمة الزواج من امرأة المتبنّى.

{مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ}: أي مظهره حتماً وهو زواج الرسول من زينب بعد طلاقها.

{وَتَخْشَى النَّاسَ: أي يقولون تزوج محمد مطلقة مولاه زيد.

{وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ}: وهو الذي أراد لك ذلك الزواج.

{فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً}: أي حاجته منها ولم يبق له رغبة فيها لتعاليها عليه بشرف نسبها ومحتد آبائها.

{زَوَّجْنَاكَهَا} : إذ تولى الله عقد نكاحها فدخل النبي ﷺ عليها بدون إذن من أحدٍ وذلك سنة خمس وأُشبع الناس لحماً وخبزاً في وليمة عرسها.

{لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ}: أي إثم في تزوجهم من مطلقات أدعيائهم.

{وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ}: أي وما قدره الله في اللوح المحفوظ لا بد كائن.

{وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ}: أي يفعلون ما أذن لهم فيه ربهم ولا يبالون بقول الناس.

{وكفى بالله حسيباً }: أي حافظاً لأعمال عباده ومحاسباً لهم عليها يوم الحساب.

{مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ}: أي لم يكن أباً لزيد ولا لغيره من الرجال إذ مات أطفاله الذكور وهم صغار.

{وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ}: أي لم يجيء نبي بعده إذ لو جاء نبي بعده لكان ولده أهلا للنبوة كما كان أولاد إبراهيم ويعقوب، وداود مثلا.

معنى الآيات:

قوله تعالى: {**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ**} الآيات هذا شروع في قصة زواج زيد بن حارثة الكلبي مولى رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش بنت عمة النبي أميمة بنت عبد المطلب إنه لما أبطل الله التبني وحرمه بقوله {وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ} وقوله {ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ} تبع ذلك أن لا يرث الدعي ممن ادعاه، وأن لا تحرم مطلقته على من تبنّاه وادعاه وهكذا بطلت الأحكام التي كانت لازمة للتبني، وكون هذا نزل به القرآن ليس من السهل على النفوس التي اعتادت هذه الأحكام في الجاهلية وصدر الإسلام أن تتقبلها وتذعن لها بعد ليال بسهولة فأراد الله تعالى أن يخرج ذلك لحيز الوجود فألهم رسوله أن يخطب زينب لمولاه زيد، واستجابت زينت للخطبة فهماً منها أنها مخطوبة لرسول الله لتكون أماً للمؤمنين ولكن تبين لها بعد ليال أنها مخطوبة لزيد بن حارثة مولى رسول الله وليست كما فهمت وهنا أخذتها الحمية وقالت لن يكون هذا لن تتزوج شريفة مولى من موالي الناس ونصرها أخوها على ذلك وهو عبد الله بن جحش. فنزلت هذه الآية {**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ**} الآية فما كان منها إلا أن قبلت عن رضى الزواج من زيد وتزوجها زيد وبحكم الطباع البشرية فإن زينب لم تخف شرفها على زيد وأصبحت تترفع عليه الأمر الذي شعر معه زيد بعدم الفائدة من هذا الزواج فأخذ يستشير رسول الله مولاه ويستأذنه في طلاقها والرسول يأبى عليه وذلك علماً منه أنه إذا طلقها سيزوجه الله بها إنهاءً لقضية جعل أحكام الدعي كأحكام الولد من الصلب فكان يقول له: اتق الله يا زيد لا تطلق بغير ضرورة ولا حاجة إلى الطلاق واصبر على ما تجده من امرأتك، وهنا عاتب رسولَ الله ﷺ ربُّه عز وجل إذ قال له: {**وَإِذْ**

تَقُولُ } أي اذكر إذ تقول {**لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ**} أي بنعمة الإسلام، {**وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ**} بأن عتقته {**أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ**} وهو أمر زواجك منها، {**مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ**} أي مظهره لا محالة من ذلك {**وَتَخْشَى النَّاسَ**} أن يقولوا محمد تزوج امرأة ابنه زيد، {**وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ**} وقد أراد منك الزواج من زينب بعد طلاقها وانقضاء عدتها هدماً وقضاءً على الأحكام التي جعلت الدعي كابن الصُّلب.

وقوله تعالى: {**فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً**} أي حاجته منها بالزواج بها وطلقها {**زَوَّجْنَاكَهَا**} إذ تولينا عقد نكاحها منك دون حاجة إلى ولي ولا إلى شهود ولا إلى مهر أو صداق وذلك من أجل أن لا يكون على المؤمنين حرج أي إثم في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً، وقوله تعالى: {**وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً**} أي وما قضى به الله واقع لا محالة وقوله تعالى: {**مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ**} أي من إثم أو تضييق في قول أو فعل شيء افترضه الله تعالى عليه وألزمه به سنة الله في الذين خلوا من قبل من الأنبياء، وكان أمر الله أي مقضيه قدرا مقدوراً أي واقعاً نافذاً لا محالة. وقوله: {**الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ**} أي هؤلاء الأنبياء السابقون طريقتهم التي سنها الله لهم هي أنهم ينفذون أمر الله ولا يلتفتون إلى الناس ويقولون ما يقولون، ويخشون ربهم فيما فرض عليهم ولا يخشون غيره، وكفى بالله حسيباً أي حافظاً لأعمال عباده ومحاسباً عليها ومجازٍ بها، وقوله تعالى في ختام السياق {**مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ**} لا زيد ولا غيره إذ لم يكن له ولد ذكر قد بلغ الحلم إذ مات الجميع صغاراً وهم أربعة ثلاثة من خديجة وهم القاسم والطيب والطاهر وإبراهيم وهو من مارية القبطية، فلذا، لا يحرم عليه أن يتزوج مطلقة زيد لأنه ليس ابنه وإن كان يدعى زيد بن محمد قبل إنهاء التبني وأحكامه ولكن رسول الله وخاتم النبيين فلا نبي بعده فلو كان له ولد ذكر رجلاً لكان يكون نبياً وسولاً كما كان أولاد إبراهيم وإسحق ويعقوب وداود، ولما أراد الله أن يختم الرسالات برسالته لم يأذن ببقاء أحد من أولاد نبيه بل توفاهم صغاراً، أما البنات فكبرن فتزوجن وأنجبن ومتن حال حياته إلا فاطمة فقد ماتت بعده بستة أشهر وقوله تعالى: {**وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً**} فما أخبر به هو الحق وما حكم به هو العدل وما شرعه هو الخير فسلموا لله في قضائه وحكمه فإن ذلك خير وأنفع.

هداية الآيات

١- بيان أن المؤمن الحق لا خيرة عنده في أمر يقضي فيه الله ورسوله بالجواز أو المنع.

٢- بيان أن من يعص الله ورسوله يخرج عن طريق الهداية إلى طريق الضلالة.

٣- جواز عتاب الله تعالى لرسوله ﷺ.

٤- بيان شدة حياء الرسول ﷺ.

٥- بيان إكرام الله لزيد بأن جعل اسمه يقرأ على ألسنة المؤمنين إلى يوم الدين.

٦- بيان إفضال الله على زينب لما سلمت أمرها لله وتركت ما اختارته لها اختاره الله ورسوله فجعلها زوجة لرسول الله وتولى عقد نكاحها في السماء فكانت تفاخر نساءها بذلك.

٧- تقرير حديث ما ترك عبد شيئا لله إلا عوضه الله خيرا منه.

٨- إبطال أحكام التبني التي كانت في الجاهلية.

٩- تقرير نبوة الرسول ﷺ وكونه خاتم الأنبياء فلا نبي بعده.

قال تعالى {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلاَئِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلاَمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا (٤٤)}

شرح الكلمات:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}: أي يا من آمنتم بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً.

{اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً}: أي بقلوبكم وألسنتكم.

{وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً}: أي نزهوه بقول سبحان الله وبحمده صباحاً ومساء.

{هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ}: أي يرحمكم.

{وَمَلاَئِكَتُهُ}: أي يستغفرون لكم.

{لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ}: أي يرحمكم ليديم إخراجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان.

{تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلاَمٌ}: أي سلام فالملائكة تسلم عليهم.

{وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً}: أي وهيأ لهم أجراً كريماً وهو الجنة.

معنى الآيات:

هذا النداء الكريم من رب رحيم يوجه إلى المؤمنين الصادقين ليعلمهم ما يزيد به إيمانهم ونورهم، ويحفظون به من عدوهم وهو ذكر الله فقال تعالى لهم **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً}** لا أحد له ولا حصر إذ هو الطاقة التي تساعد على الحياة الروحية، وسبحوه بكرة وأصيلاً بصلاة الصبح صلاة العصر. وبقول سبحان الله والحمد لله والله أكبر دبر كل صلاة من الصلوات الخمس. وقوله تعالى: **{هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ}** وصلاته تعالى عليهم رحمته لهم، وصلاة ملائكته الاستغفار لهم وقوله ليخرجكم من الظلمات أي من ظلمات الكفر والمعاصي إلى نور الإيمان والطاعات. فصلاته تعالى وصلاة ملائكته هو سبب الإخراج من الظلمات إلى النور. وقوله تعالى: **{وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً}** وهذه علاوة أخرى زيادة على الإكرام الأول وهو الصلاة عليهم وإنه بالمؤمنين عامة رحيم فلا يعذبهم ولا يشقيهم. وقوله **{تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ}** أي وتحيتهم يوم القيامة في دار السلامِ السلامُ إذ الملائكة يدخلون عليهم من كل باب قائلين سلام عليكم أي أمان وأمنة لكم فلا خوف ولا حزن. وقوله **{وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً}** أي هيأ لهم وأحضر أجراً كريماً وهي الجنة. فسبحان الله ما أكرمه وسبحان الله ما أسعد المؤمنين. فيا لفضيلة الإيمان وطاعة الرحمن طلب منهم أن يذكروه كثيراً وأن يسبحوه بكرة وأصيلاً وأعطاهم ما لا يقادر قدره فسبحان الله ما أكرم الله. والحمد لله.

هداية الآيات

١- وجوب ذكر الله تعالى كثيراً ليل نهار ووجوب تسبيحه صباح مساء.

٢- بيان فضل الله على المؤمنين بصلاته عليهم وصلاة ملائكته ورحمته لهم.

٣- تقرير عقيدة البعث بذكر بعض ما يتم فيها من سلام الملائكة على أهل الجنة.

٤- بشرى المؤمنين الصادقين بالجنة.

قال تعالى {{يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (٤٦) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيرًا (٤٧) وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً (٤٨)} [الأحزاب: ٤٥ – ٤٨]

شرح الكلمات:

{ شَاهِداً}: أي على من أرسلناك إليهم .

{وَمُبَشِّراً}: أي من آمن وعمل صالحاً بالجنة .

{وَنَذِيراً}: أي لمن كفر وأشرك بالنار .

{وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ}: أي وداعياً إلى الإيمان بالله وتوحيده وطاعته بأمره تعالى .

{وَسِرَاجاً مُنِيراً}: أي جعلك كالسراج المنير يهتدي به من أراد الهداية إلى سبيل الفلاح.

{وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ}: أي فيما يخالف أمر ربك وما شرعه لك ولأمتك.

{وَدَعْ أَذَاهُمْ}: أي اترك أذاهم فلا تقابله بأذى آخر حتى تُأمر فيهم بأمر.

{وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ}: أي فوض أمرك إليه فإنه يكفيك.

معنى الآيات:

هذا نداء خاص بعد ذلك النداء العام فالأول كان للمؤمنين والرسول إمامهم على رأسهم. وهذا نداء خاص لمزيد تكريم الرسول وتشريفه وتكليفه أيضاً فقال تعالى: {**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ**} محمد ﷺ{**إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ**} حال كونك شاهداً على من أرسلناك إليهم يوم القيامة تشهد على من أجاب دعوتك ومن لم يجبها، ومبشراً لمن استجاب لك فآمن وعمل صالحاً بالجنة، ونذيراً لمن أعرض فلم يؤمن ولم يعمل خيراً بعذاب النار، وداعياً إلى الله تعالى عباده إليه ليؤمنوا به ويوحدوه ويطيعوه بأمره تعالى لك بذلك، وسراجا منيراً يهتدي بك من أراد الهداية إلى سبيل السعادة والكمال.

وقوله تعالى: {**وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ**} أي أنظر بعد دعوتك إياهم، وبشر المؤمنين منهم أي الذين استجابوا لك وآمنوا وعملوا الصالحات بأن لهم من الله فضلا كبيراً ألا وهو مغفرة ذنوبهم وإدخالهم الجنة دار النعيم المقيم والسلام والتام. وقوله تعالى: {**وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ**} فيما يقترحون عليك من أمور تتنافى مع

دعوتك ورسالتك، ودع أذاهم أي اترك أذيتهم واصبر عليهم حتى يأمرك ربك بما تقوم به نحوهم، وتوكل على الله في أمرك كله، فإنه يكفيك وكفى بالله وكيلاً أي حافظاً وعاصما يعصمك من الناس.

هداية الآيات

١- بيان الكمال المحمدي الذي وهبه إياه ربه تبارك وتعالى.

٢- مشروعية الدعوة إلى الله إذا كان الداعي متأهلا بالعلم والحلم وهما الإذن.

٣- حرمة طاعة الكافرين والمنافقين والفجرة والظالمين فيما يتنافى مع مرضاة الله تعالى.

قال تعالى {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً (٤٩) } [الأحزاب: ٤٩]

شرح الكلمات:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}: أي من صدقوا بالله ورسوله وكتابه وشرعه.

{إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ}: أي إذا عقدتم عليهن ولم تبنوا بهن.

{مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ}: أي من قبل الخلوة بهن ووطئهن.

{فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ}: أي ليس لكم مطالبتهن بالعدة إذ العدة على المدخول بها.

{فَمَتِّعُوهُنَّ}: أي أعطوهن شيئًا من المال يتمتعن به جبْرا لخاطرهن.

{وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً}: أي اتركوهن يذهبن إلى أهليهن من غير إضرار بهن.

معنى الآيات:

ينادي الله تعالى عباده المؤمنين المسلمين فيقول لهم معلماً مشرعاً لهم: {**إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ**} أي عقدتم عليهن، {**ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ**} أي من قبل الدخول عليهن الذي يتم بالخلوة في الفراش، {**فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا**} تعتدونها عليهن لا بالإقراء ولا بالشهود إذ العدة لمعرفة ما في الرحم وغير المدخول بها معلومة أن رحمها خالية، فإن سميتم لهن مهراً فلهن نصف المسمّى والمتعة على سبيل الاستحباب، وإن لم تسموا لهن مهراً فليس لهن غير المتعة وهي هنا واجبة لهن بحسب يسار المطلّق وإعساره وقوله: {**وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً**} أي خلوا سبيلهن يذهبن إلى ذويهن من غير إضرار بهن ولا أذى تلحقونه بهن.

هداية الآيات

١- جواز الطلاق قبل البناء.

٢- ليس على المطلقة قبل الدخول بها عدة بل لها أن تتزوج ساعة ما تطلق.

٣- المطلقة قبل البناء إن سمى لها صداق فلها نصفه، وإن لم يسم لها صداق فلها المتعة واجبة يقدرها القاضي بحسب سعة المطلق وضيقه.

٤- حرمة أذية المطلقة بأي أذى، ووجوب تخلية سبيلها تذهب حيث شاءت.

٥- مشروعية المتعة لكل مطلقة.

قال تعالى {{يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاَتِكَ اللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلاَ يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [الأحزاب: ٥٠]

شرح الكلمات:

{آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ}: أي أعطيت مهورهن.

{مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ}: أي مما يسبى كصفية وجويرية.

{اللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ}: أي بخلاف من لم تهاجر وبقيت في دار الكفر.

{وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ}: أي وأراد النبي أن يتزوجها بغير صداق.

{خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ}: أي بدون صداق.

{قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ}: أي على المؤمنين

{فِي أَزْوَاجِهِمْ}: أي من الأحكام كأن لا يزيدوا على الأربع، وأن لا يتزوجوا إلا بولي ومهر وشهود.

{وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ}: أي بشراء ونحوه وأن تكون المملوكة كتابية، وأن تستبرأ قبل الوطء.

{لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ}: أي ضيق في النكاح.

معنى الآيات:

هذا النداء الكريم لرسول رب العالمين يحمل لرسول الله ﷺ إجازة ربانية تخفف عنه أتعابه التي يعانيها ﷺ لقد علم الله ما يعاني رسوله وما يعالج من أمور الدين والدنيا فمنّ عليه بالتخفيف ورفع الحرج فقال ممتناً عليه {**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ**} أي مهورهن وأحللنا لك {**وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ**} من سبايا الجهاد كصفية بنت حبيب وجويرية بنت الحارث، {**وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاتِكَ اللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ**} من مكة إلى المدينة.

أما اللاتي لم تهاجرن فلا تحلّ لك، وامرأة مؤمنة لا كافرة إن وهبت نفسها للنبي بدون مهر وأراد النبي أن يستنكحها حال كون هذه الواهبة خالصة لك دون المؤمنين فالمؤمن لو وهبت له امرأة نفسها بدون مهر لم تحل له بل لا بد من المهر والولي والشهود.

وقوله تعالى {**قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ**} أي على المؤمنين في أزواجهم من أحكام كأن لا يزيد الرجل على الأربع، وأن لا يتزوج إلا بولي ومهر وشهود، والمملوكة لا بد أن تكون كتابية أو مسلمة، وأن لا يطأها قبل الاستبراء بحيضة قد علمنا كل هذا وأحللنا لك ما أحللنا خصوصية لك دون المؤمنين وذلك تخفيفاً عليك لكيلا يكون عليك حرج أي ضيق ومشقة وكان الله غفوراً لك ولمن تاب من المؤمنين رحيماً بك وبالمؤمنين.

هداية الآيات

١- بيان إكرام الله تعالى لنبيه في التخفيف عليه رحمة به فأباح له أكثر من أربع، وقصر المؤمنين على أربع أباح له الواهبة نفسها أن يتزوجها بغير مهر ولا ولي ولم يبح ذلك للمؤمنين فلا بد من مهر وولي وشهود.

٢- تقرير أحكام النكاح للمؤمنين وأنه لم يطرأ عليها نسخ بتخفيف ولا بتشديد.

٣- بيان سعة رحمة الله ومغفرته لعباده المؤمنين.

قال تعالى {تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ

عَلِيمًا حَلِيمًا (٥١) لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا} [الأحزاب: ٥١، ٥٢]

شرح الكلمات:

{تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ}: أي تؤخر من نسائك.

{وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ}: أي وتضم إليك من نسائك من تشاء فتأتيها.

{وَمَنِ ابْتَغَيْتَ}: أي طلبت.

{مِمَّنْ عَزَلْتَ}: أي من القسمة.

{فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ}: أي لا حرج عليك في طلبها وضمها إليك خيّره ربه في ذلك بعد أن كان القسم واجباً عليه.

{ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ}: أي ذلك التخيير لك في إيواء من تشاء وترك من تشاء أقرب إلى أن تقر أعينهن ولا يحزن. وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ

{وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ}: أي مما أنت مخير فيه من القسم وتركه، والعزل والإيواء.

وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ: أي من حب النساء – أيها الفحول – والميل إلى بعض دون بعض وإنما خير الله تعالى رسوله تيسيراً عليه لعظم مهامه.

{وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَلِيماً}: أي عليماً بضعف خلقه حليماً عليهم لا يعاجل بالعقوبة ويقبل التوبة.

لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ: أي لا يجوز لك أن تتزوج بعد هؤلاء التسعة اللاتي اخترنك إكراماً لهن وتخفيفاً عنك.

{وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ}: أي بأن تطلق منهن وتتزوج أخرى بدل المطلقة لا. لا.

{وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ}: ما ينبغي أن تطلق من هؤلاء التسع وتتزوج من أعجبك حسنها.

{إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ}: أي فالأمر في ذلك واسع فلا حرج عليك في التسري بالمملوكة، وقد تسرى ﷺ بمارية المهداة إليه من قبل ملك مصر وولدت له إبراهيم ومات في سن الرضاعة عليه السلام.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في شأن التيسير على رسول الله ﷺ والتخفيف فقد تقدم أنه أحل له النساء يتزوج من شاء مما ذكر له وخصه بالواهبة نفسها يتزوجها بدون مهر ولا ولي وفي هذه الآية الكريمة (٥١) {**تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ**} الآية وسع الله تعالى عليه بأن أذن له في أن يعتزل وطء من يشاء، وأن يرجئ من يشاء، وأن يؤوي إليه ويضم من يشاء وأن يطلب من اعتزلها إن شاء فلا حرج عليه في كل ذلك، ومع هذا فكان يقسم بين نسائه، ويقول اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك اللهم إلا ما كان من سودة رضي الله عنها فإنها وهبت ليلتها لعائشة رضي الله عنها. هذا ما دلت عليه قوله تعالى: {**تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ**} وقوله ذلك أدنى أي ذلك التخيير لك في شأن نسائك أقرب أن تقر أعينهن أي يفرحن بك، ولا يحزن عليك، ويرضين بما تتفضل به عليهن من إيواء ومباشرة.

وقوله تعالى {**وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ**} أي أيها الناس من الرغبة في المخالطة، وميل الرجل إلى بعض نسائه دون بعض، وإنما خير الله رسوله هذا التخيير تيسيراً عليه وتخفيفاً لما له من مهام لا يطمع فيها عظماء الرجال ولو كان في القوة والتحمل كالجبال أو الجمال.

وقوله تعالى {**وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً**} أي بخلقه وحاجاتهم. حليماً عليهم لا يعاجل العقوبة ويقبل ممن تاب التوبة.

وقوله تعالى في الآية (٥٢) {**لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ**} أي لا يحل لك يا رسولنا النساء بعد هؤلاء التسع اللائي خيرتهن فاخترن الله واخترنك وأنت رسوله واخترن الدار الآخرة فاعترافاً بمقامهن قصرك الله عليهن بعد الآن فلا تطلب امرأة أخرى ببدل أو بغير بدل، ومعنى ببدل: أن يطلق منهن واحدة أو أكثر ويتزوج بدلها. وهو معنى قوله تعالى {**وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ**} وقوله {**إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ**} أي فلا بأس بأن تتسرى بالجارية تملكها وقد تسرى بمارية القبطية التي أهداها له المقوقس ملك مصر مع بغلة بيضاء تسمى الدُّلدُل وهي أول بغلة تدخل الحجاز، وقد أنجبت مارية إبراهيم ولد رسول الله ﷺ وتوفي في أيام إرضاعه عليه وعلى والده ألف ألف سلام.

وقوله تعالى: {**وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً**} أي حفيظاً عليماً فخافوه وراقبوه ولا تطلبوا رضا غيره برضاه فإنه إلهكم الذي لا إله لكم سواه به حياتكم وإليه مرجعكم بعد مماتكم.

هداية الآيات

١- بيان إكرام الله تعالى لرسوله بالتيسير والتسهيل عليه لكثرة مهامه.

٢- ما خير الله فيه رسوله لا يصح لأحد من المسلمين اللهم إلا أن يقول الرجل للمرأة كبيرة السن أو المريضة أي فلانة إني أريد أن أتزوج أحصّن نفسي وأنت كما تعلمين عاجزة فإن شئت طلقتك، وإن شئت تنازلت عن ليلتك فإن اختارت البقاء مع التنازل عن حقها في الفراش فلا بأس بذلك.

٣- في تدبير الله لرسوله وزوجاته من الفوائد والمصالح ما لا يقادر قدره.

٤- تقرير مبدأ (ما ترك أحد شيئا لله إلا عوضه الله خيراً منه) تجلّى هذا في اختيار نساء رسول الله ﷺ لله ورسوله والدار الآخرة.

٥- وجوب مراقبة الله تعالى وعدم التفكير في الخروج عن طاعته بحال من الأحوال.

[تنبيه هام]

إذْنُ الله تعالى لرسوله ﷺ بالزواج بأكثر من أربع كان لحكم عالية، وكيف والمشرع هو الله العليم الحكيم من تلك الحكم العالية ما يلي:

(١) اقتضاء التشريع الخاص بالنساء ومنه ما لا يطلع عليه إلا الزوجان تعدُّد الزوجات ليروين الأحكام الخاصة بالنساء، ولصحة الرواية وقبولها في الأمة تعدد الطرق وكثرة الروايات.

(٢) تطلُّب الدعوة الإسلامية في أيامها الأولى مناصرين لها أقوياء ولا أفضل من أصهار الرجل الداعي فإنهم بحكم

العرف يقفون إلى جنب صهرهم محقاً أو مبطلاً كان.

(٣) أن المؤمنين لا أحب إليهم من مصاهرة نبي الله ليظفروا بالدخول عليه في بيته والخلوة به وما أعزها. فأي المؤمنين من لا يرغب أن تكون أمه أو أخته أو بنته أماً لكل المؤمنين إني والله لا أحب إليّ من أن أكون أنا وزوجتي وسائر أولادي خدماً في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلذا وسع الله على رسوله ليتسع على الأقل للأرامل وربات الشرف حتى لا يدنس شرفهن.

(٤) قد يحتاج رسول الله ﷺ إلى مكافأة بعض من أحسن إليه ولم يجد ما يكافئه به ويراه راغباً في مصاهرته فيجيبه لذلك ومن هذا زواجه بكل من عائشة بنت الصديق وحفصة بنت الفاروق رضي الله عنهم أجمعين.

(٥) قد زوجه ربه بزينب وهو كاره لذلك يتهرب منه خشية قالة الناس وما كانوا يعدونه منكراً وهو التزوج بامرأة الدعي المتبنى بعد طلاقها أو موت زوجها هذه بعض الحكم التي اقتضت الإذن لرسول الله ﷺ في التزوج أكثر من أربع مع عامل آخر مهم وهو قدرة رسول الله ﷺ على العدل والكفاية الأمر الذي لن يكون لغيره أبدًا.

قال تعالى { يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا (٥٣) إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٥٤) لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا } [الأحزاب: ٥٥]} [الأحزاب: ٥٣، ٥٤]

شرح الكلمات:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}: أي من صدقوا بالله ووعده ووعيده وبالرسول وما جاء به.

{إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ}: أي في الدخول بأن يدعوكم إلى طعام.

{غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ}: أي غير منتظرين وقت نضجه أي فلا تدخلوا قبل وقت إحضار الطعام وتقدم المدعوين إليه بأن يستغل أحدكم الإذن بالدعوة إلى الطعام فيأتي قبل الوقت ويجلس في البيت فيضايق رسول الله ﷺ وأهله.

{فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا}: أي إذا أكلتم الطعام وفرغتم فانتشروا عائدين إلى بيوتكم أو أعمالكم ولا يبق منكم أحد.

{وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ}: أي ولا تمكثوا مستأنسين لحديث بعضكم بعضاً.

{إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ}: أي ذلكم المكث في بيوت النبي كان يؤذي النبي صلى الله عليه وسلم.

{فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ}: أي أن يخرجكم.

{وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ}: أن يقوله ويأمر به ولذا أمركم أن تخرجوا.

{مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ}: أي ستر كباب ورداء و نحوه.

{أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ}: أي من الخواطر الفاسدة.

{إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً}: أي إن أذاكم لرسول الله كان عند الله ذنباً عظيماً.

{إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ}: أي إن تظهروا رغبة في نكاح أزواج الرسول بعد وفاته أو تخفوه في نفوسكم فسيجزيكم الله به شر الجزاء.

{لا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ} الخ : أي لا حرج على نساء الرسول في أن يظهرن لمحارمهن المذكورين في الآية.

{وَلا نِسَائِهِنَّ}: أي المؤمنات أما الكافرات فلا.

{وَلا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ}: أي من الإماء والعبيد في أن يرونهن ويكلمونهن من دون حجاب.

{وَاتَّقِينَ اللَّهَ}: أي يا نساء النبي فيما أمرتن به من الحجاب وغيره.

معنى الآيات:

لما بين تعالى لرسوله ما ينبغي له مراعاته من شأن أزواجه أمهات المؤمنين بين تعالى بهذه الآية (٥٤) ما يجب على المؤمنين مراعاته أيضاً نحو أزواج النبي أمهاتهم فقال: {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**} حقاً وصدقاً {**لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ**} بالدخول إلى طعام تطعمونه غير ناظرين إناه أي وقته، وذلك أن هذه الآية والمعروفة بآية الحجاب نزلت في شأن نفر من أصحاب رسول الله ﷺ لما أكلوا طعام الوليمة التي أقامها رسول الله لما زوجه الله بزينب بنت جحش رضي الله عنها، وكان الحجاب ما فرض بعد على

النساء مكثوا بعد انصراف الناس يتحدثون فقام رسول الله ﷺ وخرج أمامهم لعلهم يخرجون فما خرجوا وتردد رسول الله على البيت فيدخل ويخرج رجاء أن يخرجوا معه فلم يخرجوا واستحى ﷺ أن يقول لهم هيا فاخرجوا. فانزل الله تعالى هذه الآية فقوله تعالى غير ناظرين إناه يعني ذلك النفر ومن يريد أن يفعل فعلهم فإذا وجه إليه أخوه استدعاء لحضور وليمة بعد الظهر مثلا أتى المنزل من قبل الظهر يضايق أهل المنزل فهذا معنى غير ناظرين إناه أي وقته لأن الإنى هو الوقت.

وقوله {**وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا**} أي فلا تدخلوا بدون دعوة أو إذن فإذا طعمتم أي فرغتم من الأكل فانصرفوا منتشرين في الأرض فهذا إلى بيته وهذا إلى بيت ربه وهذا إلى عمله. وقوله: {**وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ**} أي لا تمكثوا بعد الطعام يحدث بعضكم بعضاً مستأنسين بالحديث. حرم تعالى هذا عليكم أيها المؤمنون لأنه يؤذي رسوله. وإن كان الرسول لكمال أخلاقه لا يأمركم بالخروج حياءً منكم فالله لا يستحي من الحق فلذا أمركم بالخروج بعد الطعام مراعاة لمقام رسوله محمد الله ﷺ وقوله تعالى: {**وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً**} أي طلبتم شيئاً من الأمتعة التي توجد في البيت كإناء ونحوه فاسألوهن من وراء حجاب أي باب وستر نحوهما لا مواجهة لحرمة النظر إليهن. وقوله {**ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ**} أنتم أيها الرجال وقلوبهن أيتها الأمهات أطهر أي من خواطر السوء الفاسدة التي لا يخلو منها قلب الإنسان إذا خاطب فحلٌ أنثى أو خاطبت امرأة فحلاً من الرجال.

وقوله تعالى: {**وَمَا كَانَ لَكُمْ**} أي ما ينبغي ولا يصح أن تؤذوا رسول الله أي أذى ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أي ولا أن تتزوجوا بعد وفاته نساءه فإنهن محرمات على الرجال تحريم الأمهات تحريماً مؤبداً لا يحل بحال، وقوله تعالى: {**إِنَّ ذَلِكُمْ**} أي المذكور من المن أذى رسول الله والزواج من بعده بنسائه كان عند الله أي في حكمه وقضائه وشرعه ذنباً عظيماً لا يقادر قدره ولا يعرف مدى جزائه وعقوبته إلا الله.

هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٥٣) وقوله تعالى {**إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً**} أي تظهروه {**أَوْ تُخْفُوهُ**} أي تستروه يريد من الرغبة في الزواج من نساء الرسول بعد موته ﷺ فإن الله كان بكل شيء عليماً وسيجزيكم بتلك الرغبة التي أظهرتموها أو أخفيتموها في نفوسكم شرّ الجزاء وأسوه. فاتقوا الله وعظموا ما عظم من حرمات رسوله صلى الله عليه وسلم. هذا ما دلت عليه الآية (٥٤).

وقوله تعالى في الآية (٥٥) لا جناح عليهن(٣) أي لا تضييق ولا حرج ولا إثم على نساء المؤمنات من أزواج النبي ﷺ وغيرهن من نساء المؤمنين في أن يظهرن وجوههن ويكلمن بدون حجاب أي وجها لوجه آباءهن الأب والجد وإن علا، وأبناءهن الابن وابن الابن وإن نزل وابن البنت كذلك وإن نزل. وإخوانهن وأبناء إخوانهن وإن نزلوا وأبناء أخواتهن وإن نزلوا، ومماليكهن من إماء وعبيد.

وقوله تعالى {**وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً**} أمر من الله لنساء النبي ونساء المؤمنين بتقوى الله فيما نهاهن عنه وحرمه عليهن من إبداء الوجه للأجانب غير المحارم المذكورين في الآية وتذكيرهم بشهود الله تعالى لكل شيء وإطلاعه على كل شيء ليكون ذلك مساعداً على التقوى.

هداية الآيات

١- بيان ما ينبغي للمؤمنين أن يلتزموه من الآداب في الاستئذان والدخول على البيوت لحاجة الطعام ونحوه.

٢- بيان كمال الرسول ﷺ في خلقه في أنه ليستحي أن يقول لضيفه أخرج من البيت فقد انتهى الطعام.

٣- وصف الله تعالى نفسه بأنه لا يستحي من الحق أن يقوله ويأمره به عباده.

٤- مشروعية مخاطبة الأجنبية من وراء حجاب ستر ونحوه.

٥- حرمة أذية رسول الله ﷺ وأنها جريمة كبرى لا تعادل بأخرى.

٦- بيان أن الإنسان لا يخلو من خواطر السوء إذا كلم المرأة ونظر إليها.

٧- حرمة نكاح أزواج الرسول بعد موته وحرمة الخاطر يخطر بذلك.

٨- بيان المحارم الذين للمسلمة أن تكشف وجهها أمامهم وتخاطبهم بدون حجاب.

٩- الأمر بالتقوى ووعيد الله لمن لا يتقيه في محارمه.

قال تعالى {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٥٦) إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا (٥٧) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (٥٨) يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ

لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [الأحزاب: ٥٦ - ٥٩]

شرح الكلمات:

{يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ}: صلاة الله على النبي هي ثناؤه ورضوانه عليه، وصلاة الملائكة دعاء واستغفار له، وصلاة العباد عليه تشريف وتعظيم لشأنه.

{صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً}: أي قولوا: اللهم صل على محمد وسلم تسليماً.

{يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ}: أي بسب أو شتم أو طعن أو نقد.

{يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا: أي يرمونهم بأمور يوجهونها تهماً باطلة لم يكتسبوا منها شيئا.

{فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً}: أي تحملوا كذباً وذنباً بيناً ظاهراً.

{يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ}: أي يرخين على وجوههن الجلباب حتى لا يبدو من المرأة إلا عين واحدة تنظر بها الطريق إذا خرجت لحاجة.

{ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ}: أي ذلك الإدناء من طرف الجلباب على الوجه أقرب.

{فَلا يُؤْذَيْنَ}: أي يعرفن أنهن حرائر فلا يتعرض لهن المنافقون بالأذى.

{وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً}: أي غفورا لمن تاب من ذنبه رحيماً به بقبول توبته وعدم تعذيبه بذنب تاب منه.

معنى الآيات:

لما ذكر تعالى في الآيات السابقة ما يجب على المؤمنين من تعظيم نبيّهم واحترامه حياً وميتاً أعلن في هذه الآية (٥٦) عن شرف نبيّه الذي لا يدانيه شرف وعن رفعته التي لا تدانيها رفعة فأخبر أنه هو سبحانه وتعالى يصلي عليه وأن ملائكته كذلك يصلون عليه وأمر المؤمنين كافة أن يصلوا عليه فقال: {**إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً**} فكان واجباً على كل مؤمن ومؤمنة أن يصلي على النبي ﷺ ولو مرة في العمر يقول: الله صل على محمد وسلم تسليماً. وقد بينت السنة أنواعاً من صيغ الصلاة والسلام على الرسول أعظمها أجراً الصلاة الإبراهيمية وهي واجبة في التشهد الأخير من كل صلاة فريضة أو نافلة، وتستحب استحباباً مؤكداً عند ذكره ﷺ وفي مواطن أخرى. هذا ما

دلت عليه الآية الأولى (٥٦) أما الآية الثانية (٥٧) فقد أخبر تعالى عباده أن الذين يؤذون الله بالكذب عليه أو انتقاصه بوصفه بالعجز أو نسبة الولد إليه أو الشريك وما إلى ذلك من تصوير الحيوان إذ الخلق اختص به الله فلا خالق إلا هو فلا تجوز محاكاته في الخلق، ويؤذون رسول الله ﷺ بسب أو شتم أو انتقاص أو تعرض له أو لآل بيته أو أمته أو سنته أو دينه هؤلاء لعنهم الله في الدنيا والآخرة أي طردهم من رحمته، وأعد لهم {**وَأَعَدَّ لَهُمْ** } أي هيأ وأحضر لهم {**عَذَاباً مُهِيناً**} لهم يذوقونه بعد موتهم ويوم يبعثهم يوم القيامة. هذا ما دلت عليه الآية الثالثة (٥٨) أما الآية الرابعة (٥٩) فإنه لما كان المؤمنات يخرجن بالليل لقضاء الحاجة البشرية إذ لم يكن لهم مراحيض في البيوت وكان بعض سفهاء المنافقين يتعرضون لهن بالغمز والكلمة السفيهة وهم يقصدون على عادتهم الإماء لا الحرائر فتأذى بذلك المؤمنات وشكون إلى أزواجهن ما يلقين من تعرض بعض المنافقين لهن فأنزل الله تعالى هذه الآية {**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ**} والجلباب هو الملاءة أو العباءة تكون فوق الدرع السابغ الطويل، أي مُرْهُنَّ بأن يدنين طرف الملاءة على الوجه حتى لا يبقى إلا عين واحدة ترى بها الطريق، وبذلك يعرفن أنه حرائر عفيفات فلا يؤذيهن بالتعرض لهن أولئك المنافقون السفهاء عليهم لعائن الله. وقوله تعالى {**وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً**} أخبر عباده أنه تعالى كان وما زال غفوراً لمن تاب من عباده رحيماً به فلا يعذبه بعد توبته.

هداية الآيات

١- بيان شرف الرسول ﷺ ووجوب الصلاة والسلام عليه في التشهد الأخير في الصلاة.

٢- بيان ما يتعرض له من يؤذي الله ورسوله من غضب وعذاب.

٣- بيان مقدار ما يتحمله من يؤذي المؤمنين والمؤمنات بالقول فينسب إليهم ما لم يقولوا أو لم يفعلوا ويؤذيهم بالفعل بضرب جسم أو أخذ مال أو انتهاك عرض.

٤- وجوب تغطية المؤمنة وجهها إذا خرجت لحاجتها إلا ما كان من عين ترى بها الطريق، واليوم بوجود الأقمشة الرقيقة لا حاجة إلى إبداء العين إذ تسبل قماشاً على وجهها فيستر وجهها وترى معه الطريق واضحاً والحمد لله.

قال تعالى { لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً (٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً (٦١) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً } [الأحزاب: ٦٠ - ٦٢]

شرح الكلمات:

{لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ}: أي عن نفاقهم وهو إظهار الإيمان وإخفاء الكفر.

{وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ}: أي مرض حب الفجور وشهوة الزنا.

{وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ}: أي الذين يأتون بالأخبار الكاذبة لتحريك النفوس وزعزعتها كقولهم العدو على مقربة من المدينة أو السرية الفلانية قتل أفرادها وما إلى ذلك.

{لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ}: أي لنسلطنك عليهم ولنحرشنك بهم.

{ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً}: أي في المدينة إلا قليلاً من الأيام ثم يخرجوا منها أو يهلكوا.

{مَلْعُونِينَ }: أي مبعدين عن الرحمة.

{أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا}: أينما أخذوا أسروا وقتلوا تقتيلاً.

{سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ}: أي سن الله هذه السنة في الأمم الماضية أينما ثقف المنافقون والمرجفون أخذوا وقتلوا تقتيلاً.

{وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً}: أي منه تعالى إذ هي ليست أحكاماً يطرأ عليها التبديل والتغيير بل هي سر التشريع وحكمته.

معنى الآيات:

لقد تقدم أن بعض النسوة اشتكين ما يلقينه من تعرض المنافقين لهن عند خروجهن ليلاً لقضاء الحاجة، وأن الله تعالى أمر نساء المؤمنين أن يدنين عليهن من جلابيبهن وعلة ذلك أن يعرفن أنهن حرائر فلا يتعرض لهن المنافقون وكان ذلك إجراءً وقائياً لا بد منه، ثم أقسم الجبار بقوله **{لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ}** أي وعزتي وجلالي لئن لم ينته هؤلاء المنافقون من نفاقهم وأعمالهم الاستفزازية والذين في قلوبهم مرض الشهوة وحب الفجور والمرجفون الذين يكذبون الأكاذيب المرجفة أي المحركة للنفوس كقولهم: العدو

زاحف على المدينة والسرية الفلانية انهزمت أو قتل أكثر أفرادها لئن لم ينته هؤلاء لنغرينك بهم أي لنحرشنّك بهم ثم لنسلطنَّك عليهم. ثم لا يجاورونك فيها أي في المدينة إلا قليلاً، ثم يخرجوا منها أو يهلكوا ملعونين أي يخرجون ملعونين أي مطرودين من الرحمة الإلهية التي تصيب سكان المدينة النبوية، وحينئذ أينما ثقفوا أي وجدوا وتمكن منهم أخذوا أي أسرى وقتلوا تقتيلاً حتى لا يبقى منهم أحد.

هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٦٠) {**لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ**..} والثانية (٦١) {**مَلْعُونِينَ** ...} الخ. أما الآية الثالثة (٦٢) {**سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ**} أي لقد سن الله تعالى هذا سنةً في المنافقين من أنهم إذا لم ينتهوا يلعنون ثم يسلط عليهم من يأخذهم ويقتلهم تقتيلاً، وقوله: **{وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً}** يخبر تعالى أن ما كان من قبل السنن كالطعام يشبع والماء يروي والنار تحرق والحديد يقطع لا يبدله تعالى بل يبقى كذلك لأنه مبني على أساس الحكم التشريعية.

هداية الآيات

١- التنديد بالمنافقين وتهديدهم بإمضاء سنة الله تعالى فيهم إذا لم يتوبوا.

٢- مشروعية إبعاد أهل الفساد من المدن الإسلامية أو يتوبوا بترك الفساد والإفساد، وخاصة المدينة النبوية الشريفة.

٣- بيان ما كان من الأشياء من قبل السنن لا يتبدل بتبدل الأحوال والظروف بل يبقى كما هو لا يبدله الله تعالى ولا يغيره.

قال تعالى {يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣) إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٦٥) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَالَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا} [الأحزاب: ٦٣ - ٦٨]

شرح الكلمات:

{يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ}: أي يهود المدينة كما سأله أهل مكة فاليهود سألوه امتحاناً والمشركون سألوه تكذيباً بها واستعجالاً لها.

{قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ}: أي أجب السائلين قائلا إنما علمها عند ربي خاصة فلم يعلمها غيره.

{وَمَا يُدْرِيكَ}: أي لا أحد يدريك أيها الرسول أي يخبرك بها إذ علمها لله وحده.

{لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً}: أي وما يشعرك أن الساعة قد تكون قريبة القيام.

{وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً}: أي ناراً متسعرة.

{خَالِدِينَ فِيهَا}: أي مقدراً خلودهم فيها إذ الخلود يكون بعد دخولهم فيها.

{يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ} : أي تصرف من جهة إلى جهة كاللحم عند شيّه يقلب في النار.

{يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ}: أي يتمنون بأقوالهم لو أنهم أطاعوا الله وأطاعوا الرسول.

{وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا}: هذا قول الأتباع يشكون إلى الله سادتهم ورؤساءهم.

{فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا}: أي طريق الهدى الموصل إلى رضا الله عز وجل بطاعته.

{آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ}: أي اجعل عذابهم ضعفي عذابنا لأنهم أضلونا.

{وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً}: أي أخزهم خزياً متعدد المرات في عذاب جهنم.

معنى الآيات:

قوله تعالى {**يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ**} أي ميقات مجيئها السائلون مشركون وأهل الكتاب فالمشركون يسألون عنها استبعاداً لها فسؤالهم سؤال استهزاء واليهود يسألون امتحانا للرسول ﷺ، فأمره تعالى أن يجيب السائلين بجواب واحد ألا وهو إنما علمها عند الله، أي انحصر علمها في الله تعالى إذ أخفى الله تعالى أمرها عن الملائكة والمقربين منهم والأنبياء والمرسلين منهم كذلك فضلا عن غيرهم فلا يعلم وقت مجيئها إلا هو سبحان وتعالى. وقوله تعالى: {**وَمَا يُدْرِيكَ**} أي لا أحد يعلمك بها أيها الرسول، وقوله {**لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً**} أي وما يشعرك يا رسولنا لعل الساعة تكون قريبة القيام وهي كذلك قال تعالى {**اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ**} وقال { **اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ**} فأعلم بالقرب ولم يعلم بالوقت لحكم عالية منها استمرار الحياة كما هي حتى آخر ساعة.

وقوله تعالى: {**إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً**} المكذبين بالساعة المنكرين لرسالتك الجاحدين بنبوتك لعنهم فطردهم من رحمته وأعد لهم ناراً مستعرة في جهنم خالدين فيها إذا دخلوها لم يخرجوا منها أبدا {**لا يَجِدُونَ وَلِيّاً**} أي يتولاهم فيدفع عنهم {**وَلا نَصِيراً**} أي ينصرهم ويخلصهم من محنتهم في جهنم. وقوله {**يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ**} تصرف من جهة إلى جهة كما يقلب اللحم عند شيه يقولون عند ذلك يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول يتحسرون متمنين لو أنهم أطاعوا الله وأطاعوا الرسول في الدنيا ولم يكونوا عصوا الله والرسول. وقوله تعالى: {**وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا**} هذه شكوى منهم واعتذاراً وأنى لهم أن تقبل شكواهم وينفعهم اعتذارهم. أطعناهم فيما كانوا يأمروننا به من الكفر والشرك وفعل الشر فأضلونا السبيلا أي طريق الهدى فعشنا ضالين ومتنا كافرين وحشرنا مع المجرمين {**رَبَّنَا**} أي يا ربنا آتهم ضعفين من العذاب أي ضاعف يا ربنا لسادتنا وكبرائنا الذين أضلونا ضاعف لهم العذاب فعذبهم ضعفي عذابنا، والعنهم أي واخزهم في العذاب خزياً كبيراً يتوالى عليهم دائماً وأبداً.

هداية الآيات

١- بيان أن علم الساعة استأثر الله به فلا يعلم وقت مجيئها غيره.

٢- بيان أن الساعة قريبة القيام، ولا منافاة بين قربها وعدم علم قيامها.

٣- تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر أحوال الكافرين فيها.

٤- بيان أن طاعة السادة والكبراء في معاصي الله ورسوله يعود بالوبال على فاعليه.

قال تعالى {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا (٦٩) يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١) إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا } [الأحزاب: ٦٩ - ٧٣]

شرح الكلمات:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}: أي يا من صدقوا بالله ورسوله ولقاء الله وما جاء به رسول الله.

{لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى}: أي لا تكونوا مع نبيكم كما كان بنو إسرائيل مع موسى إذ آذوه بقولهم إنه ما يمنعه من الاغتسال معنا إلا أنه آدر.

{فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا}: أي أراهم أنه لم يكن به أدرة وهي انتفاخ إحدى الخصيتين.

{وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً}: أي ذا جاهٍ عظيم عند الله فلا يخيّب له مسعى ولا يرد له مطلباً.

{وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً}: أي صدقاً صائباً.

{يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ}: أي الدينية والدنيوية إذ على الصدق والموافقة للشرع نجاح الأعمال والفوز بثمارها.

{فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً}: أي نال غاية مطلوبه وهو النجاة من النار ودخول الجنة.

{إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ}: أي ما ائتمن عليه الإنسان من سائر التكاليف الشرعية وما ائتمنه عليه أخوه من حفظ مال أو قول أو عرض أو عمل.

{فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا}: أي رفضن الالتزام بها وخفن عاقبة تضييعها.

{وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ}: أي آدم وذريته.

{إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً}: أي لأنه كان ظلوماً أي كثير الظلم لنفسه جهولاً بالعواقب.

{لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ}: أي وتحملها الإنسان قضاء وقدراً ليرتب الله تعالى على ذلك عذاب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات فيغفر لهم ويرحمهم وكان الله غفوراً رحيماً.

معنى الآيات:

قوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى} ينادي الله تعالى مؤمني هذه الأمة ناهياً لهم عن أذى نبيهم بأدنى أذى، وأن لا يكونوا كبني إسرائيل الذين آذوا موسى في غير موطن ومن ذلك ما ذكره ﷺ عنه في قوله من رواية مسلم "أن بني إسرائيل كانوا يغتسلون عراة ينظر بعضهم إلى بعض، وكان

موسى يغتسل وحده فقالوا: ما منعه أن يغتسل معنا إلا أنه آدر، فذهب يوماً يغتسل فوضع ثوبه على حجر وأخذ يغتسل وإذا بالحجر يهرب بالثوب فيجري موسى وراءه حتى وقف به على جمع من بني إسرائيل فرأوا أنه ليس به أدرة ولا برص كما قالوا فهذا معنى فبرأه الله مما قالوا، وكان عند الله وجيها أي ذا جاه عظيم.

ومما حصل لرسول الله ﷺ من أذى أذاه في اتهام زوجه بالفاحشة من قبل أصحاب الإفك وقول بعضهم له وقد قسم مالا هذه قسمة ما أريد به وجه الله.

وقول بعضهم أعدل فينا يا رسول الله فقال له ويحك إذا لم أعدل أنا فمن يعدل؟

وكان يقول يرحم الله موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر!! هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٦٩) أما الآية الثانية (٧٠) فقد نادى تعالى عباده المؤمنين الذين نهاهم عن أذية نبيهم وأن لا يكونوا في ذلك كقوم موسى بن عمران ناداهم ليأمرهم بأمرين الأول بتقواه عز وجل إذ قال **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}** أي صدقوا الله ورسوله. **{اتَّقُوا اللَّهَ}** أي خافوا عقابه. فأدوا فرائضه واجتنبوا محارمه. والثاني بالتزام القول الحق الصائب السديد، ورتب على الأمرين صلاح أعمالهم ومغفرة ذنوبهم إذ قول الحق والتزام الصدق مما يجعل الأقوال والأعمال مثمرة نافعة، فتثمر زكاة النفس وطهارة الروح. ثم أخبرهم مبشراً إياهم بقوله: **{وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ}** في الأمر والنهي فقد فاز فوزاً عظيماً وهي سعادة الدارين: النجاة من كل مخوف والظفر بكل محبوب مرغوب ومن ذلك النجاة من النار ودخول الجنة.

هذا ما تضمنته قوله تعالى **{يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً}** وقوله تعالى: **{إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ}** يخبر تعالى منبهاً محذراً فيقول: **{إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ}**وهي شاملة للتكاليف الشرعية كلها ولكل ما ائتمن عليه الإنسان من شيء يحفظه لمن ائتمنه عليه حتى يرده إليه عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال بعد أن خلق الله لها عقلاً ونطقاً ففهمت الخطاب وردت الجواب فأبت تحملها بثوابها وأشفقت وخافت من تبعتها، وعرضت على الإنسان آدم فحملها بتبعتها من ثواب وعقاب لأنه كان ظلوماً لنفسه يوردها موارد السوء جهولاً بعواقب الأمور. هذا ما دلت عليه الآية الرابعة (٧٢) وهي قوله تعالى **{إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا**

وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً} . وقوله تعالى **{ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ}** أي بتبعة النفاق والشرك، ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات أي تمّ عرضُ الأمانة وقبولُ آدم لها ليؤول الأمر إلى أن يكفر بعض أفراد الإنسان فيعذبوا بكفرهم الذي نجم عن تضييع الأمانة، ويؤمن بعض آخر فيفرط بعض التفريط ويتوب الله عليه فيغفر له ويدخله الجنة وكان الله غفوراً رحيماً ومن آثار ذلك أن تاب الله على المؤمنين والمؤمنات وغفر لهم ورحمهم بإدخالهم الجنة فسبحان الله المدبر الحكيم.

هداية الآيات

١- وجوب تقوى الله عز وجل بفعل الأوامر واجتناب المناهي.

٢- صلاح الأعمال لتثمر للعاملين الزكاة للنفس، وطيب الحياة متوقف على التزام الصدق في

٣- طاعة الله ورسوله سبيل الفوز والفلاح في الدين

٤- وجوب رعاية الأمانة وأدائها ، ولم يخل احد من أمانة

٥- وصف الإنسان بالظلم والجهل وبالكفر والمهانة والضعف ف آيات أخرى يستلزم طلب علاج لهذه الصفات وعلاجها جاء مبيناً في سورة المعارج في قوله { **إِلا الْمُصَلِّينَ** } إلى قوله { **وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ** }

الحديث وشرحه

تيسير العلام شرح عمدة الأحكام

كتاب الطهارة

النية وأحكامها

الحديث الأول

عَنْ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ أَبي حَفْصٍ " عُمَرَ بْنِ الخَطَّاب " رَضيَ الله عَنْهُ قَال: سَمِعت رسُولَ الله ﷺ يَقُول": إِنَّمَا الأَعْمَالُ بَالْنيَاتِ، وَإِنَّمَا لِكل امرئ مَا نَوَى، فمَنْ كَانَتْ هِجْرَتهُ إِلَى الله وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتهُ إِلَى الله وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرتُهُ لِدُنيا يُصيبُهَا، أو امْرَأة يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُه إِلَى مَا هَاجَرَ إِليهِ."

غريب الحديث:

١- " إنما الأعمال بالنيات " كلمة [إنما] ، تفيد الحصر، فهو هنا قصر موصُوف على صفة، وهو إثبات حكم الأعمال بالنيات، فهو في قوة [ما الأعمال إلا بالنيات] وينفى الحكم عما عداه."

٢- " النية " لغة: القصد. ووقع بالإفراد في أكثر الروايات. قال البيضاوي النية عبارة عن انبعاث القلب نحو ما يراه موافقا لغرض من جلب نفع أو دفع ضر ا. هـ. وشرعا: العزم على فعل العبادة تقربا إلى الله تعالى.

٣- " فمن كانت هجرته ... الخ " مثال يقرر ويوضح القاعدة السابقة.

٤- " فمن كانت هجرته " جملة شرطية.

٥- " فهجرته إلى الله ورسوله " جواب الشرط، واتحد الشرط والجواب لأنهما على تقدير " من كانت هجرته إلى الله ورسوله نية وقصداً فهجرته إلى الله ورسوله ثوابا وأجراً."

المعنى الإجمالى:

هذا حديث عظيم وقاعدة جليلة من قواعد الإسلام هي القياس الصحيح لوزن الأعمال، من حيث القَبول وعدمه، ومن حيث كثرة الثواب وقلته.

فإن النبي ﷺ يخبر أن مدار الأعمال على النياتْ فإن كانت النية صالحة، والعمل

خالصا لوجه الله تعالى، فالعمل مقبول. وإن كانت غير ذلك، فالعمل مردود، فإن الله تعالى أغنى الشركاء عن الشرك. ثم ضرب رسول الله ﷺ مثلاً يوضح هذه القاعدة الجليلة بالهجرة. فمن هاجر من بلاد الشرك، ابتغاء ثواب الله، وطلباً للقرب من النبي صلى الله عليه وسلم، وتعلم الشريعة، فهجرته في سبيل الله، والله يثيبه عليها. ومن كانت هجرته لغرض من أغراض الدنيا، فليس له عليها ثواب. وإن كانت إلى معصية، فعليه العقاب.

والنية تمييز العبادة عن العادة، فالغسل مثلا يقصد عن الجنابة، فيكون عبادة، ويراد للنظافة أو التبرد، فيكون عادة.

وللنية في الشرع حالتان:

أحدها: الإخلاص في العمل لله وحده، هو المعنى الأسمى، وهذا يتحدث عنه علماء التوحيد، والسير، والسلوك.

الثاني: تمييز العبادات بعضها عن بعض، وهذا يتحدث عنه الفقهاء.

وهذا من الأحاديث الجوامع التي يجب الاعتناء بها وتفهمها، فالكتابة القليلة لا تؤتيه حقه. وقد افتتح به الإمام البخاري رحمه الله تعالى صحيحه لدخوله في كل مسألة من مسائل العلم وكل باب من أبوابه.

ما يؤخذ من الحديث:

١- إن مدار الأعمال على النيات، صحة، وفَساداً، وكمالا، ونقصا، وطاعة ومعصية فمن قصد بعمله الرياء أثم، ومن قصد بالجهاد مثلا إعلاء كلمة الله فقط كمل ثوابه. ومن قصد ذلك والغنيمة معه نقص من ثوابه. ومن قصد الغنيمة وحدها لم يأثم ولكنه لا يعطى أجر المجاهد. فالحديث مسوق لبيان أن كل عمل، طاعة كان في الصورة أو معصية يختلف باختلاف النيات.

٢- أن النية شرط أساسي في العمل، ولكن بلا غُلُوّ في استحضارها يفسد على المتعبد عبادته. فإن مجرد قصد العمل يكون نِيَّة له بدون تكلف استحضارها وتحقيقها.

٣- أن النية مَحلُّها القلب، واللفظ بها بدعة.

٤- وجوب الحذر من الرياء والسمعة والعمل لأجل الدنيا، مادام أن شيئاً من ذلك يفسد العبادة.

٥- وجوب الاعتناء بأعمال القلوب ومراقبتها.

٦- أن الهجرة من بلاد الشرك إلى بلاد الإسلام، من أفضل العبادات إذا قصد بها وجه الله تعالى.

فائدة: ذكر ابن رجب أن العمل لغير الله على أقسام:

فتارة يكون رياء محضا لا يقصد به سوى مراءاة المخلوقين لتحصيل غرض دنيوي، هذا لا يكاد يصدر من مؤمن، ولا شك في أنه يحبط العمل وأن صاحبه يستحق المقت من الله والعقوبة. وتارة يكون العمل لله ويشاركه الرياء، فإن شاركه من أصله فإن النصوص الصحيحة تدل على بطلانه وإن كان اصل العمل لله ثم طرأ عليه نية الرياء، ودفعه صاحبه فإن ذلك لا يضره بغير خلاف، وقد اختلف العلماء من السلف في الاسترسال في الرياء الطارئ: هل يحبط العمل أو لا يضر فاعله ويجازى على أصل نيته؟ أهـ بتصرف.

الحديث الثانى

عَنْ أبي هريرة رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسولُ الله ﷺ: "لا يَقْبَلُ الله صَلاةَ أَحَدكُمْ إِذَا أَحْدَثَ حَتَى يَتَوضَّأ"

غريب الحديث:

١- " لا يقبل الله " بصيغة النفي، وهو أبلغ من النهي، لأنه يتضمن النهي، وزيادة نفى حقيقة الشيء.

٢- " أحدث " أي حصل منه الحَدَث، وهو الخارج من أحد السبيلين أو غيره من نواقض الوضوء. وفي الأصل: الحدث، الإيذاء.

٣- " الحدث " وصف حكمي مقدر قيامه بالأعضاء، يمنع وجوده من صحة العبادة المشروط لها الطهارة.

المعنى الإجمالى:

الشارع الحكيم أرشد من أراد الصلاة، أن لا يدخل فيها إلا على حال حسنة وهيئة جميلة، لأنها الصلة الوثيقة بين الرب وعبده، وهى الطريق إِلى مناجاته، لذا أمره بالوضوء والطهارة فيها، وأخبره أنها مردودة غير مقبولة بغير ذلك.

ما يؤخذ من الحديث:

١- أن صلاة المحدث لا تقبل حتى يتطهر من الحدثين الأكبر والأصغر.

٢- أن الحدث ناقض للوضوء ومبطل للصلاة، إن كان فيها.

٣- المراد بعدم القبول هنا: عدم صحة الصلاة وعدم إجزائها.

٤- الحديث يدل على أن الطهارة شرط لصحة الصلاة.

الحديث الثالث

عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو بْنِ الْعَاص، وَأبي هُرَيرةَ، وَعَائِشَةَ رَضِى الله تَعَالَى عَنْهم قالوا: قالَ رَسُولُ الله ﷺ : " وَيْلٌ لِلأَعْقابِ مِنَ النَّار" حديث عائشة تفرد به مسلم.

غريب الحديث:

"الويل " العذاب والهلاك. والويل: مصدر لا فعل له من لفظه.

"الأعقاب " جمع " عقب " وهو مؤخر القدم، والمراد أصحابها.

و (أل) في " الأعقاب " للعهد، أي الأعقاب التي لا ينالها الماء، وبهذا يستقيم الوعيد.

المعنى الإجمالي:

يحذر النبي ﷺ من التهاون بأمر الوضوء والتقصير فيه، ويحث على الاعتناء بإتمامه.

ولما كان مؤخر الرجْل غالبا لا يصل إليه ماء الوضوء، فيكون الخلل في الطهارة والصلاة منه، أخبر أن العذاب مُنْصبّ عليه وعلى صاحبه المتهاون في طهارته الشرعية.

ما يؤخذ من الحديث:

١- وجوب الاعتناء بأعضاء الوضوء، وعدم الإخلال بشيء منها. وقد نص الحديث على القدمين وبقية الأعضاء مقيسة عليهما. مع وجود نصوص لها.

٢- الوعيد الشديد للمخل في وضوئه.

٣- أن الواجب في الرجلين الغسل في الوضوء، وهو ما تضافرت عليه الأدلة الصحيحة، وإجماع الأمة، خلافا لشذوذ الشيعة الذين خالفوا به جماهير الأمة، وخالفوا به الأحاديث الثابتة في فعله وتعليمه ﷺ للصحابة إياه، كما خالفوا القياس المستقيم من أن الغسل للرجلين أولى وأنقى من المسح، فهو أشد مناسبة وأقرب إلى المعنى.

الحديث الرابع

عَنْ أبى هريرة رَضىَ اللَه عَنْهُ: أن رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: " إِذَا تَوَضَّأَ أَحَدُكُمْ فَلْيَجْعَلْ فِي أَنْفِهِ مَاءً ثم لِيَسْتَنْثِرْ وَمَن اسْتَجْمَرَ فَلْيُوتِرْ. وَإِذَا اسْتَيْقَظَ أحدكم مِنْ نَوْمِهِ فَلْيَغْسِل يَدَيْهِ قبْلَ أَنْ يُدْخِلَهُمَا فَي الإِنَاءِ ثَلاثًا[1] ، فَإن أَحَدَكُمْ لا يَدْرِي أَيْنَ بَات يَدُه."

وفي لفظ لمسلم: "فَلْيَسْتَنْشقْ بِمِنْخَرَيْهِ من الماء."

غريب الحديث

"توضأ أحدكم" : يعني إذا شرع في الوضوء.

" ليستنثر": يعني ليخرج الماء أنفه من بعد إدخاله فيه وإدخاله هو الاستنشاق .

" استجمر": استعمل الجمار – وهي الحجارة – لقطع الأذى الخارج من أحد السبيلين، وهو الاستنجاء بالحجارة.

"فليوتر": لِيُنْهِ استجماره على وتر، وهو الفرد، مثل ثلاث أو خمس أو ،نحوهما، ولا يكون قطعه الاستجمار لأقل من ثلاث .

"فإن أحدكم لا يدري ... إلخ ": تعليل لغسل اليد بعد الاستيقاظ.

" باتت يده": حقيقة المبيت يكون من نوم الليل.

وقد حكى الزمخشري وابن حزم والآمدي، وابن برهان أنها تكون بمعنى "صار"، فلا تختص بوقت وإذا أطلقت اليد فالمراد بها الكف.

---

[1] هذا لفظ مسلم ولم يذكره البخاري التثليث. وفي لفظ: "مَنْ تَوَضَّأَ فَلْيَسْتَنْثِرْ."

"فليستنشق ": الاستنشاق هو : إدخال الماء في الأنف.

المعنى الإجمالى :

يشتمل هذا الحديث على ثلاث فقرات لكل فقرة حكمها الخاص بها :

١ – فذكر أن المتوضئ إذا شرع في الوضوء أدخل الماء في أنفه، ثم أخرجه منه وهو الاستنشاق والاستنثار المذكور في الحديث، لأن الأنف من الوجه الذي أمر المتوضئ بغسله .

وقد تضافرت الأحاديث الصحيحة على مشروعيته، لأنه من النظافة المطلوبة شرعاً.

٢ – ثم ذكر أيضاً أن من أراد قطع الأذى الخارج منه بالحجارة، أن يكون قطعه على وتر أقلها ثلاث وأعلاها ما ينقطع به الخارج، وتنقي المحل إن كانت وتراً وإلا زاد واحدة، توتر أعداد الشفع.

٣ – وذكر أيضاً أن المستيقظ من نوم الليل لا يُدْخِلُ كفَّه في الإناء، أو يمس بها شيئاً رطباً حتى يغسلها ثلاث مرات.

لأن نوم الليل – غالباً – يكون طويلا، ويده تطيش في جسمه، فلعلها تصيب بعض المستقذرات وهو لا يعلم، فشرع له غسلها للنظافة **المشروعة .**

اختلاف العلماء

اختلف العلماء في النوم الذي يشرع بعده غسل اليد.

فذهب الشافعي والجمهور إلى أنه بعد كل نوم من ليل أو نهار، لعموم قوله : ﴿من نومه﴾.

وخصه الإمامان أحمد وداود الظاهري بنوم الليل، وأيدوا رَأيَهُمْ بأن حقيقة البيتوتة لا تكون إلا من نوم الليل وبما وقع في رواية الترمذي، وابن ماجه: "إذا استيقظ أحدكم من الليل"[١]

والراجح المذهب الأخير، لأن الحكمة التي شرع من أجلها الغسل غير واضحة، وإنما يغلب عليها التعبدية، فلا مجال لقياس النهار على الليل وإن طال فيه النوم، لأنه على خلاف الغالب، والأحكام تتعلق بالأغلب، وظاهر الأحاديث التخصيص.

ثم اختلفوا أيضاً هل غسلها واجب أو مستحب؟

[١] الترمذي(٧٤)، وابن ماجه(٢٩٣) وقال الترمذي " حسن صحيح" وهو كما قال.

فذهب الجمهور إلى الاستحباب وهو رواية لأحمد، اختارها الخرقي، والموفّق، والمجد.

والمشهور من مذهب الإمام أحمد الوجوب، ويدل عليه ظاهر الحديث .

ما يؤخذ من الحديث

١-وجوب الاستنشاق والاستنثار ، قال النووي: فيه دلالة ظاهرة على أن الاستنثار غير الاستنشاق.

٢-أن الأنف من الوجه في الوضوء، أخذًا من هذا الحديث مع الآية {فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ} [المائدة: ٦]

٣-مشروعية الإيتار لمن استنجى بالحجارة. قال المجد في المنتقى : وهو محمول على أن القطع على وتر فيما فيما زاد على الثلاث.

٤-قال ابن حجر: استنبط قوم من هذا الحديث ان موضع الاستنجاء مخصوص بالرخصة مع بقاء أثر النجاسة عليه.

٥-مشروعية غسل اليد من نوم الليل، وتقدم الخلاف في تخصيص الليل، والخلاف في وجوب الغسل أو استحبابه.

٦-وجوب الوضوء من النوم.

٧-النهي عن إدخالها الإناء قبل غسلها، وهو إما على للتحريم أو للكراهة على الخلاف في وجوب الغسل أو استحبابه.

٨-الظاهر من تعليل مشروعية غسلها النظافة.

ولكن الحكم للغالب فيشرع غسلها ولو حفظها بكيس ونحو ذلك.

٩-قوله: وإذا استيقظ" ظاهره انه حديث واحد كما في البخاري، فقد جعلهما حديثا واحدًا لاتحاد سندهما ولكنهما في الموطأ وعند مسلم حديثان.

الأحكام المتعلقة باستعمال الماء الدائم

الحديث الخامس

عَنْ أبى هريرة رَضي الله عَنْهُ أنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: " لا يَبولَنَّ أحَدُكُمْ في الْمَاءِ الدَّائِمِ الذي لا يَجْرِى، ثُمَّ يَغْتَسِلُ مِنْهُ."

ولمسلم " لا يَغْتَسِلْ أحَدُكُمْ في الْمَاءِ الدَّائِمِ وَهُوَ جُنُب."

غريب الحديث:

١- " لا يبولن": (لا) ناهية، والفعل مجزوم المحل بها، وحُرِّك بالفتح، لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة.

٢- " الذي لا يجرى": تفسير للدائم، وهو المستقر في مكانه كالغُدْرَان في البرية، أو الموارد.

٣- " ثم يغتسل فيه": برفع الفعل على المشهور، والجملة خبر لمبتدأ، تقديره: هو يغتسل منه.

وجملة المبتدأ والخبر محلها الجزم. عطفا على "لا يبولن."

٤- " لا يغتسل": مجزوم لفظا بـ (لا) الناهية.

٥- " وهو جنب": الجملة في موضع نصب على الحال.

المعنى الإجمالى:

نهى النبي ﷺ عن البول في الماء الدائم، الذي لا يجرى، كالخزانات والصهاريج، والغدران في الفلوات، والموارد التي يستسقى منها الناس لئلا يلوثها عليهم ويكرهها. لأن هذه الفضلات القذرة سبب في انتشار الأمراض الفتاكة.

كما نهى عن الاغتسال بغمس الجسم أو بعضه في الماء الذي لا يجرى، حتى لا يكرهه ويوسخه على غيره، بل يتناول منه تناولا، وإذا كان المغتسل جنباً فالنهى أشد.

فإن كان الماء جاريا، فلا بأس من الاغتسال فيه والتبول، مع أن الأحسن تجنيبه البول لعدم الفائدة في ذلك وخشية التلويث، وضرر الغير.

اختلاف العلماء:

اختلف العلماء، هل النهى للتحريم أو الكراهية؟.

فذهب المالكية: إلى أنه مكروه.

وذهب الحنابلة والظاهرية: إلى أنه للتحريم.

وذهب بعض العلماء: إلى أنه محرم في القليل، مكروه في الكثير.

وظاهر النهى، التحريم في القليل والكثير، لكن يخصص من ذلك المياه المستبحرة باتفاق العلماء.

واختلفوا في الماء الذي يبل فيه: هل هو باق على طهوريته أو تنجس؟

فإن كان متغيراً بالنجاسة، فإن الإجماع منعقد على نجاسته، قليلا كان أو كثيراً.

وإن كان غير متغير بالنجاسة وهو كثير[1] فالإجماع أيضا على طهوريته.

وإن كان قليلا غير متغير بالنجاسة. فذهب أبو هريرة، وابن عباس، والحسن البصري، وابن المسيب والثوري، وداود، ومالك والبخاري: إلى عدم تنجسه. وقد سرد البخاري عدة أحاديث ردا على منْ قال إنه نجس.

وذهب ابن عمر، ومجاهد والحنفية والشافعية والحنابلة: إلى أنه تنجس بمجرد ملاقاة النجاسة ولو لم يتغير، مادام قليلا، مستدلين بأدلة، منها حديث الباب، وكلها يمكن ردُّها.

واستدل الأولون بأدلة كثيرة.

منها: ما رواه أبو داود، والترمذي وحسنه " الماء طهور لا ينجسه شيء ". وأجابوا عن حديث الباب بأن النهى لتكريهه على السقاة والواردين لا لتنجيسه. والحق ما ذهب إليه الأولون، فإن مدار التنجس على التغير بالنجاسة، قل الماء أو كثر.

هذا هو اختيار شيخ الإسلام " ابن تيمية " رحمه الله.

ومن هذا نعلم أن الراجح أيضاً طهورية الماء المغتسل فيه من الجنابة، وإن قل، خلافا للمشهور من مذهبنا، ومذهب الشافعي، من أن الاغتسال يسلبه صفة الطهورية، ما دام قليلاً.

ما يؤخذ من الحديث:

١ – النَّهْيُ عن البول في الماء الذي لا يجرى وتحريمه، وأولى بالتحريم التغوط سواء أكان قليلا أم كثيرا، دون المياه المستبحرة فإن ماءها لا يتنجس بمجرد الملاقاة، بل ينتفع به لحاجات كثيرة غير التطهر به من

[1] للعلماء تحديدات للقليل والكثير " مختلفة التقادير

الأحداث.

٢- النهى عن الاغتسال في الماء الدائم بالانغماس فيه، لاسيما الجنب ولو لم يبُلْ فيه كما في رواية مسلم، والمشروع أن يتناول منه تناولا.

٣- جواز ذلك في الماء الجاري، والأحسن اجتنابه.

٤- النهى عن كل شيء من شأنه الأذى والاعتداء.

٥- جاء في بعض روايات الحديث " ثم يغتسل منه " وجاء في بعضها: " ثم يغتسل فيه " ومعنياهما مختلفان، إذ أن " في " ظرفية فتفيد الانغماس في الماء المتبول فيه، و" من " للتبعيض فتفيد معنى التناول منه. وقد ذكر الحافظ ابن حجر أن رواية " فيه " تدل على معنى الانغماس بالنص وتمنع معنى التناول بالاستنباط، ورواية " منه " بعكس ذلك.

حكم الإناء الذي شرب منه الكلب وولغ فيه

الحديث السادس

عَنْ أبي هريرة رضىَ الله عَنْهُ أنَّ رَسُولَ الله ﷺ قالَ: "إذَا شَرِبَ الكَلْبُ في إِنَاءِ أحَدكم فْليَغسِلْهُ سَبْعًا" ولمسلم " أولاهُنَ بِالتَرابِ".

وله في حديث عبد الله بنِ مُغَفَل أن رسول الله ﷺ قال: "إذَا وَلَغَ الْكَلْبُ في الإنَاءِ فَاغْسِلُوهُ سَبْعَا وَعَفرُوه الثَّامِنَةَ بِالتراب".

غريب الحديث:

١- " إذا ولغ " ومضارعه يلَغ بالفتح فيهما شرب بطرف لسانه. وهو أن يدخل لسانه في الماء وغيره من كل مائع، فيحركه ولو لم يشرب. فالشرب أخص من الولوغ.

٢- " عفروه" التعفير، التمريغ في العفر، وهو التراب.

٣- " أولاهن" تأنيث الأول، والهاء ضمير المرات.

وجاء في بعض الروايات أولهن بلفظ المذكر لأن تأنيث المرة غير حقيقي.

المعنى الإجمالى:

لما كان الكلب من الحيوانات المستكرهة التي تحمل كثيرا من الأقذار والأمراض، أمر الشارع الحكيم

بغسل الإناء الذي ولغ فيه سبع مرات، الأولى منهن مصحوبة بالتراب ليأتي الماء بعدها، فتحصل النظافة التامة من نجاسته وضرره.

اختلاف العلماء:

هناك خلافات للعلماء في أشياء.

منها: هل يجب التسبيع والتتريب؟

ولما كان القول الحق، هو ما يستفاد من هذا الحديث الصحيح الواضح، ضربنا عن الإطالة بذكرها صفَحاً، لأنها لا تعتمد على أدلة صحيحة واضحة.

ما يؤخذ من الحديث:

١- التغليظ في نجاسة الكلب، لشدة قذارته. ولذا فإنه ينجس: إن لم تظهر فيه آثار النجاسة وتفسيره يأتي قريبا إن شاء الله.

٢- إن ولوغ الكلب في إناء، ومثله الأكل، ينجس الإناء. وينجس ما فضل منه.

٣- وجوب غسل ما ولغ فيه سبع مرات.

٤- وجوب استعمال التراب مرة، والأَولى أن يكون مع الأُولى ليأتي الماء بعدها. وتكون هي الثامنة المشار إليها في الرواية الأخرى. ولا فرق بين أن يطرح الماء على التراب أو التراب على الماء أو أن يؤخذ التراب المختلط بالماء، فيغسل به أما مسح موضع النجاسة بالتراب فلا يجزئ.

٥- إن ما قام مقام التراب من المنقيات يعطى حكمه في ذلك لأنه ليس القصد للتراب وإنما القصد النظافة. وهو مذهب أحمد وقول للشافعي والمشهور في مذهبه تعيين التراب. وقواه ابن دقيق العيد بأن التراب جاء به النص، وهو أحد المطهرين، ولأن المعنى المستنبط إذا عاد على النص بالإبطال فهو مردود. قال النووي: لا يقوم الأشنان ولا الصابون أو غيرهما مقام التراب على الأصح. قلت: وقد ظهر في البحوث العلمية الحديثة أنه يحصل من التراب إنقاء لهذه النجاسة مالا يحصل من غيره وإن صح هذا فإنه يظهر إحدى معجزات الشرع الشريف ولفظ عفر يُؤَيّد اختصاص التراب لأن العفر لغة هو: وجه الأرض والتراب.

٦- عظمة هذه الشريعة المطهرة، وأنها تزيل من حكيم خبير، وأن مؤديها صلوات الله عليه لم ينطق عن الهوى، وذلك أن بعض العلماء حار في حكمة هذا التغليظ في هذه النجاسة، مع أنه يوجد ما هو مثلها غلظة، ولم يشدد في التطهير منها، حتى قال فريق من العلماء: إن التطهير على هذه الكيفية من ولوغ الكلب تعبدي لا تعقل حكمته، حتى جاء الطب الحديث باكتشافاته ومكبراته. فأثبت أن في لعاب الكلب مكروبات وأمراضاً فتاكة، لا يزيلها الماء وحده..

فسبحان العليم الخبير، وهنيئا للموقنين. وويلا للجاحدين.

٧- ظاهر الحديث أنه عام في جميع الكلاب، أما الكلاب التي أذنت الشارع باتخاذها، مثل كلاب الصيد والحراسة والماشية فقد قيل: إن إيجاب الغسل على ما يحصل منها فيه حرج، فالرخصة باتخاذها قرينة تقود إلى تخصيص التسبيع بغيرها.

كيفية الوضوء وفضيلته كما رواه عثمان بن عفان رضى الله عنه

الحديث السابع

عن حُمْرانَ مَوْلَى عُثْمَانَ بْنِ عَفَانَ، أنه رَأى عُثْمَانَ دَعَا بِوَضوء فَأفرَغ عَلَى يَدَيْهِ مِنْ إنَائِهِ فَغَسَلهُمَا ثَلاثَ مَرات، ثُمَّ أدْخَلَ يَمِينَهُ فِي الوَضُوءِ، ثم تمضْمَضَ وَاستَنْشَق واستَنْثَرَ، ثُم غَسَلَ وَجهَهُ ثَلاثًا، وَيَدَيْهِ إلَى الْمِرْفَقَيْنِ ثَلاثًا، ثُمَّ مَسَحَ برأسه ثُم غَسَل كِلْتَا رجْلَيْهِ ثَلاثًا، ثُمَ قَالَ: رَأيتُ النبي ﷺ توَضَّأ نحْوَ وضوئي هذَا وَقَالَ: "من تَوَضَّأ نَحْوَ وُضُوئي هذَا ثُمَّ صَلَى رَكْعَتَين لا يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ غَفَرَ الله لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ"

غريب الحديث:

١- " وَضوء": بفتح الواو. الماء الذي يتوضأ به. قال النووي: يقال: "الوضوء والطهور بضم أولهما إذا أريد الفعل الذي هو المصدر وبفتح أولهما، إذا أريد الماء الذي يتطهر به". وأصل الوضوء من الوضاءة، وهى الحسن والنظافة فسمي وضوء الصلاة وضوءاً لأنه ينظف صاحبه.

٢- " فأفرغ": قلب من ماء الإناء كل يديه.

٣- " لا يحدِّث فيهما نفسه": حديث النفس، هو الوساوس والخطرات. والمراد به هنا ما كان في شؤون الدنيا.

يعنى، فلا يسترسل في ذلك، وإلا فالأفكار يتعذر السلامة منها.

٤- " إلى المرفقين": (إلى) بمعنى (مع) يعنى مع المرفقين.

٥- " ثم": لم يقصد بها هنا التراخي كما هو الأصل في معناها، وإنما قصد بها مجرد الترتيب. وقد أشار ابن هشام في المغنى والرضي في شرح الكافية إلى أنها قد تأتي لمجرد الترتيب.

٦- " نحو وضوئي": جاء في بعض ألفاظ هذا الحديث "مثل وضوئي هذا" ومعنى "نحو" و"مثل" متفاوت: فإن لفظة "مثل" تقتضي ظاهر المساواة من كل وجه، أما "نحو" فما تعطى معنى المثلية إلا مجازا. والمجاز هنا متعين، لارتباط الثواب بالمماثلة.

المعنى الإجمالى:

اشتمل هذا الحديث العظيم على الصفة الكاملة لوضوء النبي ﷺ.

فإن عثمان رضى الله عنه من حسن تعليمه وتفهيمه علمهم صفة وضوء النبي ﷺ بطريق عملية، ليكون أبلغ تفهُّماً، وأتَمَّ تصوُّراً في أذهانهم. فإنه دعا بإناء فيه ماء، ولئلا يلوثه، لم يغمس يده فيه. وإنما صب على يديه ثلاث مرات حتى نظفتا، بعد ذلك أدخل يده اليمنى في الإناء، وأخذ بها ماء تمضمض منه واستنشق، ثم غسل وجهه ثلاث مرات، ثم غسل يديه مع المرفقين ثلاثا، ثم مسح جميع رأسه مرة واحدة، ثم غسل رجليه مع الكعبين ثلاثا.

فلما فرغ رضى الله عنه من هذا التطبيق، أخبرهم أنه رأى النبي ﷺ توضأ مثل هذا الوضوء.

ولما فرغ ﷺ من هذا الوضوء الكامل، أخبرهم أنه من توضأ مثل وضوئه، وصلى ركعتين، مُحْضراً قلبه بين يدي ربه عز وجل فيهما، فإنه بفضله تعالى يجازيه على هذا الوضوء الكامل، وهذه الصلاة الخالصة بغفران ما تقدم من ذنبه.

اختلاف العلماء:

ذهب الأئمة، أبو حنيفة، ومالك، والشافعي، وسفيان، وغيرهم، إلى أن الاستنشاق مستحب في الوضوء لا واجب.

والمشهور عند الإمام "أحمد" الوجوب، فلا يصح الوضوء بدونه وهو مذهب أبى ليلى، وإسحاق، وغيرهما.

استدل الأولونْ على قولهم بحديث: " عشر من سنن المرسلين " ومنها الاستنشاق، والسنة غير واجب

واستدل الموجبون بقوله تعالى: {فاغْسِلُوا وجُوهَكُم} والأنف من الوجه، وبالأحاديث الكثيرة الصحيحة من صفة فعله ﷺ وأمره بذلك.

وأجابوا عن دليل غير الموجبين بأن المراد بالسنة في الحديث الطريقة، لأن تسمية السنة غير الواجب اصطلاَح من الفقهاء المتأخرين.

ولهذا ورد في كثير من الأحاديث ومنها [عشر من الفطرة.]

ولاشك في صحة المذهب الأخير لقوة أدلته، وعدم ما يعارضها في علمي والله أعلم.

وقد اتفق العلماء على وجوب مسح الرأس، واتفقوا أيضا على استحباب مسح جميعه، ولكن اختلفوا، هل يجزئ مسح بعضه أو لابد من مسحه كله؟.

فذهب الثوري، والأوزاعي، وأبو حنيفة، والشافعي، إلى جواز الاقتصار على بعضه، على اختلافهم في القدر المجزئ منه.

وذهب مالك، وأحمد: إلى وجوب استيعابه كله.

استدل الأولون بقوله تعالى: {وَامْسَحُوا بِرُؤوسِكم} على أن الباء للتبعيض، وبما رواه مسلم عن المغيرة بلفظ: "أنه ﷺ تَوَضَأ فَمَسَحَ بِنَاصيتَهِ وَعَلَى الْعِمَامَةِ."

واستدل الموجبون لمسحه كله بأحاديث كثيرة، كلها تصف وضوء النبي ﷺ، منها حديث الباب، ومنها ما رواه الجماعة: " مَسِحَ رأسه بيدَيْهِ فَاْقْبَلَ بِهِمَا وَأدْبِرَ، بَدَأ بُمَقدَّم رَأسِهِ، ثُمّ ذَهَبَ بِهِمَا إلى قَفاه، ثُم ردهما إِلَى المَكَانِ الذي بَدَأ مِنْهُ."

وأجابوا عن أدلة المجيزين لمسح بعضه، بأن "الباء" لم ترد في اللغة للتبعيض وإنما معناها في الآية، الإلصاق. أي: ألصقوا المسح برؤوسكم والإلصاق هو المعنى الحقيقي للباء وقد سئل نفطويه وابن دريد

عن معنى التبعيض في الباء فلم يعرفاه. وقال ابن برهان: من زعم أن الباء للتبعيض فقد جاء عن أهل العربية بما لا يعرفونه.

قال ابن القيم: "لم يصح في حديث واحد أنه اقتصر على مسح بعض رأس البتة."

ما يؤخذ من الحديث:

١- مشروعية غسل اليدين ثلاثاً قبل إدخالهما في ماء الوضوء عند التوضؤ.

٢- التيامن في تناول ماء الوضوء لغسل الأعضاء.

٣- مشروعية التمضمض، والاستنشاق، والاستنثار على هذا الترتيب. ولا خلاف في مشروعيتهما، وإنما الخلاف في وجوبهما، وتقدم أنه هو الصحيح.

٤- غسل الوجه ثلاثا، وحده: من منابت شعر الرأس إلى الذقن طولا، ومن الأذن إلى الأذن عرضا. وكذلك يثلث في المضمضة والاستنشاق، لأن الأنف والفم من مسمى الوجه. فالوجه عند العرب. ما حصلت به المواجهة.

٥- غسل اليدين مع المرفقين ثلاثاً.

٦- مسح جميع الرأسْ مرة واحدة. يقبل بيديه عليه، ثم يدبر بهما.

٧- غسل الرجلين مع الكعبين ثلاثا.

٨- وجوب الترتيب في ذلك، لإدخال الشارع الممسوح، وهو الرأس، بين المغسولات، ملاحظة للترتيب بين هذه الأعضاء.

٩- إن هذه الصفة هي صفة وضوء النبي ﷺ الكاملة.

١٠- مشروعية الصلاة بعد الوضوء.

١١- إن سبب تمام الصلاة وكمالها، حضور القلب بين يدي الله تعالى وفيه الترغيب بالإخلاص، والتحذير من عدم قبول الصلاة ممن لهى فيها بأمور الدنيا، ومن طرأت عليه الخواطر الدنيوية وهو في الصلاة فطردها يرجى له حصول هذا الثواب.

١٢- فضيلة الوضوء الكاملة، إنه سبب لغفران الذنوب.

١٣- الثواب الموعود به يترتب على مجموع الأمرين، وهما الوضوء على النحو المذكور، وصلاة ركعتين بعده على الصفة المذكورة ولا يترتب على أحدهما فقط، إلا بدليل خارجي. وقد خص العلماء الغفران الذي هنا بصغائر الذنوب، أما الكبائر فلابد لغفرانها من التوبة منها. قال تعالى: {إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ } [النساء: ٣١]

كيفية أخرى للوضوء مروي عن عمر بن يحيى المازنى

الحديث الثامن

عن عَمْرِو بن يَحْيىَ ٱلمازِني عَنْ أبيهِ قَال: شَهِدْتُ عمرْو بن أبي ٱلحَسَنِ سَألَ عَبْدَ الله بْنَ زيد عَن وُضُوءِ النبي صلى الله عليه وسلم، فَدَعَا بِتَوْر[1] مِنْ مَاءٍ فتَوَضأ لَهُم وُضُوءَ النبي صلى الله عليه وسلم. فَأكفأ عَلَى يَدَيْهِ مَنِ التَوْرِ فَغسَل يَدَيْه ثَلاثا، ثُمَّ أدْخَل يَدَهُ في التَّور فَمضْمضَ وَاستَنْشَقَ واستَنْثَرَ ثَلاثًا بثَلاث غرْفَاتٍ، ثُمَّ أدْخل يدهِ فِي التَّوْر فغَسَل وجْهَهِ ثلاثا ثمَّ أدْخَلَ يَدَه فَغَسَلهُمَا مرتين إلى المرْفقيْن، ثُمَّ أدْخَلَ يَدَيْهِ فَمَسَحَ بهما رَأسَهُ فَأقْبَلَ بهمَا، وأدْبَرَ مَرّة وَاحِدَة، ثم غَسَلَ رجْلَيْهِ.

وفي رواية " بَدَأ بِمُقَدَّم رَأسِهِ حَتَّى ذَهبَ بِهِمَا إِلَى قَفَاهُ، ثمَ ردهما حَتَى رجع إِلَى المَكَانِ الذِي بَدَأ مِنْهُ."

وفي رواية "أتَانَا رَسُولُ الله ﷺ فَأخرَجنا لَه مَاءً في تور مِن صُفْر ". متفق عليه. " التور " شِبْهُ الطَّست.

غريب الحديث:

١- " بتور من ماء": بالمثناة الطست، وهو الإناء الصغير. قال الزمخشرى: وهو مذكر عند أهل اللغة.

٢- " فأكفأ على يديه": أمال وصب على يديه وفى بعض الروايات " على يده " قال ابن حجر: تحمل رواية الإفراد على إرادة الجنس.

٣- " من صُفر": بضم الصاد وسكون الفاء، نوع من النحاس.

٤- " إلى المرفقين مرتين": قال الصنعاني: كذا في نسخة العمدة لفظ " مرتين " ولفظ البخاري في هذا الحديث " مرتين مرتين" وكذا في مسلم مكررا ولم ينبه الزركشي إلى هذا.

المعنى الإجمالى:

---

[1] قال الزركشي: لفظه " التور " ليست في شيء من مرويات البخاري وإنما هي من مفردات " مسلم ". وهذا وهم منه، فقد جاءت في صحيح البخاري، في حديث عبد الله بن زيد، في باب غسل الرجلين إلى الكعبين. وقال الصنعاني: إني تتبعت رواية مسلم لهذا الحديث فلم أجد " التور."

هذا الحديث يعرف معناه مما تقدم في شرح حديث عثمان، لأن كلا الحديثين يصف الوضوء الكامل للنبي ﷺ ، إلا أنه يوجد في هذا الحديث زيادة فوائد على الحديث السابق نجملها بما يلي:

١- صرح هنا بأن المضمضة والاستنشاق كانتا ثلاثا ثلاثا من ثلاث غرفات.

٢- في الحديث السابق ذكر أن غسل اليدين كان ثلاثا، وفى هذا الحديث ذكره مرتين فقط

٣- قوله: " ثم أدخل يده فغسل وجهه ثلاثا " إفراد اليد رواية مسلم وأكثر روايات البخاري. قال النووي بعد ذكره أحاديث الروايتين. هي دالة على أن ذلك سنة، ولكن المشهور الذي قطع به الجمهور أن المستحب أخذ الماء للوجه باليدين جميعا لكونه أسهل وأقرب إلى الإسباغ.

٤- قال في الحديث السابق: " ثم مسح برأسه " وهذا التعبير يمكن تأويله ببعض الرأس كما أولت الآية {وامْسَحُوا برؤوسِكُم}

وفى هذا الحديث صرح بمسحه كله، وفَصل كيفية المسح، والشرع يبين بعضه بعضاً، فدل على وجوب مسحه كله كما تقدم.

٥- في الحديثين يذكر عند المضمضة والاستنشاق أنه يدخل يداً واحدة.

وفى هذا الحديث، ذكر أنه أدخل يديه عند غسلهما ومسح الرأس بيديه، أقبل بهما وأدبر مرة واحدة. قال أبو داود: أحاديث الصحاح كلها تدل على أن مسح الرأس مرة واحدة. قال ابن المنذر: "إن الثابت عن النبي ﷺ في المسح مرة واحدة.

٦- الحديث صرح بغسل الرجلين وهنا لم يذكره، وغسلهما من الفروض المتفق عليها، فلا يكون في ترك ذكرهما هنا، ما يدل على عدم وجوب غسلهما.

٧- يؤخذ من هذا، جواز مخالفة أعضاء الوضوء بتفضيل بعضها على بعض، وأن التثليث هو الصفة الكاملة وما دونها يجزئ كما صحت بذلك الأحاديث.

٨- اختلف العلماء في البداءة بالمسح فهي من المقدم إلى المؤخر عند ابن دقيق العيد والصنعاني. وفهم بعضهم من قوله: " فأقبل بهما وأدبر " أن المسح من مؤخر الرأس إلى مقدمه. ثم يعاد باليدين إلى قفا الرأس.

استحباب التيمن في الأمور الشريفة المستطابة

الحديث التاسع

عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عَنْهَا قَالَتْ: " كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُعْجبُهُ التَيمُّن في تَنَعّلِهِ وَتَرَجُّلِهِ وَطُهُورِهِ وَفِي شَأنِهِ كُلِهِ"

غريب الحديث:

١- " يعجبه التيمن": يفضل تقديم الأيمن على الأيسر. قال الصنعانى: كل فعل يحبه الله أو رسوله، فهو يدل على مشروعيته للشركة بين الإيجاب والندب.

٢- " في تنعله": لبس نعله.

٣- " وترجله": تسريح شعر رأسه ولحيته بالمشط.

٤- " وطهوره": بضم الطاء، التطهر. ويشمل الوضوء والغسل وإزالة النجاسة.

٥- " وفى شأنه كله": من الأشياء المستطابة كهذه الأمثلة المذكورة. قال الشيخ تقي الدين: " (وفي شأنه كله) : عام مخصوص بمثل دخول الخلاء والخروج من المسجد ونحوهما مما يبدأ فيه باليسار."

المعنى الإجمالى:

من فضل أمهات المؤمنين رضي الله عهن، لاسيما الحافظة العالمة الصديقة بنت الصديق، أنهن روين للأمة من أفعال النبي صلى الله عليه وسلم، لاسيما الأفعال المنزلية، التي لا يطلع عليها غير أهل بيته، رَوَينَ علماً كثيراً.

فهنا "عائشة" تخبرنا عن عادة النبي ﷺ المحببة إليه، وهى تقديم الأيمن في ليس نعله، ومشط شعره، وتسريحه، وتطهره من الأحداث، وفى جميع أموره، التي من نوع ما ذكر، كلبس القميص والسراويل، والنوم، والأكل والشرب ونحو ذلك.

كل هذا من باب التفاؤل الحسن وتشريف اليمين على اليسار.

وأما الأشياء المستقذرة فالأحسن أن تقدم فيها اليسار.

ولهذا نهى النبي ﷺ عن الاستنجاء باليمين، ونهى عن مس الذكر باليمين، لأنها للطيبات، واليسار لما سوى ذلك.

ما يؤخذ من الحديث:

١- إن تقديم اليمين للأشياء الطيبة هو الأفضل شرعاً وعقلا وطِبًّا. قال النووي: "قاعدة الشرع المستمرة استحباب البداءة باليمين، في كل ما كان من باب التكريم والتزين وما كان بضدها استحب فيه التياسر."

٢- إن جعل اليسار للأشياء المستقذرة، هو الأليق شرعا وعقلا.

٣- إن الشرع الشريف جاء لإصلاح الناس وتهذيبهم ووقايتهم من الأضرار.

٤- أن الأفضل في تقديم الوضوء ميامن الأعضاء على مياسرها. قال النووي: "أجمع العلماء على أن تقديم اليمنى في الوضوء سنة، من خالفهما فاته الفضل وتم وضوءه". قال في المغنى: "لا يعلم في عدم الوجوب خلاف."

فضل إسباغ الوضوء وما يترتب على ذلك
من امتياز هذه الأمة يوم القيامة على سائر الأمم
الحديث العاشر

عَنْ نُعَيْمِ الْمُجْمِرِ عَنْ أبي هريرة رَضِيَ الله عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَهُ قَالَ: "إنَّ أمتي يُدْعَون يومَ القيَامةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثارِ الْوُضُوءِ، فَمن استطَاَعَ مِنْكُمْ أن يُطِيلَ غرَّتَهُ[1] فَلْيَفْعَلْ.

وفي لفظ آخر: رَأَيْتُ أَبَا هُريرةَ يتوضأ، فَغَسَلَ وَجْهَهُ وَيَدَيهِ حَتى كَادَ يَبْلُغُ المَنْكِبَينِ، ثُمَّ غَسَلَ رِجْلَيْهِ حَتَى رَفَعَ إِلَى السَّاقَيْن، ثُمَّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: " إن أمتي يُدْعَوْنَ يَوْم القِيَامَةِ غرا مُحَجلِين من آثار الوُضُوءِ، فمَنِ اسْتَطَاَعَ مِنْكُمْ أنْ يُطِيل غرته وَتَحْجيلَهُ فَلْيَفْعَل."

وفي لفظ لمسلم: سَمِعْتُ خليلي ﷺ يَقُولُ: " تبلغ الحِلْيَةُ من الْمُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الْوُضُوءُ."

غريب الحديث:

١- " يدعون": مبنى للمجهول، ينادَوْن نداء تشريف وتكريم.

٢- " غرّاً": بضم الغين وتشديد الراء، جمع " أغر " أصلها لمعة بيضاء في جبهة الفرس، فأطلقت على نور وجوههم.

---

[1] هذه رواية أحمد، وفى الصحيحين أيضاً وتحجيله.

٣- " محجلين ": من " التحجيل " وهو بياض يكون في قوائم الفرس، والمراد به هنا: النور الكائن في هذه الأعضاء يوم القيامة، تشبيها بتحجيل الفرس.

٤- " الوضوء": بضم الواو هو الفعل.

٥- " من آثار الوضوء": علةّ للغرة، والتحجيل.

المعنى الإجمالى:

يبشر النبي ﷺ أمته بأن الله سبحانه وتعالى يخصهم بعلامة فضل وشرف: يومَ القيامة، من بين الأمم، حيث ينادون فيأتون على رؤوس الخلائق تتلألأ وجوههم وأيديهم وأرجلهم بالنور، وذلك أثر من آثار هذه العبادة العظيمة، وهي الضوء الذي كرروه على هذه الأعضاء الشريفة ابتغاء مرضاة الله، وطلبا لثوابه، فكان جزاؤهم هذه المحمدة العظيمة الخاصة.

ثم يقول أبو هريرة: "من قدر على إطالة هذه الغرّة فليفعل"، لأنه كلما طال مكان الغسل من العضو طالت الغرة والتحجيل، لأن حلية النور تبلغ ما بلغ ماء الوضوء.

الخلاف في إطالة الغرة:

اختلف العلماء في مجاوزة حد الفرض الوجه واليدين والرجلين للوضوء. فذهب الجمهور إلى استحباب ذلك، عملا بهذا الحديث، على اختلاف بينهم في قدر حَدَّ المستحب.

وذهب مالك ورواية عن أحمد، إلى عدم استحباب مجاوزة محل الفرض، واختاره شيخ الإسلام " ابن تيمية "، و" ابن القيم "، وشيخنا عبد الرحمن بن ناصر السعدي، وأيدوا رَأيَهُم بما يأتي:

١- مجاوزة محل الفرض، على أنها عبادة، دعوى تحتاج إلى دليل.

والحديث الذي معنا لا يدل عليها، وإنما يدل على نورَ أعضاء الوضوء يوم القيامة.

وعمل أبي هريرة فَهْمْ له وحده من الحديث، ولا يصار إلى فهمه مع المعارض الراجح.

أما قوله: " فمن استطاع ... الخ " فرجحوا أنها مدرجة من كلام أبي هريرة، لا من كلام النبي ﷺ

٢- لو سلمنا بهذا لاقتضى أن نتجاوز الوجه إلى شعر الرأس، وهو لا يسمى غرة، فيكون متناقضاً.

٣- لم ينقل عن أحد من الصحابة أنه فهم هذا الفهم وتجاوز بوضوئه محل الفرض، بل نقل عن أبي هريرة أنه كان يستتر خشية من استغراب الناس لفعله.

٤- إن كل الواصفين لوضوء النبي ﷺ لم يذكروا إلا أنه يغسل الوجه واليدين إلى المرفقين، والرجلين إلى الكعبين، وما كان ليترك الفاضل في كل مرة من وضوئه. وقال في الفتح: لم أر هذه الجملة في رواية أحد ممن روي هذا الحديث من الصحابة وهم عشرة، ولا ممن رواه عن أبي هريرة غير رواية نعيم هذه.

٥- الآية الكريمة تحدد محل الفرض بالمرفقين والكعبين، وهى من أواخر القرآن نزولا وإليك نص كلام "ابن القيم" في كتابه حادي الأرواح، قال: "أخرجا في الصحيحين والسياق لـ "مسلم" عن أبي حازم قال: كنت خلف أبي هريرة وهو يتوضأ للصلاة، فكان يمد يده حتى يبلغ إبطه، فقلت: يا أبا هريرة ما هذا الوضوء؟ فقال يا بني فروخ [١] أنتم ههنا؟ لو علمت أنكم ههنا ما توضأت هذا الوضوء. سمعت خليلي ﷺ يقول: "تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء."

وقد احتج بهذا من يرى استحباب غسل العضد وإطالته. وتطويل التحجيل، وممن استحبه بعض الحنفية والشافعية والحنابلة وقد اقتصر النبي ﷺ على غسل الوجه والمرفقين والكعبين، ثم قال: " فمن زاد على هذا فقد أساء وظلم فهذا يرد قولهم."

ولذا فإن الصحيح أنه لا يستحب وهو قول أهل المدينة، وورد فيه عن أحمد روايتان.

والحديث لا يدل على الإطالة، فإن الحلية إنما تكون زينة في الساعد والمعصم، لا في العضد والكتف.

وأما قوله: " فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل " فهذه الزيادة مدرجة في الحديث من كلام أبي هريرة لا من كلام النبي ﷺ بَين ذلك غير واحد من الحفاظ.

وفي مسند الإمام أحمد في هذا الحديث، قال نعيم: فلا أدرى قوله: " من استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل " من كلام النبي ﷺ، أو شيء قاله أبو هريرة من عنده.

---

[١] قال الليث: بلغنا أن فروخ كان من ولد إبراهيم عليه السلام، بعد إسحاق وإسماعيل، فكثر نسله ونما عدده، فولد العجم الذين في وسط البلاد. هكذا حكاه الأزهري عنه.

وكان شيخنا[1] يقول: هذه اللفظة لا يمكن أن تكون من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن الغرة لا تكون في اليد، ولا تكون إلا في الوجه، وإطالته غير ممكنة، إذ تدخل في الرأس فلا تسمى تلك غرة. انتهى كلامه رحمه الله.

باب دخول الخلاء والاستطابة

هذا الباب يذكر فيه آداب دخول الخلاء، والجلوس فيه، والخروج منه، كما يذكر فيه كيفية الاستطابة من الأنجاس في المخرجين بحجر وما يقوم مقامه والتحرز منها، وهذا من أبواب كتاب الطهارة المذكور سابقا.

الحديث الحادي عشر

عن أنس بن مالك رَضي الله عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ كَانَ إِذَا دَخَلَ الْخَلاءَ قَالَ: "اللهُمَّ إني أعُوذُ بِك من الْخُبثِ والْخَبائثِ"

الخبث بضم الخاء والباء جمع (خبيث) " والخبائث " جمع خبيثة.

استعاذ من ذُكران الشياطين وإناثهم.

غريب الحديث:

١- " إذا دخل الخلاء": يعنى إذا أراد الدخول كقوله تعالى: {فَإِذَا قرأتَ القُرْآنَ فَاستَعِذ بَالله منَ الشيْطَان الرجِيم} . يعنى: فإذا أردت قراءة القرآن.

وكما صرح البخاري في " الأدب المفرد " بهذا حيث روى عن أنس قال: كان النبي ﷺ إذا أراد أن يدخل الخلاء قال: وذكر حديث الباب.

٢- " الخلاء": بالمد، المكان الخالي. وهنا، المكان المقصود والمعدّ لقضاء الحاجة فإن قصد فضاء كصحراء لقضاء حاجته فلا حاجة إلى تأويل الدخول بإرادة الدخول.

٣-الخبث والخبائث": الخبث، ضبط بضم الخاء والباء كما ذكر المصنف ومعناه ذكور الشياطين، وضبطه

[1] يعني بشيخه، شيخ الإسلام "ابن تيمية" رحمها الله تعالى. وذلك لأن الكلام لابن القيم في حادي الأرواح كما صرح المؤلف .

جماعة بإسكان الباء ومعناه على هذا يكون الشر، وهو معنى جامع حيث قد استعاذ من الشر وأهله، وهم الخبائث، فينبغي للقائل مراعاة هذا المعنى العام.

المعنى الإجمالى:

أنس بن مالك المتشرف بخدمة النبي ﷺ يذكر لنا في هذا الحديث أدب النبي ﷺ حينِ قضاء حاجته، وهو أنه ﷺ من كثرة التجائه إلى ربه لا يدع ذكره والاستعانة به على أية حال.

فهو ﷺ إذا أراد دخول المكان الذي سيقضي فيه حاجته، استعاذ بالله، والتجأ إليه أن يقيه من الشر الذي منه النجاسة، وأن يعصمه من الخبائث، وهم الشياطين

الذين يحاولون في كل حال أن يفسدوا على المسلم أمر دينه وعبادته.

فإذا كان النبي ﷺ وهو المحفوف بالعصمة يخاف من الشر وأهله، فجدير بنا أن يكون خوفنا أشد وأن نأخذ بالاحتياط لديننا من عدونا.

ما يؤخذ من الحديث:

١- استحباب هذا الدعاء عند إرادة دخول الخلاء، ليأمن من الشياطين الذين يحاولون إفساد صلاته.

٢- إن من أذى الشياطين أنهم يسبِبون التنجس لتفسد صلاة العبد فيستعيذ منهم، ليتقي شرهم.

٣- وجوب اجتناب النجاسات، وعمل الأسباب المنجية منها. فقد صح أن عدم التحرز من البول من أسباب عذاب القبر.

الحديث الثانى عشر

عَنْ أبي أيّوبَ الأنصاري رَضِي الله عَنْهُ قال: قالَ رسول الله ﷺ "إِذا أردتمُ الغَائِطَ فَلا تَستقْبِلوا القِبلَةَ بِغَائِطٍ وَلا بَوْل وَلا تسْتدْبِرُوهَا وَلكنْ شَرقوا أوْ غَربُوا". قال أبو أيوب: "فقدمنا الشام فوجدنا مراحيض قد بنيت نحو الكعبة، فننحرف عنها، ونستغفر الله عز وجل"

غريب الحديث:

١- " الغائط": المطمئن من الأرض، وكانوا ينتابونه لقضاء الحاجة، فكنوا به عن الحدث نفسه.

٢- " والمراحيض": جمع مرحاض وهو المغتسل، وقد كنوا به أيضا عن موضع قضاء الحاجة.

٣- " ولكن شرقوا أو غربوا": اتجهوا نحو المشرق أو المغرب.

وهذا بالنسبة لأهل المدينة ومن في سَمْتهم، ممن لا يستقبلون القبلة ولا يستدبرونها إذا شرقوا أو غربوا.

المعنى الإجمالي:

يرشد النبي ﷺ إلى شيء من آداب قضاء الحاجة بأن لا يستقبلوا القبلة، وهي الكعبة المشرفة، ولا يستدبروها حال قضاء الحاجة لأنها قبلة الصلاة، وموضع التكريم والتقديس، وعليهم أن ينحرفوا عنها قِبَلَ المشرق أو المغرب إذا كان التشريق أو التغريب ليس موجَّها إليها، كقبلة أهل المدينة.

ولما كان الصحابة رضي الله عنهم أسرع الناس قبولا لأمر النبي صلى الله عليه وسلم، الذي هو الحق، ذكر أبو أيوب: أنهم لما قدموا الشام إثر الفتح وجدوا فيها المراحيض المعدة لقضاء الحاجة، قد بنيت متجهة إلى الكعبة، فكانوا ينحرفون عن القبلة، ولكن قد يقع منهم السهو فيستقبلون الكعبة، فإذا فطنوا، انحرفوا عنها، وسألوا الله الغفران عما بدر منهم سهواً.

ما يؤخذ من الحديث:

١- النهي عن استقبال القبلة واستدبارها، حال قضاء الحاجة.

٢- الأمر بالانحراف عن القبلة في تلك الحال.

٣- إن أوامر الشرع ونواهيه تكون عامة لجميع الأمة، وهذا هو الأصل. وقد تكون خاصة لبعض الأمة، ومنها هذا الأمر فإن قوله: "ولكن شرقوا أو غربوا" هو أمر بالنسبة لأهل المدينة ومن هو في جهتهم، ممن إذا شرقوا أو غربوا لا يستقبلون القبلة.

٤- الحكمة في ذلك تعظيم الكعبة المشرفة واحترامها. فقد جاء في حديث مرفوع "إذا أتى أحدكم البراز فليكرم قبلة الله عز وجل ولا يستقبل القبلة."

٥- المراد بالاستغفار هنا: الاستغفار القلبي لا اللساني، لأن ذكر الله باللسان في حال كشف العورة وقضاء الحاجة ممنوع.

الحديث الثالث عشر

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضيَ الله عَنْهُمَا قَالَ: رَقِيتُ[1] يَوْمًا عَلَى بَيْتِ حَفْصَةَ، فَرَأَيْتُ النبي ﷺ يَقْضى حَاجَتَهُ مُسْتَقْبلَ الشَّام مُسْتَدْبرَ الكَعْبَةِ.

المعنى الإجمالى:

ذكر ابن عمر رضي الله عنه: أنه جاء يوماً إلى بيت أخته حفصة، زوج النبي ﷺ، فرأى النبي ﷺ، يقضى حاجته وهو متَجه نحو الشام، ومستدبر القبلة.

اختلاف العلماء والتوفيق بين الحديثين:

اختلف العلماء في حكمٍ استقبال القبلة واستدبارها في قضاء الحاجة.

فذهب إلى التحريم مطلقا، راوي الحديث أبو أيوب، ومجاهد، والنخعي، والثوري. ونصر هذا القول "ابن حزم" وأبطل سواه من الأقوال في كتابه المحلى، وهو اختيار شيخ الإسلام "ابن تيمية" و"ابن القيم" وقواه: ورد غيره من الأقوال في كتابيه. "زاد المعاد" و"تهذيب السنن" واحتجوا بالأحاديث الصحيحة الواردة في النهى المطلق عن ذلك، ومنها حديث أبى أيوب هذا الذي معنا.

وذهب إلى جوازه مطلقاً، عروة بن الزبير، وربيعة، وداود الظاهري، محتجين بأحاديث، منها حديث ابن عمر الذي معنا.

وذهب الأئمة مالك، والشافعي، وأحمد، وإسحاق وهو مروي عن عبد الله بن عمر، والشعبي: إلى التفصيل في ذلك.

فيحرمونه في الفضاء، ويبيحونه في البناء ونحوه.

فهذا هو المذهب الحق الذي تجتمع فيه الأدلة الشرعية الصحيحة الواضحة

فإن التحريم مطلقاً، يبطل العمل بجانب من الأحاديث، والإباحة مطلقا كذلك. والتفصيل يجمع بين الأدلة، ويعملها كلها، وهذا هو الحق. فإنه مهما أمكن الجمع بين النصوص، وجب المصير إليه قبل كل شيء وهناك قول رابع لا يقل عن هذا قوة وهو القول بالكراهة لا التحريم قال الصنعاني: لابد من التوفيق

[1] بكسر القاف أي صعدت

بين الأحاديث بحمل النهى على الكراهة لا التحريم، وهذا وإن كان خلافا لأصل النهي. إلا أن قرينة إرادته فعله ﷺ بخلافه للتشريع وبيان الجواز. وحمل أحاديث الباب على هذا هو الأقرب عندي. وقد ذهب إليه جماعة وبهذا يزول تعارض أحاديث الباب.

قلت: وعلى كل ينبغي الانحراف عن القبلة في البناء أيضا، اتقاء للأحاديث الناهية في ذلك، ولما فيه من الخلاف القويِّ الذي نصره هؤلاء المحققون.

ما يؤخذ من الحديث:

١- جواز استدبار الكعبة عند قضاء الحاجة، ويفيد بأنه في البنيان.

٢- جواز استقبال بيت المقدس عند قضاء الحاجة خلافا لمن كرهه.

الحديث الرابع عشر

عنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ الله عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ: "كَانَ رَسول الله يَدْخُلُ الخلاء فَأَحْمِلُ أَنَا وَغُلام نَحوِى إِدَاوَةً مِنْ ماء وَعَنَزَةً فَيَسْتَنْجِي بِالْمَاء"

العنزة: الحربة الصغيرة.

غريب الحديث:

١- " وغلام نحوي": الغلام، هو المميز حتى يبلغ و"نحوي" يعنى هو مقارب لي في السن.

٢- " إداوة من ماء": بكسر الهمزة، هي الإِناء الصغير من الجلد يجعل للماء.

٣- " العَنَزة": عصا أقصر من الرمح لها سنان.

المعنى الإجمالى:

يذكر خادم النبي ﷺ " أنس بن مالك " أن النبي ﷺ حينما يدخل موضع قضاء الحاجة كان يجيء هو وغلام معه بطهوره، الذي يقطع به الأذى، وهو ماء في جلد صغير، وكذلك يأتيان بما يستتر به عن نظر الناس. وهو عصا قصيرة في طرفها حديدة يغرزها في الأرض ويجعل عليها شيئا يقيه من نظر المارين.

ما يؤخذ من الحديث:

١- جواز الاقتصار على الماء في الاستنجاء، وهو أفضل من الاقتصار على الحجارة، لأن الماء أنقى، والأفضل الجمع بين الحجارة والماء، فيقدم الحجارة، ثم يتبعها الماء، ليحصل الإنقاء الكامل. قال النووي:

فالذي عليه جماعة السلف والخلف، وأجمع عليه أهل الفتوى من أئمة الأمصار أن الأفضل أن يجمع بين الماء والحجارة فيستعمل الحجر أولا لتخف النجاسة وتقل مباشرتها بيده، ثم يستعمل الماء. فإن أراد الاقتصار على أحدهما جاز الاقتصار على أيهما شاء، سواء وجد الآخر أو لم يجده، فإن اقتصر على أحدهما فالماء أفضل من الحجر.

٢- استعداد المسلم بطهوره عند قضاء الحاجة، لئلا يُحْوِجُه إلى القيام فيتلوث.

٣- تَحَفظُهُ عن أن ينظر إليه أحد، لأن النظر إلى العورة محرم. فكان يركز العنزة في الأرض وينصب عليها الثوب الساتر.

٤- جواز استخدام الصغار، وإن كانوا أحراراً.

الحديث الخامس عشر

عن أبي قَتَادة الْحَارِثِ بْنِ ربعي الأنصاري رَضِيَ اللَه عَنْهُ أَنَّ النبي ﷺ قَالَ: "لا يُمْسِكن[1] أَحَدُكُمْ ذَكَرَهُ بِيَمِينِهِ وَهو يَبُولُ، وَلاَ يَتَمَسَّحْ مِنَ الخَلاَءِ بِيَمِينِهِ، ولا يَتَنَفَس في الإنَاء."

المعنى الإجمالى:

يشتمل هذا الحديث الشريف على ثلاث جمل، من النصائح الغالية والفوائد الثمينة، التي تهذب الإنسان، وتجنبه الأقذار والأضرار والأمراض.

فالأولى والثانية: أن لا يمس ذكره حال بوله، ولا يزيل النجاسة من القبل أو الدبر بيمينه، لأن اليد اليمنى أعدت للأشياء الطيبة، ومباشر الأشياء المرغوب فيها كالأكل والشرب.

فإذا باشرت النجاسات وتلوثت، ثم باشرت الطعام والشراب، والمصافحة وغير ذلك، كرهته. وربما حملت معها شيئا من الأمراض الخفية.

والثالثة: النَّهى عن التنفس في الإناء الذي يشرب منه لما في ذلك من الأضرار الكثيرة، التي منها تكريهه للشارب بعده، كما أنه قد يخرج من أنفه بعض الأمراض التي تلوث الماء فتنقل معه العدوى، إذا كان الشارب المتنفس مريضاً.

---

[1] لا يمسكن: بضم الياء.

وقد يحصل من التنفس حال الشرب ضرر على الشارب، حينما يدخل النفس الماء ويخرج منه.

والشارع لا يأمر إلا، بما فيه الخير والصلاح، ولا ينهى إلا عما فيه الضرر والفساد.

اختلاف العلماء:

اختلف العلماء: هل النهى للتحريم، أو للكراهة؟

فذهب الظاهرية إلى التحريم، أخذا بظاهر الحديث.

وذهب الجمهور إلى الكراهة، على أنها نواه تأديبية.

ما يؤخذ من الحديث:

١ – النهى عن مس الذكر باليمنى حال البول.

٢ – النهى عن الاستنجاء باليمين.

٣ – النهى عن التنفس في الإناء.

٤ – اجتناب الأشياء القذرة، فإذا اضطر إلى مباشرتها، فليكن باليسار.

٥ – بيان شرف اليمين وفضلها على اليسار.

٦ – الاعتناء بالنظافة عامة، لاسيما المأكولات والمشروبات التي يحصل من تلويثها ضرر في الصحة.

٧ – سُمُوُّ الشرع، حيث أمر بكل نافع، وحذر من كل ضار.

الحديث السادس عشر

عن عَبد الله بن عباس رضي الله تَعَالَى عَنْهُما قَالَ: مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بقبرين فَقَاَل: " إِنَهُمَا ليُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّ بانِ في كَبِير. أمَا أحَدُهُما فَكَاَن لاَ يَسْتَتِرُ مِنَ الْبَول، وَأَمَّا الآخر فكَاَن يمْشي بَالنميمَة."

فَأَخَذَ جَرِيدةً رَطْبَةً فَشَقَهَا نِصْفَيْنِ، فَغرزَ في كل قَبْر واحدَة.

فقالوا: يَا رَسُول الله، لم فَعَلْتَ هذَا؟ قَال: "لعَلهُ يُخَفَفُ عَنْهمَا مَا لم يَيْبَسَا."

غريب الحديث:

١ – " إنهما ليعذبان": المراد، يعذب من فيهما. من إطلاق اسم المحل على الحال فيه.

٢- " لا يستتر من البول": بتائين، أي لا يجعل سترة تقيه من بوله وروي "لا يستبرئ."

٣- " يمشي بالنميمة": ينقل كلام الغير بقصد الإِضرار.

٤- " فأخذ جريدة": عسيب النخل الذي ليس فيه سعف.

٥- " فغرز": بالزاي، ورواه " مسلم " بالسين. أي: غرس.

قال أبو مسعود: "وموضع الغرس كان بازاء الرأس، ثبت بإسناد صحيح."

المعنى الإجمالي:

مر النبي ﷺ، ومعه بعض أصحابه بقبرين، فكشف الله سبحانه وتعالى له عنهما، فرأى من فيهما يعذبان. فأخبر أصحابه بذلك، تحذيراً لأمته، وتخويفاً، فإن صاحبي هذين القبرين، يعذب كل منهما بذنب يسير تركه والابتعاد عنه، لمن وفقه الله لذلك.

فأَحَدُ المعذَّبَيْن، لا يحترز من بوله عند قضاء الحاجة، ولا يتحفّظ منه، فتصيبه النَجاسة فتلوث بدنه وثيابه.

والآخر شيطان يسعى بين الناس بالنميمة التي تسبب العداوة والبغضاء بين الناس، ولاسيما الأقارب والأصدقاء.

يأتي إلى هذا فينقل إليه كلام ذاك ويأتي إلى ذاك فينقل إليه كلام هذا، فيولد بينهما القطيعة والخصام.

والإسلام إنما جاء بالمحبة والألفة بين الناس وقطع المنازعات والمخاصمات.

ولكن الكريم الرحيم أدركته عليهما الشفقة والرأفة، فأخذ جريدة نخل رطبة، فشقَّها نصفين، وغرز على كل قبر واحدة.

فسأل الصحابة النبي ﷺ عن هذا العمل الغريب عليهم فقال: لعل الله يخفف عنهما ما هما فيه في العذاب، ما لم تيبس هاتان الجريدتان.

اختلاف العلماء:

اختلف العلماء في وضع الجريدة على القبر. فذهب بعضهم إلى استحباب وضع الجريدة على القبر، لأنهم جعلوا هذا الفعل من النبي ﷺ تشريعاً عاماً.

والعلة عند هؤلاء مفهومة،: هي أن الجريدة تسبح عند صاحب القبر مادامت رطبة.

فلعله يناله من هذا التسبيح ما يُنَورُ عليه قبره.

وذهب بعضهم إلى عدم مشروعية ذلك، لأنه شرع عبادة، وهو يحتاج إلى دليل، وليس في الشرع ما يثبته.

أما هذه فقضية عين، حكمتها مجهولة، ولذا لم يفعلها النبي ﷺ مع غير صاحبي هذين القبرين.

وكذاك لم يفعله من أصحابه أحد، إلا ما روى عن بُريدة بن الحُصيب، من أنه أوصى أن يجعل على قبره جريدتان.

أما التسبيح، فلا يختص بالرطب دون اليابس، والله تعالى يقول: {وإِنْ مِنْ شيء إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمدِهِ}.

ثم قالوا: لو فرضنا أن الحكمة معقولة، وهى تسبيح الجريد الرطب، فنقول: تختص بمثل هذه الحال التي حصلت للنبي ﷺ عند هذين القبرين، وهى الكشف له من عذابهما قال القاضي عياض: "علل غرزهما على القبر بأمر مغيَب وهو قوله، " ليعذبان " فلا يتم القياس لأنا لا نعلم حصول العلة."

ما يؤخذ من الحديث:

١- إثبات عذاب القبر كما اشتهرت به الأخبار وهو مذهب أكثر الأمة.

٢- عدم الاستبراء من النجاسات سبب في هذا العذاب فالواجب الاستبراء منها: فالحديث يدل على أن للبول بالنسبة إلى عذاب القبر خصوصية. ويؤكد ذلك ما رواه الحاكم وابن خزيمة وهو "أكثر عذاب القبر من البول" قال ابن حجر: "وهو صحيح الإسناد."

٣- تحريم النميمة بين الناس وأنها من أسباب عذاب القبر.

٤- رحمة النبي ﷺ بأصحابه وحرصه على إبعاد الشر عنهما.

٥- الستر على الذنوب والعيوب. فإنه لم يصرح باسمي صاحبي القبرين، ولعله مقصود.

٦- قوله: "ما يعذبان في كبير" أي بسبب ذنب كبير تركه كليهما، فإن ترك النميمة والتحرز من البول ليسا من الأمور الصعبة الشاقة. وقد كبر عذابهما لما يرّتب على فعلتيهما من المفاسد.

فائدة: اختلف العلماء في انتفاع الميت بعمل الحي حينما يجعل الحي ثواب قربته البدنية أو المالية إلى الميت، فقال الإمام أحمد: الميت يصل إليه كل خير للنصوص الواردة فيه. أما ابن تيمية فقد نقل عنه في ذلك قولان:

أحدهما: أنه ينتفع بذلك باتفاق الأئمة.

الثاني: أنه لم يكن من عادة السلف إذا فعلوا إحدى القربات تطوعا أن يهدوا ذلك لموتى المسلمين، واتباع نهج السلف أولى وقال الصنعانى: الميت يصح أن يوهب له أي قربة.. أما لحوق سائر القرب ففيها خلاف. والحق لحوقها. وذكر ابن تيمية أن الأخبار قد استفاضت بمعرفة الميت بأحوال أهله وأصحابه في الدنيا وسروره بالسار منها وحزنه للقبيح.

بَابُ السّوَاك

السواك: بكسر السين، اسم للعود الذي يُتَسَوَّكُ به، وللفعل الذي هو دَلك الأسنان بالعود أو نحوه، لتذهب الصفرة والأوساخ، وليطهر الفم ويحصل الثواب.

مناسبة ذكره هنا، أنه من سنن الوضوء ومن الطهارة المرغب فيها.

فهو أحد أبواب " كتاب الطهارة " المتقدم.

وفيه من الفوائد ما يفوت الحصر من النظافة، والصحة، وقطع الرائحة الكريهة، وطيب الفم، وتحصيل الثواب، واتباع النبي ﷺ.

الحديث السابع عشر

عن أَبِي هريرة رَضِي الله عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: " لَوْلاَ[1] أَنْ أَشُقَّ عَلَى أمتي لأَمَرْتُهُمْ بِالسَّوَا كِ مَعَ كُلِّ وُضوءٍ عِنْدَ كُل صَلاةٍ " متفق عليه.

المعنى الإجمالى:

من كمال نصح النبي ﷺ ومحبته الخير لأمته، ورغبته أن يلجوا كل باب يعود عليهم بالنفع لينالوا كمال السعادة، أن حثهم على التسوك.

فهو ﷺ لما علم من كثرة فوائد السواك، وأثر منفعته عاجلا وآجلا، كاد يلزم أمته به عند كل وضوء أو صلاة.

---

[1] "لولا" تفيد امتناع الثاني لوجود الأول نحو لولا زيد لأكرمتك أي لولا مخافة أن أشق. لأمرتهم أمرا.

ولكن لكمال شفقته ورحمته خاف أن يفرضه الله عليهم، فلا يقوموا به، فيأثموا، فامتنع من فرضه عليهم خوفاً وإشفاقاً. ومع هذا رغبهم فيه وحضَّهم عليه.

ما يؤخذ من الحديث:

١- استحباب السواك وفضله، الذي بلغ به درجة الواجبات في الثواب.

٢- تأكد مشروعية السواك عند الوضوء والصلاة قال ابن دقيق العيد: السر أنا مأمورون وكل حالة من أحوال التقرب إلى الله عز وجل إنما تكون في حالة كمال النظافة لإظهار شرف العبادة. وقيل: إن ذلك الأمر يتعلق بالملك فإنه يتأذى بالرائحة الكريهة. قال الصنعاني: ولا يبعد أن السر مجموع الأمرين المذكورين لما أخرجه مسلم من حديث جابر " من أكل الثوم أو البصل أو الكراث، فلا يقربن مسجدنا فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى به بنو آدم."

٣- فضل الوضوء والصلاة، المستعمل معهما السواك.

٤- إنه لم يمنع من، فرض السواك إلا مخافة المشقة في القيام به.

٥- كمال شفقة النبي ﷺ بأمته، وخوفه عليهم.

٦- إن الشرع يسر لا عسر فيه، ولا مشقة.

٧- أن درء المفاسد، مقدم على جلب المصالح.

وهذه قاعدة عظيمة نافعة جدا. فإن الشارع الحكيم، ترك فرض السواك، على الأمة مع ما فيه من المصالح العظيمة، خشية أن يفرضه الله عليهم فلا يقوموا به فيحصل عليهم فساد كبير، بتركِ الواجبات الشرعية.

الحديث الثامن عشر

عن حُذَيْفَةَ بْن الْيَمانِ قَالَ: كَان رَسُول الله ﷺ إِذا قَامَ من الليل يَشُوصُ[1] فاه بِالسوَاكِ.

قوله " يشوص " بفتح الياء وضم الشين المعجمة المهملة، والشوص ذلك الأسنان بمسواك عرضا.

المعنى الإجمالى:

من محبة النبي ﷺ للنظافة وكراهته للرائحة الكريهة، كان إذا قام من نوم الليل الطويل الذي هو مظنة تغير

[1] قوله " يشوص " بفتح الياء وضم الشين المعجمة المهملة، والشوص ذلك الأسنان بمسواك عرضا .

رائحة الفم، دلك أسنانه ﷺ بالسواك، ليقطع الرائحة، ولينشط بعد مغالبة النوم على القيام، لأن من خصائص السواك أيضا التنبيه والتنشيط.

ما يؤخذ من الحديث

١- تأكد مشروعية السواك بعد نوم الليل. وعلته أن النوم مقتض لتغير رائحة الفم، والسواك هو آلة تنظيفية، ولهذا فإنه يسن عند كل تغير.

٢- تأكد مشروعية السواك عند كل تغير كريه للفم، أخذا من المعنى السابق.

٣- مشروعية النظافة على وجه العموم، وأنها من سنة النبي ﷺ، ومن الآداب السامية.

الحديث التاسع عشر

عَنْ عَائِشَةَ رَضيَ الله عَنْهَا قَالَتْ: دَخَل عَبْدُ الرَّحْمنِ بنُ أبي بَكْر الصديق رَضيَ الله عَنْهُمَا عَلَى النَّبيِّ ﷺ وَأنا مُسْنِدَتهُ إلى صَدْري وَمَعَ عَبْدِ الرحْمنِ سِوَاكٌ رَطْبٌ يَسْتَنُّ بهِ فَأبَدهُ رَسُول الله ﷺ بَصَرَهُ، فَأخَذْتُ السوَاكَ فَقَضِمْتُهُ وَطَيبتهُ، ثُمَّ دَفَعْتُهُ إلَى النَّبيِّ ﷺ فاستنّ به، فما رأيت رسول الله ﷺ اسْتَنَّ اسْتِنَانًا أحْسَنَ مِنْهُ. فَمَا عَداَ أنْ فَرَغَ رَسُولُ الله ﷺ رَفَعَ يَدَهُ أوْ إصبَعَهُ ثم قال: "في الرَّفيقِ الأعلى" ثَلاثًا، ثُم قضى عَليهِ. وكَانَتْ تَقُولُ: مَاتَ بَيْنَ حَاقِنَتي وذاقِنَتى.

وفى لفظ: فَرَأيتهُ يَنْظُرُ إلَيهِ، وَعَرَفْتُ أنَّهُ يُحِب السوَاكَ فَقُلْتُ: آخُذُه لَك؟ فَأشَارَ بِرأسِهِ: أن نَعَمْ.

هذا لفظ البخاري، ولـ "مسلم" نحوه.

غريب الحديث:

١- " يستن به " يُمِرُّ السواك على أسنانه، كأنه يحددها.

٢- " فأبده " بتخفيف الباء الموحدة، وتشديد الدال، مدَّ إليه بصره وأطاله.

٣- " بين حاقنتى وذاقنتى " "الحاقنة" ما بين الترقوتين وحبل العاتق "الذاقنة" طرف الحلقوم الأعلى.

٤- " فقَضِمته " بفتح القاف وكسر الضاد المعجمة كذا ضبطه ابن الأثير وغيره، أي مضغته بأسنانها، ليلين. و"القضم" بأطراف الأسنان و"الخصم" بالفم كله.

المعنى الإجمالى:

تذكر عائشة رضي الله عنها قصةً تبين لنا مدى محبة النبي ﷺ للسواك وتعلقه به

وذلك أن عبد الرحمن بن أبى بكر أخا عائشة دخل على النبي ﷺ في حال النزع ومعه سواك رطب، يدلك به أسنانه.

فلما رأى النبي ﷺ السواك مع عبد الرحمن، لم يشغله عنه ما هو فيه من المرض والنزع، من محبته له، فمذَ إليه بصره، كالراغب فيه، ففطنت عائشة رضي الله عنها فأخذت السواك من أخيها، وقصت رأس السواك المنقوض، ونقضت له رأساً جديداً ونظفته وطيبته، ثم ناولته النبي صلى الله عليه وسلم، فاستاك به.

فما رأت عائشة تسوكاً أحسن من تسوكه.

فلما طهر وفرغ من التسوك، رفع إصبعه، يوحد الله تعالى، ويختار النقلة إلى ربه تعالى، ثم توفى ﷺ

فكانت عائشة رضي الله عنها مغتبطة، وحق لها ذلك، بأنه ﷺ توفى ورأسه في صدرها.

ما يؤخذ من الحديث:

١- الاستياك بالسواك الرطب.

٢- إصلاح السواك وتهيئته.

٣- الاستياك بسواك الغير بعد تطهيره وتنظيفه.

٤- العمل بما يفهم من الإشارة والدلالة.

٥- الرفيق الأعلى: هم المشار إليهم في سورة النساء وهم {الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ } [النساء: ٦٩]

الحديث العشرون

عَنْ أَبِي مُوسَى الأشعري رضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: أتيْتُ النبي ﷺ وهُوَ يَستَاكُ بِسِوَاكٍ رَطْبٍ[1] قَالَ وطَرَف السوَاكِ عَلى لِسَانِهِ، وَهو يَقُولُ: أُع أُع، وَالسوَاك في فِيهِ كَأَنَهُ يَتَهَوَّع.

غريب الحديث:

١- " أُع أُع " بضم الهمزة وسكون المهملة. حكاية صوت المتقيء، أصلها هع هع، فأبدلت همزة.

٢- " كأنه يتهوع " التهوع، التقيؤ بصوت.

---

[1] هذا لفظ البخاري ولفظ (مسلم) . دخلت على النبي ﷺ وطرف السواك على لسانه هـ، يذكر الصفة، وكذا حرره عبد الحق في كتابه (الجمع بين الصحيحين)

المعنى الإجمالى

يذكر أبو موسى الأشعرى: أنه جاء إلى النبي ﷺ، وهو يستاك بمسواك رطب، لأن إنقاءه أكمل، فلا يتفتت في الفم، فيؤذى، وقد جعل السواك على لسانه، وبالغ في التسوك، حتى كأنه يتقيأ.

ما يؤخذ من الحديث:

١- مشروعية السواك بالعود الرطب. وأن السواك من العبادات والقربات.

٢- مشروعية المبالغة في التسوك. لأن في المبالغة كمال الإنقاء.

٣- أن يستعمل السواك في لسانه، في بعض الأحيان.

بَاب المسْح عَلى الخفّين

هذا الباب يذكر فيه شيء من أدلة مشروعية المسح على الخفين، لأن المسح عليهما بدل غسلهما، فهو الطهارة الشرعية المجمع عليها بين المعتبرين من علماء المسلمين، لما تواتر فيها من النصوص الشرعية الصحيحة الواضحة، ولله الحمد.

ولا يعتبر شذوذ بعض الطوائف في عدم شرعيتها والأخذ بأحاديثها لردهم النصوص الصحيحة الصريحة المتواترة، والمسح على الخفين من الرخص التي يحب الله أن تؤتى، ومن تسهيلات هذه الشريعة السمحة.

الحديث الحادي والعشرون

عَنْ المغيرة بن شعبة قال: كُنْتُ مَع النبي ﷺ في سَفَر فَأهوَيْتُ لأنْزِعَ خُفَيْهِ، فَقَالَ: "دَعْهُمَا، فَإنِّي أدْخَلتُهُمَا طاهِرَتَيْنِ" فَمَسَحَ عَلَيْهِمَا.

غريب الحديث:

١- " فأهويت لأنزع" مددت يدي لإخراجهما من رجليه لغسلهما.

المعنى الإجمالى:

كان المغيرة مع النبي ﷺ في أحد أسفاره. فلما شرع النبي ﷺ في الوضوء، وغسل وجهه ويديه، ومسح رأسه، أهوى المغيرة إلى خفي النبي ﷺ لينزعهما لغسل الرجلين.

فقال النبي ﷺ دعهما ولا تنزعهما، فإني أدخلت رجلي وأنا على طهارة، فمسح النبي ﷺ على خفيه بدل غسل رجليه.

اختلاف العلماء:

شذت الشيعة في إنكار المسح على الخفين، وروى أيضاً عن " مالك " وبعض الصحابة.

لكن قال شيخ الإسلام " ابن تيمية ": إن الرواية عنهم بإنكارهم ضعيفة.

وأما مالك، فالرواية الثابتة عنه، القول به، وأطبق أصحابه من بعده على الجواز.

أما الشيعة، فهم الذين خالفوا الإجماع، مستمسكين بقراءة الجر، من "وأرجُلِكُمْ" لأن الآية ناسخة للأحاديث عندهم.

وذهبت الأمة جمعاء إلى جواز المسح واعتقاده، محتجين بالسنة المتواترة.

والقراءة على فرض الأخذ بها تكون مجرورة للمجاورة، أو لتقييد المسح على الخفين وكان أصحاب عبد الله بن مسعود يعجبهم حديث جرير بن عبد الله في المسح على الخفين لأن إسلامه كان بعد نزول سورة المائدة فيكون في الآية رد على من لم ير المسح أخذا بقراءة الجر في "وأرجلكم" وقال ابن دقيق العيد كلاما مؤداه أن المسح على الخفين اشتهر جوازه حتى صار شعار أهل السنة. وإنكاره شعار أهل البدعة.

ما يؤخذ من الحديث:

١- مشروعية المسح على الخفين عند الوضوء، والمسح يكون مرة واحدة باليد ويكون على أعلى الخف دون أسفله كما جاء في الآثار.

٢- اشتراط الطهارة للمسح على الخفين. وذلك بأن تكون الرجلان على طهارة قبل دخولهما في الخف.

٣- استحباب خدمة العلماء والفضلاء.

٤- جاء في بعض روايات هذا الحديث أن ذلك في غزوة تبوك لصلاة الفجر.

الحديث الثانى والعشرون

عن حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَان قال: كَنْتُ مَعَ النبي ﷺ في سَفَرٍ، فَبَالَ وَتَوَضَّأ وَمَسَحَ عَلَى خُفَيهِ.[1]

المعنى الإجمالى:

ذكر حذيفة أنه كان مع النبي ﷺ في أحد أسفاره، فبال وتوضأ ومسح على خفيه.

ما يؤخذ من الحديث:

١- مشروعية المسح على الخفين في السفر. ومدة المسح على الخفين والعمامة في السفر ثلاثة أيام بلياليها. ومدة المسح للمقيم يوم وليلة أي ٢٤ ساعة يحسب ابتداؤها في السفر أو الحضر من ساعة المسح على أصح الأقوال.

٢- المسح على الخفين بعد الوضوء من البول وثبت المسح على الخفين وعلى العمامة من كل حدث أصغر، في أحاديث كثيرة. أما الحدث الأكبر الموجب للغسل كالجنابة فلا يكفى فيه المسح على الخفين ولا على العمامة بل لابد من الاغتسال أما الجبيرة والجروح المعصوبة فإنه يمسح عليها من الحدثين الأصغر والأكبر. أما إذا كان المسح يضرها أو يخشى منه الضرر فلا تمسح ويتيمم عنها ولكن مع غسل سائر الأعضاء الصحيحة.

بَاب في المذي وغَيره

المذيُ: هو السائل الذي يخرج من الذكر، عند هيجان الشهوة، ويخرج بلا دفق ولا لذة. ولا يعقبه فتور، وقد لا يحس بخروجه، ويكون ذلك للرجل والمرأة. وقال الأطباء: إنه يخرج من مجرى البول مع إفراز الغدد المبالية عند الملاعبة.

والمراد هنا، بيان أحكامه من حيث النجاسة ونقض الوضوء.

وفى الباب، عدةَ من الأحاديث، تتعلق بنقض الوضوء وإزالة النجاسات.

---

[1] لفظ هذا الحديث في الصحيحين عن حذيفة قال: كنت مع النبي ﷺ فانتهى إلى سباطة (مزبلة) قوم فبال قائما فتنحيت، فقال: أدنه، فدنوت منه حتى قمت عند عقبه، فتوضأ، زاد مسلم " فمسح على خفيه ". قال عبد الحق في (الجمع بين الصحيحين: ولم يذكر البخاري في روايته، هذه الزيادة. وعلى هذا فلا يحسن من المصنف عد هذا الحديث في هذا الباب من المتفق عليه.

الحديث الثالث والعشرون

عَنْ عَلِيِّ بْنِ أبى طَالِب رَضِيَ الله عَنْهُ قَال: كُنْتُ رَجُلا مَذّاءً، فَاسْتَحْيَيتُ أنْ أسْأَلَ رَسُولَ الله ﷺ لِمَكَان ابنته منِّى، فَأَمَرْتُ المِقْدادَ بْنِ الأسْوَد، فَسألهُ، فَقَالَ: " يَغْسِلُ ذَكَرَهُ ويتوضأ[1]".

وللبخاري "اغْسِل ذَكَرَكَ وتَوَضأ"، ولمسلم[2] : "تَوَضأ وَانْضَحْ فَرْجَكَ".

غريب الحديث:

١- " مذَّاء" وزن فعّال من صيغ المبالغة، والمراد كثير المَذي.

٢- " انضح فرجك" يراد بالنضح، الرش وهو الأكثر، وقد يراد به الغسل، وهو المراد هنا، ليوافق الرواية الأخرى المصرّحة بالغسل.

٣- " يغسلُ" برفع اللام. هكذا الرواية على صيغة الخبر، ومعناه الأمر.

٤- " استحييت" بيائين هي اللغة الفصحى، ويأتي بياء واحدة كما في قراءة {إن الله لا يستحى. }.

المعنى الإجمالى:

يقول على رضي الله عنه: كنت رجلا كثير المذْيِ، وكنت أغتسل منه حتى شق علىَّ الغُسل، لأني ظننت حكمه حكم المنى. فأردت أن أتأكد من حكمه، وأردت أن أسأل النبي ﷺ

ولكون هذه المسألة تتعلق بالفروج، وابنته تحتي، فاستحييت من سؤاله، فأمرت المقداد أن يسأله، فسأله فقال: إذا خرج منه المذي فليغسل ذَكَرَهُ حتى يتقلص الخارج الناشئ من الحرارة، برَشَّة بالماء، ويتوضأ لكونه خارجا من أحد السبيلين والخارج من أحدهما هو أحد نواقض الوضوء. فيكون ﷺ قد أرشد السائل بهذا الجواب إلى أمر شرعي وأمر طبي.

اختلاف العلماء:

ذهب الحنابلة، وبعض المالكية: إلى وجوب غسل الذكر كله، مستدلين بهذا الحديث وغيره، حيث صرحت بغسل الذكر، وهو حقيقة يطلق عليه كله. وذهب الجمهور: إلى وجوب غسل المحلى الذي أصابه المذْىُ

---

[1] أورده البخاري بلفظ: " توضأ واغسل ذكرك.

[2] هذه الرواية لمسلم: قد استدركها عليه الدارقطني، بأن فيها انقطاعاً. قال النووي: وكيف كان فمتن الحديث صحيح، من الطرق الأخرى التي ذكرها مسلم قبل هذه الطريق

لأنه الموجب للغسل فيقتصر عليه.

والقول الأول أرجح لأمور:

الأول: أن غسله هو الحقيقة من الحديث، وغسل بعضه مجاز يحتاج إلى قرينة قوية.

الثاني: أن المذْيَ فيه شبه من المَنيّ، من ناحية سبب خروجهما، وتقارب لونهما، وغير ذلك، فهو أشبه ما يكون بجنابة صغرى، يقتصر فيه عن غسل البدن كله، على غسل الفرج.

الثالث: أنه يتسرب من حرارة الشهوة فنضحه كله مناسب، ليتقلص الخارج بتبريده.

ما يؤخذ من الحديث:

١- نجاسة المَذيِ، وأنه يجب غسله. ولكن يعفى عن يسيره بسبب المشقة كما ذكر بعض العلماء.

٢- أنه من نواقض الوضوء، لأنه خارج من أحد السبيلين.

٣- وجوب غسل الذكر. وقد ورد في بعض الأحاديث (وغسل الأنثيين)

٤- أنه لا يوجب غسل البدن كالجنابة، وهو إجماع.

٥- أنه لا يكفى في إزالة المذيِ الاستجمار بالحجارة كالبول بل لابد من الماء.

حكم في حصول الحدث

الحديث الرابع والعشرون

عن عَبّادِ بنِ تَميمٍ، عَنْ عَبْدِ الله بنِ زَيد بنِ عَاصِمٍ المَازِني قال: شُكِيَ[1] إلى النبي ﷺ الرجُلُ يُخَيلُ إلَيْهِ أَنَهُ يَجِدُ الشيء في الصَّلاةِ، فَقَالَ: "لا يَنْصرفْ حَتّى يَسمَعَ صَوتًا أو يَجِدَ رِيحًا.

المعنى الإجمالى:

هذا الحديث كما ذكر النووي رحمه الله من قواعد الإسلام العامة وأصوله التي تبنى عليها الأحكام الكثيرة الجليلة.

وهى أن الأصل بقاء الأشياء المتيقنة على حكمها، فلا يعدل عنها لمجرد الشكوك والظنون، سواء قويت الشكوك، أو ضعفت، مادامت لم تصل إلى درجة اليقين، وأمثلة ذلك كثيرة لا تخفى. ومنها هذا الحديث.

---

[1] شكي: بضم الشين وضم الكاف، مبنى للمجهول،: " الرجل " قائم مقام الفاعل. والشاكي هو الراوي عبد الله بن زيد، كذا جاء في الصحيح.

فما دام الإنسان متيقنا للطهارة، ثم شك في الحدث فالأصل بقاء طهارته، وبالعكس فمن تيقن الحدث، وشك في الطهارة فالأصل بقاء الحدث، ومن هذا الثياب والأمكنة، فالأصل فيها الطهارة، إلا بيقين نجاستها.

ومن ذلك عدد الركعات في الصلاة، فمن تيقن ثلاثا مثلا، وشك في الرابعة، فالأصل عدمها.

ومن ذلك، من شك في طلاق زوجته. فالأصل بقاء النكاح. وهكذا من المسائل الكثيرة التي لا تخفى.

ما يؤخذ من الحديث:

١- القاعدة العامة وهي " أن" الأصل بقاء ما كان على ما كان.

٢- أن مجرد الشك في الحدث، لا يبطل الوضوء، ولا الصلاة.

٣- تحريم الانصراف من الصلاة لغير سبب بين.

٤- أن الريح الخارجة من الدبر، بصوت أو بغير صوت، ناقضة للوضوء.

٥- يراد من سماع الصوت ووجدان الريح في الحديث، التيقن من ذلك.

فلو كان لا يسمع ولا يشتم، وتيقن بغير هذين الطريقين، انتقض وضوءه.

حكم بول الصبى والصبية

الحديث الخامس والعشرون

عَنْ أُم قَيْسِ بِنْتَ مِحْصَنِ الْأسديَة أنها أَتَتْ بِابْنِ لَهَا صَغِيرٍ لَمْ يَأْكُلِ الطّعَامَ، إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فأجلَسَهُ رسول الله ﷺ في حِجْرِهِ، فَبَالَ عَلَى ثَوْبِهِ، فَدَعَا بِمَاء فَنَضَحَهُ عَلَى ثَوْبِهِ وَلَمْ يَغْسِلْهُ.

وفي حديث عائشةَ أُم المؤمنين: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ أُتِيَ بِصبيٍّ، فَبَالَ عَلَى ثَوْبِهِ فَدَعَا بِمَاء فَأَتْبَعَهُ إِيَّاه. ولمسلم " فَأَتْبَعَهُ بَوْلَهُ وَلَمْ يَغْسِلْهُ".

المعنى الإجمالى:

كان الصحابة رضي الله عنهم يأتون النبي ﷺ بأطفالهم. لينالوا من بركته وبركة دعائه لهم.

وكان ﷺ من لطافته، وكرم أخلاقه، يستقبلهم بما جبله الله عليه، من البشر والسماحة.

فجاءت "أم قيس" بابن لها صغير، يتقوت اللبن، ولم يصل إلى سن التقوت بغير اللبن.

فمن رحمته أجلسه في حجره الكريم، فبال الصبي على ثوب النبي ﷺ، فطلب ماء فرش مكان البول من ثوبه رشاً، ولم يغسله غسلا.

اختلاف العلماء:

يرى طائفة من العلماء أن الذكر والأنثى سواء في الاكتفاء بالنضح، قياسا للأنثى على الذكر.

وترى طائفة أخرى: أنهما سواء في وجوب الغسل وعدم الاكتفاء بالنضح.

وكلا الطائفتين لم تستندا إلى دليل.

و"النضح" للذكر و"الغسل" للأنثى، هو الذي تدل عليه الأحاديث الصحيحة الصريحة وهو مذهب الأئمة "الشافعي" "وأحمد" و"إسحاق" و"الأوزاعي" و"ابن حزم" و"ابن تيمية" و "ابن القيم" واختاره شيخنا "السعدي" وكثير من المحققين.

ما يؤخذ من الحديث:

١- نجاسة بول الغلام وإن لم يأكل الطعام لشهوة..

٢- كفاية الرش، الذي لا يبلغ درجة الجريان، لتطهير بول الغلام.

٣- أخلاق النبي ﷺ الكريمة، وتواضعه الجم.

فائدة: اختلف العلماء في السبب الذي أوجب التفريق بين بول الغلام وبول الجارية، وتلمس كل منهم حكمة، صارت في نظره الفارقة المناسبة.

وأحسن هذه التلمسات، أحد أمرين.

الأول: أن الغلام عنده حرارة غريزية زائدة على حرارة الجارية، تطبخ الطعام، وتلطف الفضلات الخارجة.

ومع هذه الحرارة الزائدة كون الطعام الطفل لطيفاً، لأنه لبن.

والجارية ليس لديها الحرارة الملطفة، ويؤيد هذا تقييد نضح النجاسة بعدم أكل الطعام، إلا اللبن.

والثاني: أن الغلام عادة أرغب إلى الناس من الجارية فيكثر حمله ونقله، وتباشر نجاسته، مما يسبب المشقة والحرج، فسومح بتخفيف نجاسته، ويؤيده ما يعرف عن الشريعة من السماح واليسير.

والقاعد العامة تقول: "المشقة تجلب التيسير."

على أن بعض العلماء جعلوه من المسائل التعبدية، التي لا تعقل حكمتها والله أعلم بمراده.

كيفية تطهير الأرض التى أصابها بول

الحديث السادس والعشرون

عَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ رضيَ اللَه عَنْهُ قال: جَاءَ أَعْرَابيّ فَبَالَ فِي طَائِفَةِ المسْجِدِ فَزَجَرَهُ الناس، فَنَهَاهُمُ النبي ﷺ، فلَما قَضَى بَولَه، أَمَرَ النبي ﷺ بِذَنُوبٍ مِنْ مَاءٍ فأهْرِيقَ عَلَيْهِ.

غريب الحديث:

١- " أعرابي" بفتح الهمزة، نسبة إلى الأعراب، وهم سكان البادية وقد جاءت النسبة فيه إلى الجمع دون الواحد.

٢- " في طائفة المسجد" في ناحية المسجد.

٣- " فزجره الناس" نهروه.

٤- " بذنوب من ماء" بفتح الذال المعجمة، الدلو الملأى ماءً ولا تسمى ذنوبا إلا إذا كان فيها ماء.

"فأهريق عليه" أصله "أريق عليه" أبدلت الهمزة هاء، فصار "فهريق" ثم زيدت همزة أخرى، فصار "فأهريق" هو بسكون الهاء، مبنى للمجهول.

المعنى الإجمالى:

من عادة الأعراب، الجفاء والجهل، لبعدهم عن تعلم ما أنزل الله على رسوله.

فبينما كان النبي ﷺ في أصحابه في المسجد النبوي، إذ جاء أعرابي وبال في أحد جوانب المسجد، ظناً منه أنه كالفلاة، فعظم فعله على الصحابة لعظم حرمة المساجد، فنهروه أثناء بوله.

ولكن صاحب الخلق الكريم، الذي بعث بالتبشير والتيسير، ولما يعلمه من حال الأعراب، نهاهم عن زجره، لئلا يُلوث بقعاً كثيرة من المسجد، ولئلا يصيبه الضرر بقطع بوله عليه، وليكون أدعى لقبول النصيحة والتعليم حينما يعلمه النبي ﷺ، وأمرهم أن يطهروا مكان بوله، بصب دلو من ماء عليه.

ما يؤخذ من الحديث:

١- أن البول على الأرض يطهر بغمره بالماء، ولا يشترط نقل التراب من المكان بعد ذلك ولا قبله.

٢- احترام المساجد وتطهيرها.

٣- سماحة خلق النبي ﷺ. فقد أرشد الأعرابي برفق ولين بعد ما بال مما جعله يقول: "اللهم ارحمني ومحمدا، ولا ترحم معنا أحداً " كما جاء في صحيح البخاري.

٤- بُعْدُ نظره ﷺ ومعرفته لطبائع الناس.

٥- عند تزاحم المفاسد، يرتكب أخفها، فقد تركه يكمل بوله، لأجل ما يترتب من الأضرار بقطعه عليه.

٦- إن البعد عن الناس والمدن، يسبب الجفاء والجهل.

٧- الرفق بتعليم الجاهل.

بيان أحكام الختان والاستحداد وقص الشارب وتقليم الأظافر

الحديث السابع والعشرون

عَن أبِي هُرَيرة رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: " الفطرة خمس: الْخِتَانُ، والاستِحْدَادُ، وَقَصُ الشَّارب، وَتَقلِيمُ الأظَافِرِ، وَنَتْف الإبْطِ."

المعنى الإجمالى:

يذكر أبو هريرة أنه سمع النبي ﷺ يقول: خمس خصال من دين الإسلام،الذي فطر الله الناس عليه، فمن أتى بها، فقد قام بخصال عظام من الدين الحنيف. وهذه الخمس المذكرة في هذا الحديث، من جملة النظافة، التي أتى بها الإسلام.

أولها قطع قُلْفة الذكر، التي يسبب بقاؤها تراكم النجاسات والأوساخ فتحدث الأمراض والجروح.

وثانيها حلق الشعور التي حول الفرج، سواء أكان قبلا أم دبرا، لأن بقاءها في مكانها يجعلها معرضة للتلوث بالنجاسات، وربما أخلت بالطهارة الشرعية.

وثالثها قص الشارب، الذي بقاؤه، يسبب تشويه الخلقة، ويكره الشراب بعد صاحبه، وهو من التشبه بالمجوس.

ورابعها تقليم الأظافر، التي يسبب بقاؤها تجمع الأوساخ فيها، فتخالط الطعام، فيحدث المرض.

وأيضا ربما منعت كمال الطهارة لسترها بعض الفرض.

وخامسها نتف الإبط، الذي يجلب بقاؤه الرائحة الكريهة.

وبالجملة فإزالة هذه الأشياء من محاسن الإِسلام، الذي جاء بالنظافة والطهارة، والتأديب والتهذيب، ليكون المسلم على أحسن حال وأجمل صورة، فإن النظافة من الإِيمان.

ما يؤخذ من الحديث:

١- أن فطرة الله تعالى تدعو إلى كل خير، وتبعد عن كل شر.

٢- أن هذه الخصال الخمس الكَريمة، من فطرة الله، التي يحبها ويأمر بها.

وجبل أصحاب الأذواق السليمة عليها ونفرهم من ضدها.

٣- أن الدين الإسلامي جاء بالنظافة والجمال والكمال.

٤- مشروعية تعاهد هذه الأشياء، وعدم الغفلة عنها.

٥- العدد خمسة هنا ليس حصراً، فإن مفهوم العدد ليس بحجة، وقد جاء في صحيح مسلم: وقد كان النبي ﷺ يذكر من أنواع الفطرة في كل موضوع ما يناسبه.

٦- قال ابن حجر: يتعلق بهذه الخصال فوائد دينية ودنيوية منها

تحسين الهيئة وتنظيف البدن والاحتياط للطهارة، ومخالفة شعار الكفار، وامتثال أمر الشارع. ا. هـ.

٧- أن ما يفعله الآن الشبان والشابات من تطويل الأظافر، وما يفعله الذكور من إعفاء الشوارب، من الأمور الممنوعة شرعًا، المستقبحة عقلاً وذوقًا. وأن الدين الإسلامي لا يأمر إلا بكل جميل ولا ينهى إلا عن كل قبيح، غير أن التقلَيد الأعمى للفرنجة قد قلب الحقائق وحسن القبيح، ونفر من الحسن ذوقا وعقلا وشرعا.

اختلاف العلماء:

اتفقت العلماء على استحباب فعل الأشياء المذكورة عدا الختان، فقد اختلفوا هل هو مستحب أو واجب، ومتى وقت وجوبه من عمر الإنسان؟

وهل هو واجب على الرجال والنساء، أو على الرجال فقط؟

والصحيح من هذه الخلافات، أنه واجب، وأن وجوبه على الرجال دون النساء، وأن وقت وجوبه عند البلوغ، حينما تجب عليه الطهارة والصلاة.

فائدة: الختان الشرعي هو قطع القلفة الساترة لحشفة الذكر.

ويوجد في البلاد المتوحشة من يسلخون والعياذ بالله الجلد الذي يحيط بِالْقبُلِ كله، ويزعمون جهلا أن هذا ختان، وما هذا إلا تعذيب وتمثيل ومخالفة للسنة المحمدية، وهو محرم وفاعله آثم.

وفقنا الله جميعا لاتباع شرعه الطاهر.

بَاب الغُسْل مِنَ الجنابة

الغسل بضم الغين اسم الاغتسال، الذي هو تعميم البدن بالماء.

وأصل "الجنابة" البعد، وإنما قيل لمن جامع أو خرج منه المنيُ: جنب لأن ماءه باعد محله.

ويراد بهذا الباب، الأحكام التي تتعلق بالغسل وتبين أسبابه وآدابه، وغير ذلك.

وهو من جملة الطهارة المشروعة للصلاة، ومن النظافة المرغب فيها.

{وَإِنْ كُنتُم جُنُباً فَاطَّهرُوا} عدا ما فيه من فوائد صحية وقلبية.

فإن المجامع حينما تخرج منه النطفة التي تعتبر سلالة بدنه، وجوهره، يحصل له بعد خروجها شيء من الإجهاد والتعب،، ويحصل له فتور وكسل وتَبَلُّدُ ذهن، وركود في حركة الدم.

ومن رحمة الحكيم الخبير، شرع هذا الغسل، الذي يعيد إلى الجسد قوته، وينشط دورة الدم في جسمه، فيعود إلى نشاطه. وكم في شرع الله من حِكم وأسرار!! وفقنا الله تعالى لفهمها، والإيمان بها.

الحديث الثامن والعشرون

عَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضيَ الله عَنْهُ: أن النبي ﷺ لقيه في[1] بعض طرق المدينة وهُوَ جُنُبٌ، قالَ: فَانْخَنَسْتُ مِنْهُ. فَذَهبْتُ فاغتسلت، ثمَّ جِئت، فقال: " أيْنَ كُنْتَ يَا أبا هريرة؟ " قال: كُنْتُ جُنُبًا، فَكَرِهتُ أنْ أجالسك وَأنَا عَلَى غَيْرِ طَهَارَةٍ. فقَالَ: " سُبْحَانَ الله إنَّ الْمُؤْمِنَ لا يَنْجُسُ."

غريب الحديث:

١- " انخنست": بالنون ثم بالخاء المعجمة والسين المهملة،. من الخنوس، وهو التأخر والاختفاء. يعنى انسللت واختفيت.

[1] في أول هذا الحديث، انقطاع في رواية " مسلم " ذكره المازري في (المعلم) ووصله البخاري وغيره.

قال ابن فارس: "الخنس" الذهاب بخفية، "خنس" الرجال، تأخر.

٢- " منه": أي من أجله، حيث رأيت نفسي نجساً بالنسبة إلى طهارته وجلالته صلى الله عليه وسلم.

٣- " كنت جنبا": أي كنت ذا جنابة، وتقع هذه اللفظة على الواحد والجمع المذكر والمؤنث، كما ورد في القرآن والحديث. قال سبحانه: {إن كنتم جنبا فاطهروا} وقالت إحدى أمهات المؤمنين: "كنت جنبًا."

٤- " لا ينجُس": بضم الجيم وفتحها.

٥- " سبحان الله": تعجب من اعتقاد أبي هريرة التنجس من الجنابة.

المعنى الإجمالى:

لقي أبو هريرة النبي ﷺ في بعض طرق المدينة، وصادف أنه جنب فكان من تعظيمه للنبي ﷺ وتكريمه إياه، أن كره مجالسته ومحادثته وهو على تلك الحال.

فانسل في خفية من النبي ﷺ واغتسل، ثم جاء إليه.

فسأله النبي ﷺ أين ذهب؟ فأخبره بحاله، وأنه كره مجالسته على غير طهارة.

فتعجب النبي ﷺ من حال أبي هريرة حين ظن نجاسة الجنب. وذهب ليغتسل وأخبره: أن المؤمن لا ينجس على أية حال.

ما يؤخذ من الحديث:

١- كون الجنابة ليست نجاسة تحل البدن.

٢- كون الإنسان لا تنجس ذاته، لا حيًّا، ولا ميتًا. وليس معناه أن بدنه لا تصيبه النجاسة أو تحل به، فقد تكون عينه أي ذاته متنجسة إذا أصابته النجاسة.

٣- جواز تأخير الغسل من الجنابة.

٤- تعظيم أهل الفضل، والعلم، والصلاح، ومجالستهم على أحسن الهيئات.

٥- مشروعية استئذان التابع للمتبوع في الانصراف، فقد أنكر النبي ﷺ على أبي هريرة ذهابه من غير علمه، وذاك أن الاستئذان من حسن الأدب.

الحديث التاسع والعشرون

عَنْ عَائِشَةَ رَضي الله عَنْهَا قَالتْ: كان رَسولُ الله ﷺ إذا اغْتَسَلَ مِنَ الجَنَابَةِ غَسَل يَدَيْهِ، ثُمَ تَوَضَّأ وضُوءهُ للصلاةِ، ثم يُخَلِّلُ بيَدْيَهِ شَعْره حَتَّى إِذَا ظَنَّ أَنَّهُ قَدْ أَرْوَى بَشَرَتَهُ أَفَاضَ عَلَيْهِ الماءَ ثَلاثَ مَرَاتٍ، ثُم غَسل سَائِرَ جَسَدِهِ.

وقالت: كُنْت أَغْتَسل أَنَا وَرَسُول الله ﷺ مِنْ إِنَاء وَاحِدٍ، نَغْتَرِف مِنْهُ جَمِيعًا.

غريب الحديث:

١- " إذا اغتسل من الجنابة": يعنى أراد ذلك. قال الزمخشرى: عبر عن إرادة الفعل بالفعل، لأن الفعل يوجد بقدرة الفاعل عليه وإرادته له. والقصد الإيجاز في الكلام.

٢- " ثم يخلل بيديه شعره": التخليل إدخال الأصابع بين أجزاء الشعر.

٣- قد أروى بشرته أوصل الماء إلى أصول الشعر، والبشرة المرادة هنا، ظاهر الجلد المستور بالشعر.

٤- " إذا ظن": الظن يراد به هنا معنى الرجحان، إذ لا دليل على أنه لابد من اليقين، والظن قد صح التعبد به في الأحكام.

٥- " أفاض عليه": أسال الماء على شعره.

المعنى الإجمالى:

تصف عائشة غسل النبي ﷺ بأنه إذا أراد الغسل من الجنابة، بدأ بغسل يديه، لتكونا نظيفتين حينما يتناول بهما الماء للطهارة، وتوضأ كما يتوضأ للصلاة.

ولكونه ﷺ ذا شعر كثيف، فإنه يخلله بيديه وفيهما الماء.

حتى إذا وصل الماء إلى أصول الشعر، وأروى البشرة، أفاض الماء على رأسه ثلاث مرات ثم غسل باقي جسده.

ومع هذا الغسل الكامل، فإنه يكفيه هو وعائشة، إناء واحد، يغترفان منه جميعا.

ما يؤخذ من الحديث:

١- مشروعية الغسل من الجنابة. سواء أكان ذلك لإنزال المنى أم لمجرد الإيلاج. كما سيأتي صريحًا في حديث أبي هريرة.

٢- أن الغسل الكامل، ما ذكر في هذا الحديث، من تقديم غسل اليدين، ثم الوضوء، ثم تخليل الشعر الكثيف، وترويته، ثم غسل بقية البدن.

٣- قولها: " كان إذا اغتسل ": يدل على تكرار هذا الفعل منه عند الغسل من الجنابة.

٤- جواز نظر أحد الزوجين لعورة الآخر، وغسلها من إناء واحد.

٥- تقديم غسل أعضاء الوضوء في ابتداء الغسل على الغسل منْ الجنابة، عدا غسل الرجلين فإنه مؤخر إلى بعد الانتهاء من غسل البدن كله، كما سيأتي.

٦- قولها: " ثم توضأ وضوءه للصلاة ... ثم غسل سائر جسده": يدل على أن غسل أعضاء الوضوء رافع للحدثين الأكبر والأصغر، فإن الأمر الذي يوجب غسل هذه الأعضاء للجنابة ولرفع الحدث الأصغر واحد.

٧- قولها "سائر الجسد": بقيته.

الحديث الثلاثون

عَنْ مَيْمُونَةَ بنْتِ الْحَارثِ زَوْج النبي ﷺ أَنَّهَا قَالَتْ: وَضَعْتُ لِرَسُولِ الله ﷺ وَضُوءَ الجَنَابَة فأَكفَأ بِيمِينِهِ علَى يساره مَرَّتيْنِ أوْ ثَلاثًا، ثم غَسَلَ فرْجَهُ، ثُمَّ ضَرَبَ يدَهُ بِالأرْضِ أوْ الحَائِطِ مرَّتينَ أوْ ثَلاثًا ثمَّ مَضْمَضَ وَاسْتَنْشَقَ، ثُمَّ غَسَلَ وجْهَهُ وَذِراعَيْهِ، ثمَّ أفَاضَ عَلى رَأسِهِ الْمَاءَ، ثمَّ غَسَلَ سَائرَ جَسَدِهِ، ثُمَّ تَنَحَّى فَغَسَل رِجْليْهِ فأتيتهُ بِخِرْقَةٍ فَلَمْ يُرِدْها، فَجَعَل يَنْفُضُ الْمَاءَ بِيَدَيْهِ.

غريب الحديث:

١- " أكفأ الإناء": قلبه على وجهه. وكفأه: أماله، والحديث يفيد الإمالة بلا شك، وهذا ما يوافق رواية البخاري وهى " كفأ " وأنكر بعضهم أَن يكون "أكفأ" بمعنى قلب.

٢- " ضرب يده في الأرض أو الحائط": المراد منه مسح يده بأحدهما لإزالة اللزوجة بعد الاستنجاء.

٣- " إفاضة الماء": على الشيء وإفراغه عليه وإسالته فوقه.

٤- " فلم يُرِدْها": بضم الياء وكسر الراء وإسكان الدال، من الإرادة لا من الردّ كما غلط بعضهم.

ما يؤخذ من الحديث:

هذا الحديث نحو الحديث السابق، وفيه فوائد نجملها فيما يلي.

١- الحديث الأول ذكر فيه غسل يديه مجملا، وفي هذا الحديث ذكر أن غسلهما مرتين أو ثلاثا.

٢- في هذا الحديث أنه بعد غسل اليدين غسل فرجه ثم مسح يديه بالأرض مرتين أو ثلاثا وقد ذكر العلماء أنه يعفى عن بقية الرائحة بعد دلكها بالأرض أو غسلها بمطهر آخر.

٣- يتعين أن ينوي بغسل فرجه ابتداء الجنابة لئلا يحتاج إلى غسله مرة أخرى.

٤- في الحديث الأول ذكر أنه توضأ وضوء الصلاة، ويقتضي أنه غسل رجليه. وهذا الحديث صرح أنه غسل رجليه بعد غسل الجسد.

ولعل أحسن ما يجمع بينهما أن يقال: إنه توضأ في حديث ميمونة وضوءاً كاملا، ولكنه غسل رجليه مرة ثانية بعد غسل الجسد في مكان آخر لكون المكان المغتسل فيه متلوثا.

٥- في هذا الحديث أن ميمونة جاءته بخرقة لينشف بها أعضاءه، فلم يقبلها وإنما نفض يديه من الماء.

٦- أنه لا يجب دَلكُ الجسد في الغُسل. وهو كالدلك في الوضوء سنة.

٧- أنه لا يغسل أعضاء الوضوء للجنابة بعد غسلها في الوضوء. فقد صحح النووي أنه يجزئ غسلة واحدة عن الوضوء وعن الجنابة.

٨- أن غسل الجسد مرة واحدة وبعضهم يجعله ثلاثا، قياساً على الوضوء، ولا قياس مع النص هذا اختيار شيخ الإسلام " ابن تيمية " وشيخنا " عبد الرحمن السعدي " وأحد الوجهين في مذهب أحمد.

حكم من ينام جنب

الحديث الحادي والثلاثون

عَنْ عَبْدِ الله بن عُمَرَ أن عمر بن الخَطَّابِ رضيَ الله عَنْهُ قَالَ: يَا رَسُولَ الله أيَرْقُدُ أحدنا وَهُوَ جُنُب؟ قالَ: " نعم " إذَا تَوَضَأ أحَدُكُم فَلْيَرْقُد.

المعنى الإجمالى:

كان الحدث من الجنابة عندهم كبيراً، لذا أشكل عليهم هل يجوز النوم بعده أو لا؟.

فسأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه النبي ﷺ: إن أصابت أحدهم الجنابة من أول الليل، فهل يرقد وهو جنب؟

فأذن لهم ﷺ بذلك، على أن يخفف هذا الحدث الأكبر بالوضوء الشرعي، وحينئذ لا بأس من النوم مع الجنابة.

ما يؤخذ من الحديث:

١- جواز نوم الجنب قبل الغسل إذا توضأ.

٢- أن الكمال أن لا ينام الجنب حتى يغتسل، لأن الاكتفاء بالوضوء رخصة.

٣- مشروعيةَ الوضوء قبل النوم للجنب، إذ لم يغتسل.

٤- كراهة نوم الجنب بلا غسل ولا وضوء.

حكم احتلام المرأة

الحديث الثاني والثلاثون

عَنْ أم سَلَمَةَ زَوْج النبي ﷺ قَالتْ: جَاءَتْ أم سُلَيْمٍ امْرَأةُ أبي طَلحَةَ إلَى رَسُول الله ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ الله، إن الله لا يستحي مِنَ الْحَق هَل عَلى المَرأةِ مِنْ غُسْل إذَا هي احْتَلَمَتْ؟ فَقَالَ رَسُول الله صلى الله عليه وسلم: "نَعَمْ، إذَا هِيَ رَأتِ الْمَاءَ"

المعنى الإجمالي:

جاءت أم سليم الأنصارية إلى النبي ﷺ لتسأله.

ولما كان سؤالها مما يتعلق بالفروج، وهى مما يستحيا من ذكره عادة قدمت بين يدي سؤالها تمهيداً لالقاء سؤالها حتى يخف موقعه على السامعين، فقالت: إن الله جل وعَلا وهو الحق، لا يمتنع من ذكر الحق الذي يستحيا من ذِكره من أجل الحياء، مادام في ذكره فائدة.

فلما ذكرت أم سليم هذه المقدمة التي لطفت بها سؤالها، دخلت في صميم الموضوع، فقالت: هل على المرأة غسل إذا هي تخيلت في المنام أنها تجامع؟.

فقال النبي ﷺ: نعم، عليها الغسل، إذا هي رأت نزول ماء الشهوة.

ما يؤخذ من الحديث:

١- أن المرأة عليها الغسل حين تحتلم، إذا أنزلت ورأت الماء.

٢- أن المرأة تُنْزِل كما يُنْزِلُ الرجل، ومن ذاك يكون الشبه في الولد، كما أشار إلى هذا بقية الحديث.

٣- إثبات صفة الحياء لله جلّ وعلا، إثباتا يليق بجلاله، على أنه لا يمتنع تعالى من قول الحق لأجل الحياء.

قَال ابن القيم في البدائع: إن صفات السلب المحض لا تدخل في أوصافه تعالى، إلا إذا تضمنت ثبوتا، وكذلك الإخبار عنه بالسلب، كقوله تعالى: "لا تأخذه سنة ولا نوم" فإنه يتضمن كمال حياته وقيوميته. ا. هـ.

٤- أن الحياء لا ينبغي أن يمنع من تعلُّم العلم، حتى في المسائل التي يستحيا مهنا.

٥- أن من الأدب وحسن المخاطبة، أن يقدم أمام الكلام الذي يستحيا منه مقدمة تناسب المقام، تمهيدا للكلام، ليخف وقعه، ولئلا ينسب صاحبه إلى الجفاء.

بيان حكم المنى

الحديث الثالث الثلاثون

عن عَائِشَة قَالَتْ: كنتُ أغْسِل الْجَنَابَةَ مَنْ ثَوبِ رَسولِ الله ﷺ فيخرج إلى الصلاةِ وإن بُقَعَ الْمَاءِ في ثَوْبِهِ.

وفِي لفظ مسلم "لقد كُنْتُ أفرُكهُ مِن ثَوْبِ رَسولَ الله ﷺ فَركًا فيصَلي فِيهِ."

المعنى الإجمالى:

تذكر عائشة رضي الله عنها: أنه كان يصيب ثوب رسول الله ﷺ المَنِى من الجنابة.

فتارة يكون رَطْباً فتغسله من الثوب بالماء، فيخرج إلى الصلاة، والماء لم يجف من الثوب.

وتارة أخرى، يكون المَنِيُّ يابساً، وحينئذ تفركه من ثوبه فَركاً، فيصلى فيه.

اختلاف العلماء:

اختلف العلماء في نجاسة المني.

فذهبت الحنفية، والمالكية إلى نجاسته. مستدلين بأحاديث غسله من ثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومنها هذا الحديث الذي معنا.

وذهب الشافعي، وأحمد، وأهل الحديث، وابن حزم، وشيخ الإسلام " ابن تيمية " وغيرهم من المحققين، إلى طهارته، مستدلين بأدلة كثيرة منها ما يأتي:

١- صحة أحاديث فرك عائشة المنى من ثوب رسول الله ﷺ إذا كان يابساً، بظفرها، فلو كان نجسا، لما كفى إلا الماء، كسائر النجاسات.

٢- أن المني هو أصل الإنسان ومعدنه، فلا ينبغي أن يكون أصله نجساً خبيثاً، والله كرمه وطهره.

٣- لم يأمر النبي ﷺ بغسله والتحرز منه، كالبول.

٤- أجابوا عن أحاديث غسله، بأن الغسل لا يدل على النجاسة، كما أن غسل المخاط ونحوه، لا يدل على نجاسته.

والنظافة من النجاسات والمستقذرات، مطلوبة شرعا. فكيف لا يقر غسله ﷺ.

ما يؤخذ من الحديث:

١- طهارة المني، وعدم وجوب غسله من البدن والثياب وغيرها.

٢- استحباب إزالته عن الثوب والبدن فيغسل رطباً، ويفرك يابساً.

بيان أن الجماع يوجب الغسل سواء حصل معه إنزال أم لم ينزل

الحديث الرابع والثلاثون

عَنْ أبى هُريرة رضي الله عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قالَ " إِذَا جَلَسَ بَيْنَ شُعَبِها الأَرْبَعِ، ثم جَهَدَهَا وَجَبَ الغُسْلُ " وفي لفظ لمسلم " وَإِن لَمْ يُنْزل"

غريب الحديث:

١- " شعبها الأربع": يريد بذلك يديها ورجليها، وهو كناية عن الجماع.

٢- " ثم جهدها": بفتح الجيم والهاء، معناه: بلغ المشقة بكدها، وهو كناية عن الإيلاج.

المعنى الإجمالى:

يقول النبي ﷺ ما معناه: إذا جلس الرجل بين شعب المرأة الأربع اللائي هن اليدان والرجلان، ثم أولج ذَكَره في فرج المرأة، فقد وجب عليهما الغسل من الجنابة وإن لم يحصل إنزال مَنِيٍّ، لأن الإيلاج وحده، أحد موجبات الغسل.

ما يؤخذ من الحديث:

١- وجوب الغسل من إيلاج الذَّكَرِ في الفرج، وإن لم يحصل إنزال.

٢- يكون هذا الحديث ناسخاً لحديث أبي سعيد (الماء من الماء) المفهوم منه بطريق الحصر، أنه لا غسل إلا من إنزال المَنى.

بيان مقدار الماء الذي يكفى للغسل من الجنابة

الحديث الخامس والثلاثون

عَنْ أبي جَعْفَر مُحَمَدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ الْحُسيْنِ بْنِ عَلِي بْنِ أبي طَالِب رَضِيَ الله عَنْهُمْ أَنَّهُ كَانَ هُوَ وَأَبُوهُ عنْدَ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله وَعِنْدَهُ قَوْمٌ، فسألوه عَنْ الْغُسْلِ فَقَالَ: يَكْفِيكَ صَاعة[1]

فَقَالَ رَجُلٌ: مَا يَكْفِيني. فَقَال جَابر: كَانَ يَكْفِى مَنْ هُوِ أَوْفَرُ مِنْكَ شَعَراً وَخَير مِنْكَ يُريدُ رَسُولَ اللهَ ﷺ ثُمَّ أَمَّنَا فِي ثوْبٍ. وفي لفظ " كَانَ النبي ﷺ يُفرِغ المَاءَ عَلى رَأسِهِ ثَلاثَا"

قال المصنف: الرجل الذي قال: " مَا يَكفينِي" هو الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أبوه محمد بن الحنفية.

المعنى الإجمالى:

كان أبو جعفر وأبوه عند الصحابي الجليل جابر بن عبد الله وعنده قوم، فسأل القوم جابرا عما يكفى من الماء في غُسل الجنابة فقال: يكفيك صاع.

وكان الحسن بن محمد بن الحنفية مع القوم عند جابر، فقال: إن هذا القدر لا يكفيني للغسل من الجنابة.

فقال جابر: كان يكفى من هو أوفر وأكثف منك شعراً، وخير منك، فيكون أحرص منك على طهارته ودينه يعنى النبي ﷺ.

ثم بعد أن اغتسل بهذا الصاع أَمَّنَا في الصلاة، مما يدل على أنه تطهر بهذا الصاع الطهارة الكافية.

ما يؤخذ من الحديث:

١- وجوب الغسل من الجنابة، وذلك بإفاضة الماء على العضو، وسيلانه عليه. فمتى حصل ذلك تأدى الواجب.

٢- قال في بداية المجتهد، لا يستدل به على لزوم الدلك ولا على عدمه.

٣-أن الصاع الذي هو أربعة أمداد، يكفى للغسل من الجنابة. قال ابن دقيق العيد: وليس ذلك على سبيل التحديد، فقد دلت الأحاديث على مقادير مختلفة، وذلك والله أعلم لاختلاف الأوقات أو الحالات،

---

[1] المراد هنا بالصاع، الصاع النبوي وهو أقل من كيلة الحجاز، وصاع نحد بالخمس وخمس الخمس لأن زنة الصاع النبوي ثمانون ريلا فرنسياً، والكيلة الحجازية والصاع النجدي، مائة وأربع ريلات اهـ شارح.

كقلة الماء وكثرته، والسفر والحضر.

٤- استحباب التخفيف في ماء الطهارة.

٥- الإنكار على من يخالف سنة النبي ﷺ.

بَابُ التيمّم

التيمم في اللغة: القصد، قال تعالى: {وَلاَ آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ}.

ثم نقل في عرف الفقهاء إلى مسح الوجه واليدين، بشيء من الصعيد، لأن الماسح. قصد إلى الصعيد. وقد عرفه بعض العلماء بقوله: طهارة ترابية تشتمل على مسح الوجه واليدين عند عدم الماء أو عدم القدرة على استعماله.

وهو من خصائص هذه الأمة المحمدية التي يسر الله أمورها، وسهَّل عليها شريعتها، وجعل لها من الحرج فرجا، ومن الضيق مخرجا، وطهر باطنها وظاهرها، بركة هذا النبي الكريم ﷺ.

فإن من عدم الماء الذي هو أحد أصلي الحياة تعوض عنه بالأصل الثاني الذي هو التراب، لئلا يفقد الطهارة إطلاقا، فإن طهارة الماء تطهر الظاهر والباطن.

فإذا عدمت هذه الأداة الكاملة، رجعنا إلى صورة الطهارة بأداة التراب، لتحصل الطهارة الباطنة.

فلا شك في حكمته، ولا ريب في فائدته، لمن رُزق السعادة في الفهم.

وهو ثابت في الكتاب العزيز، والسنة المطهرة، وإجماع الأمة المحمدية المهدِيَّةِ ويقتضيه القياس الصحيح.

الحديث السادس والثلاثون

عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَين رَضيَ الله عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ رَأى رَجُلا مُعْتَزِلا لَمْ يُصَلِّ في القَوْم فقالَ: "يَافُلان مَا مَنَعَك أنْ تُصَلِّيَ في الْقَوْم؟ " فقال يَا رَسُولَ الله أصابتني جَنَابة وَلا مَاءَ، فقال: عَلَيْكَ بالصعِيدِ فَإنَّهُ يَكْفِيكَ " رواه البخاري [1]

غريب الحديث:

١- " معتزلا": منفرداً عن القوم، متنحيا عنهم، وهو خلاد بن رافع رضى الله عنه، وكان ممن شهد بدراً.

[1] قال الصنعاني: لم أره في مسلم، ولا نبه عليه الزركشي، ولا ابن حجر. ا. هـ.

٢- " الصعيد": وجه الأرض وما علا منها.

المعنى الإجمالى:

صلّى النبي ﷺ بالصحابة صلاة الصبح، فلما فرغ من صلاته رأى رجلا لم يصل معهم.

فكان من كمال لطف النبي ﷺ، وحسن دعوته إلى الله، أنه لم يعنفْهُ على تخلفِه

عن الجماعة، حتى يعلم السبب في ذلك.

فقال: يا فلان، ما منعك أن تصلى مع القوم؟.

فشرح عذره في ظنه للنبي ﷺ بأنه قد أصابته جنابة ولا ماء عنده، فأخر الصلاة حتى يجد الماء ويتطهر.

فقال ﷺ إن الله تعالى قد جعل لك من لطفه ما يقوم مقام الماء في التطهر، وهو الصعيد، فعليك به، فإنه يكفيك عن الماء.

ما يؤخذ من الحديث:

١- التيمم ينوب مناب الغسل في التطهير من الجنابة.

٢- أن التيمم لا يكون إلا لعادم الماء أو المتضرر باستعماله وقد بسط الرجل عذره وهو عدم الماء، فأقره النبي ﷺ على ذلك.

٣- لا ينبغي لمن رأى مقصرا في عمل، أن يبادره بالتعنيف أو اللوم، حتى يستوضح عن السبب في ذلك، فلعل له عذراً، وأنت تلوم.

٤- جواز الاجتهاد في مسائل العلم بحضرة النبي ﷺ، فقد ظن الصحابي أن من أصابته الجنابة لا يصلى حتى يجد الماء، وانصرف ذهنه إلى أن آية التيمم خاصة بالحدث الأصغر.

كيفية التيمم

الحديث السابع والثلاثون

عَنْ عمار بن يَاسِر رَضِيَ الله عَنْهُمَا قَال: بَعَثَنِي رَسُولُ اللَه ﷺ فِي حَاجَةٍ فَأَجْنَبْتُ فَلَمْ أجدِ الْمَاءَ فَتَمَرغْتُ فِي الصعِيدِ كمَا تَمَرَغُ الدَّابة ثمَّ أتيْتُ النَّبيَّ ﷺ فَذَكَرْتُ ذلِكَ لَهُ فَقَالَ: " إنَّما كان يَكْفِيكَ أن تَقولَ بِيَدَيْكَ هكَذَا " ثمَّ ضَرَبَ بيَدَيْهِ الأرْض ضَرْبَةً وَاحِدَةً، ثُم مَسَح الشِّمَالَ عَلى الْيَمِينِ وَظَاهِرَ كَفَيهِ ووَجهَهُ.

غريب الحديث:

١- " فتمرغت في الصعيد": تقلب في الأرض حتى عمَّ بدنه التراب.

٢- " أن تقول بيديك": يراد بالقول الفعل، وهو كثير في لسان الشرع ولغة العرب.

المعنى الإجمالى:

بعث النبي ﷺ "عمار بن ياسر" في سفر لبعض حاجاته، فأصابته جنابة، فلم يجد الماء ليغتسل منه، وكان لا يعلم حكم التيمم للجنابة، وإنما يعلم حكمه للحدث الأصغر. فاجتهد وظن أنه كما مسح بالصعيد بعض أعضاء الوضوء عن الحدث الأصغر، فلابد أن يكون التيمم من الجنابة بتعميم البدن بالصعيد، قياسا على الماء، فتقلَّب في الصعيد حتى عمه البدن وصلَّى.

فلما جاء إلى النبي ﷺ، وكان في نفسه مما عمله شيء، لأنه عن اجتهاد منه، ذكر له ذلك، ليرى، هل هو على صواب أو لا؟.

فقال النبي ﷺ: يكفيك عن تعميم بدنك كله بالتراب أن تضرب بيديك الأرض، ضربة واحدة، ثم تمسح شمالك على يمينك، وظاهر كفيك ووجهك.

اختلاف العلماء:

اختلف العلماء: هل يجزئ في التيمم ضربة واحدة للوجه والكفين أو لابد من ضربتين؟ وهل لابد من المسح على اليدين إلى المرفقين.

فذهب بعضهم ومنهم الشافعي إلى أنه لابد من ضربتين.، واحدة للوجه والأخرى لليدين إلى المرفقين، محتجين بأحاديث.

منها ما رواه الدارقطني عن ابن عمر "التيمم مرتان، ضَرْبَة للوجه وَضَربة لليَدَيْن إِلَى المِرفَقَيْنِ."

وذهب الجمهور، ومنهم الإمام أحمد، والأوزاعى، وإسحاق، وأهل الحديث: إلى أن التيمم ضربة واحدة، وأنه لا يمسح بها إلا الوجه والكفان مستدلين بأحاديث صحيحة، منها حديث. عمار هذا. قال ابن حجر: وكان عمار يفتي به بعد زمن النبي ﷺ والراوي للحديث أعرف بمراده.

وأجابوا عن أحاديث الضربتين والمرفقين، بما فيها من المقال المشهور.

ولا نجعل تلك الأحاديث في صف الأحاديث الصحاح الواضحة. قال ابن عبد البر: أكثر الآثار المرفوعة عن عمار ضربة واحدة. وما روي من ضربتين فكلها مضطربة. وقال ابن دقيق العيد: ورد في حديث التيمم ضربتان، ضربة للوجه، وضربة لليدين، إلا أنه لا يقاوم هذا الحديث في الصحة، ولا يعارض مثله بمثله. وقال الخطابي: ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن التيمم ضربة واحدة للوجه والكفين، وهذا المذهب أصح في الرواية.

ما يؤخذ من الحديث:

١- التيمم للغسل من الجنابة.

٢- أنه لابد من طلب الماء قبل التيمم.

٣- صفة التيمم، وهو ضرب الأرض مرة واحدة، ثم مسح الوجه واليدين إلى المرفقين وتعميمها بالمسح. قال ابن رشد: إطلاق اسم اليد على الكف أظهر من إطلاقه على الكف والساعد.

٤- ذكر الصنعانى أن العطف في روايات هذا الحديث قد جاء بالواو وتفيد العطف مطلق وجاء بالفاء وثم وتفيدان الترتيب والترتيب زيادة، والزيادة من العدل مقبولة فيحمل مجموع ما في الصحيحين على الترتيب. ولم يرد عن النبي ﷺ تقديم اليدين على الوجه لا قولا ولا فعلا.

٥- أن التيمم للحدث الأكبر، كالتيمم للحدث الأصغر، في الصفة والأحكام.

٦- الاجتهاد في مسائل العبادات.

٧- أن المجتهد إذا أدَّاه اجتهاده إلى غير الصواب، وفعل العبادة، ثم تبين له الصواب بعد ذلك فإنه لا يعيد تلك العبادة.

بيان الأمور الخمسة التي خص بها النبي ﷺ

الحديث الثامن والثلاثون

عَنْ جَابِرِ بنِ عَبْدِ الله رَضيَ الله عَنْهُمَا: أنَّ النبي ﷺ قَالَ: "أُعْطِيتُ خَمْسَا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الأنبياء، قبلي:

(١) نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْر

(٢) وَجُعِلَت لي الأرض مسجدا وطَهُوراً فَأَيُمَا رَجُل مِنْ أمتِي أدْرَكَتْهُ الصلاةُ فَلْيُصَل.

(٣) وأحِلَّتْ لي الغنائمُ، لَمْ تَحلَّ لأحَد قَبلي.

(٤) وَأعْطيتُ الشفَاعَةَ.

(٥) وَكَانَ النبيُّ يُبْعَثُ[1] إِلى قَوْمِه خَاصَّةً: بُعِثْتُ إِلى النَاس كَافّةً".

غريب الحديث:

١- " لم تحل": يجوز ضم التاء وفتح الحاء، على البناء للمفعول، ويجوز فتح التاء وكسر الحاء على البناء للفاعل، وهو أكثر، قاله الشيخ نور الدين الهاشمي.

المعنى الإجمالى:

خص نبينا ﷺ عن سائر الأنبياء بخصال شرف، ومُيِّزَ بمحامد لم تكن لمن قبله من الأنبياء عليهم السلام، فنال هذه الأمة المحمدية ببركة هذا النبي الكريم الميمون شيء من هذه الفضائل والمكارم.

فمن ذلك: ما ثبت في هذا الحديث من هذه الخصال الخمس الكريمة:

أولها: أن الله سبحانه تعالى نصره، وأيده على أعدائه، بالرعب، الذي يحل بأعدائه، فيوهن قواهم، ويضعضع كيانهم، ويفرق صفوفهم، ويقل جمعهم،

ولو كان النبي ﷺ على مسيرة شهر منهم، تأييداً من الله ونصراً لنبيه وخذلانا وهزيمة لأعداء دينه، ولا شك أنها إعانة كبيرة من الله تعالى.

ثانيها: أن الله سبحانه تعالى وسّع على هذا النبي الكريم، وأمته المرحومة بأن جعل لها الأرض مسجداً. فأينما تدركهم الصلاة فليصلوا، فلا تتقيد بأمكنة مخصوصة، كما كان من قبلهم لا يؤدون عباداتهم إلا في الكنائس، أو البِيَع، وهكذا فإن الله رفع الحرج والضيق عن هذه الأمة، فضلا منه وإحسانا، وكرما وامتنانا.

وكذاك كان من قبل هذه الأمة، لا يطهرهم إلا الماء، وهذه الأمة جعل التراب لمن لم يجد الماء طهورا. ومثله العاجز عن استعماله لضرره.

---

[1] قوله: وبعثت إلى الناس كافة، هذا اللفظ للبخاري ولم يروه مسلم كذلك وإنما رواه بلفظ (وبعثت إلى كل أحمر وأسود

ثالثها: أن الغنائم التي تؤخذ من الكفار والمقاتلين، حلال لهذا النبي ﷺ وأمته، يقتسمونها على ما بين الله تعالى، بعد أن كانت محرمة على الأنبياء السابقين وأممهم، حيث كانوا يجمعونها، فإن قبلت، نزلت عليها نار من السماء فأحرقتها.

رابعها: أن الله سبحانه وتعالى، خصه بالمقام المحمود، والشفاعة العظمى، يوم يتأخر عنها أولو العزم من الرسل في عرصات القيامة، فيقول: أنا لها، ويسجد تحت العرش، ويمجد الله تعالى بما هو أهله، فيقال: اشفع تُشفع، وسل تعطَه.

حينئذ يسأل الله الشفاعة للخلائق بالفصل بينهم في هذا المقام الطويل.

فهذا هو المَقام المحمود الذي يغبطه عليه الأولون والآخرون.

خامسها: أن كل نبي من الأنبياء السابقين تختص دعوتهم بقومهم.

وقد جعل اللهُ تعالى في هذا النبي العظيم، وفى رسالته السامية الصلاحية والشمول، لأن تكون الدستور الخالد، والقانون الباقي لجميع البشر، على اختلاف أجناسهم، وتبايُن أصنافهم، وتباعد أقطارهم، فهي الشريعة الصالحة لكل زمان ومكان، ولما كانت بهذه الصلاحية والسمُوَ، كانت هي الأخيرة،، لأنها لا تحتاج إلى زيادة ولا فيها نقص.

وجعلت شاملة، لما فيها من عناصر البقاء والخلود.

ما يؤخذ من الحديث:

هذا حديث عظيم، وفيه فوائد جمة، ونقتصر على البارزة منها:

١- تفضيل نبينا ﷺ على سائر الأنبياء، وتفضيل أمته على سائر الأمم.

٢- تعديد نِعَم الله على العبد، وإن ذكرها على وجه الشكر لله، وذكر آلائه يُعَدُّ عبادة، شكرًا لله.

٣- كونه ﷺ نُصِرَ بالرعب، وأحلت له الغنائم، وبعث إلى الناس عامة، وأعطي الشفاعة، وجعلت الأرض له ولأمته مسجداً وطهوراً، كل هذا من خصائصه. وقد عدت خصائصه فكانت سبع عشرة خصلة، وهى عند الصنعاني إحدى وعشرون ومن تتبع الجامعين الصغير والكبير وجد زيادة على هذا العدد...

٤- أن صحة الصلاة لا تختص ببقعة دون أخرى.

٥- أن الأصل في الأرض الطهارة للصلاة والتيمم.

٦- أن كل أرض صالحة ليتيمم منها.

٧- سعة هذه الشريعة وعظمتها، لذا جعلت لتنظيم العالم كله في عباداته ومعاملاته، على اختلاف أمصاره، وتباعد أقطاره.

٨- قوله: " أيما رجل " لا يراد به جنس الرجال وحده، وإنما يراد أمثاله من النساء أيضا، لأن النساء شقائق الرجال.

٩- قال الصنعاني: إنما خص مسافة الشهر، دون مسافة أبعد منه، لأنه لم يكن بينه وبين من أظهر العداوة له أكثر من ذلك.

بَابُ الحَيْض

الحيض: دم، جعله الله تعالى من رحمته وحكمته في رحم المرأة، غذاءً لجنينها فإذا وضعت، تحوّل إلى لبن، لغذاء طفلها.

فإذا كانت غير حامل ولا مرضع، برز الزائد منه في أوقات معلومة. لهذا يندر أن تحيض الحامل، أو المرضع.

ويتعلق بخروجه أحكام في العبادات وغيرها.

الحديث التاسع والثلاثون

عَن عَائِشَةَ رَضيَ الله عَنْهَا: أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ أبي حُبَيْش سَألتِ النَّبيَّ ﷺ ، فقالت: إِني أُسْتَحَاضُ فلا أطْهُرُ، أَفَأَدَعُ الصَّلاةَ؟

قالَ: لا، إنَّ ذَلِك عِرْق، وَلَكن دَعِي الصَّلاةَ قَدْرَ الأيام، الَّتي كُنْتِ تَحِيضِينَ فِيهَا، ثُمَّ اغتَسِلي وَصَلي.

وفي رواية " وَلَيْسَتْ بِالْحيْضَةِ، فإذا أقْبَلَت الْحيْضَةُ فاتركي الصَلاةَ، فإذا ذَهب قَدْرُهَا فاغسلي عَنْكِ الدَّمَ وَصَلِّي "[1]

---

[1] قال الصنعاني: لفق الشيخ عبد الغنى رحمه الله هذا الحديث من أبواب في البخاري يعسر على الناظر تتبعها.

غريب الحديث:

١- " ذلكِ ": بكسر الكاف، خطاباً للمرأة السائلة.

٢- " عِرْق ": أي عرق انفجر، كما جاء في إحدى الروايات. ويقال لهذا العرق: العاذل. وهو في أدنى الرحم دون قعره، ودم الحيض يخرج من قعر الرحم.

٣- " إذا أقبلت الحيضة ": قال الخطابي: بكسر الحاء، وغلط من فتحها، لأن المراد الحالة. وجوز القاضي "عياض" وغيره، الفتح، وهو أقوى، لأن المراد الحيض.

٤- ذكر الصنعانى أن " فدعي الصلاة " أولى من " فاتركي الصلاة " لأنه مما اتفقا عليه.

المعنى الإجمالى:

ذكرت " فاطمة " بنت أبي حُبَيْش[١] للنبي ﷺ أن دم الاستحاضة يصيبها، فلا ينقطع عنها، وسألته هل تترك الصلاة لذلك؟

فقال النبي ﷺ: لا تتركي الصلاة، لأن الدم الذي تُترك لأجله الصلاة، هو دم الحيض.

وهذا الدم الذي يصيبك، ليس دم حيض، إنما هو دم عرق منفجر.

وإذا كان الأمر، كما ذكرت من استمرار خروج الدم في أيام حيضتك المعتادة، وفي غيرها، فاتركي الصلاة أيام حيضك المعتادة فقط.

فإذا انقضت، فاغتسلي واغسلي عنك الدم، ثم صلّى، ولو كان دم الاستحاضة معك.

ما يؤخذ من الحديث:

١- الفرق بين دم الاستحاضة وبين دم الحيض فدم الاستحاضة هو المطبق وأما دم الْحيض فله وقت خاص.

٢- أن دم الاستحاضة لا يمنع من الصلاة، وسائر العبادات.

٣- أن دم الحيض، يمنع من الصلاة من غير قضاء لها، وذكر ابن دقيق العيد أن ذلك كالمجمع عليه من الخلف والسلف إلا الخوارج.

---

[١] أبو حبيش هو ابن المطلب بن أسد بن عبد العزى بن قصي، قرشي أسدي

٤- أن المستحاضة التي تعرف قدر عادة حيضها تحسبها، ثم تغتسل بعد انقضائها، لتقوم أيام طهرها بالعبادات التي تتجنبها الحائض.

٥- أن الدم نجس يجب غسله.

٦- أنه لا يجب على المستحاضة تكرار الغسل لكل دخول وقت صلاة.

٧- ذكر ابن دقيق العيد أن قوله " فاغسلي عنك الدم وصلى " مشكل في ظاهره، لأنه لم يذكر الغسل، ولابد فيه بعد انقضاء أيام الحيض من الغسل والجواب الصحيح أن هذه الرواية وإن لم يذكر فيها الغسل فهي متضمنة له لوروده في الرواية الأخرى الصحيحة التي قال فيها: "واغتسلي."

باب حكم المستحاضة

الحديث الأربعون

عَنْ عَائِشَة رَضي الله عَنْهَا أَنَ أَمَّ حَبيبَةَ اسْتُحِيضَتْ سَبْعَ سِنِينَ، فَسَألتْ رَسُولَ الله ﷺ عن ذلكَ فأَمَرَهَا أَنْ تَغْتَسِل فَكَانَتْ تَغْتَسِلُ[1] لكل صَلاةٍ.

المعنى الإجمالى:

أصابت الاستحاضة " أم حبيبة بنت جحش"، سبع سنين، فسألت النبي ﷺ عن كيفية الطهر من ذلك، فأمرها أن تغتسل فكانت تفعل ذلك لكل صلاة.

اختلاف العلماء:

اختلف العلماء في غسل المستحاضة لكل صلاة، هل يجب أو لا؟.

فذهب بعضهم إلى وجوبه، عملا بأحاديث وردت بذلك في بعض السنن.

وذهب الجمهور من السلف ومنهم علي وابن عباس وعائشة والخلف، ومنهم الأئمة أبو حنيفة، ومالك، وأحمد إلى عدم وجوبه، مستدلين بالبراءة الأصلية، وهو أن الأصل عدم الوجوب، وأجابوا عن أحاديث الأمر بالغسل أنه ليس فيها شيء ثابت.

---

[1] غسلها لكل صلاة لم يقع بأمره ﷺ كما بين في رواية مسلم ولفظه: "أمرها أن تغتسل، فكانت تغتسل لكل صلاة". وكذا ذكره الحميدي في "الجمع بين الصحيحين."

وغسل أم حبيبة لكل صلاة، إنما هو من عندها، ليس أمراً من النبي ﷺ لها في كل صلاة، وإنما أمرها بالغسل فقط، كما هو في الروايات الثابتة. وذكر ابن دقيق العيد أنه ليس في الصحيحين ولا أحدهما أنه أمرها بالاغتسال لكل صلاة.

ما يؤخذ من الحديث:

وجوب الغسل على المستحاضة عند انتهاء عدة أيام حيضها.

حكم مباشرة المرأة الحائض

الحديث الحادي والأربعون

عَنْ عَائِشَةَ رَضيَ الله عَنْهَا قَالتْ: كُنْتُ أَغْتَسِل أَنَا ورَسُول الله ﷺ من إنَاء واحِدٍ، كِلانَا جُنُب فَكَانَ يَأمرُني فَأتزرُ[1] فيباشرني وَأَنَا حَائِض، وَكَانَ يُخرِجُ رأسه إلي وَهُوَ معْتكِفٌ فَأغْسِلُهُ وأنا حَائِضٌ.

المعنى الإجمالى:

اشتمل هذا الحديث على ثلاث مسائل:

الأولى: أن النبي ﷺ وزوجته، كانا يغتسلان من الجنابة من إناء واحد، لأن الماء طاهر لا يضره غَرْفُ الجنب منه، إذا كان قد غسل يديه قبل إدخالهما في الإناء.

والثانية: أن النبي ﷺ أراد أن يشرّع لأمته في القرب من الحائض بعد أن كان اليهود لا يؤاكلونها، ولا يضاجعونها. فكان ﷺ يأمر عائشة أن تتَّزر، فيباشرها بما دون الجماع، وهي حائض.

الثالثة: أن الحائض لا تدخل المسجد، لئلا تلوثه.

ولهذا كان النبي ﷺ يخرج إليها في بيتها رأسه، وهو في المسجد فتغسله، مما يدل على أن قرب الحائض، لا مانع منه لمثل هذه الأعمال وقد شرع توسعة بعد حرج اليهود.

ما يؤخذ من الحديث:

١- جواز اغتسال الجنبين من إناء واحد.

---

[1] فأتزر: هكذا في النسخ بألف وتاء مشددة، وهو الدائر على الألسنة

قال المطرزيّ وهو عامي، والصواب "أأتزر" بهمزتين، الأولى للوصل والثانية (فاء) افتعل

وهكذا نص الزمخشري على خطأ من قال. "أتزر" بالإدغام، لأن الفاء التي تدغم في الأفعال هي الأصلية، لا المنقلة عن الهمزة.

٢- جواز مباشرة الحائض فيما دون الفرج. وأن بدنها طاهر لم تحل فيه نجاسة بحيضها.

٣- استحباب لبسها الإزار وقت المباشرة.

٤- اتخاذ الأسباب المانعة من الوقوع في المحرم.

٥- منع دخول الحائض المسجد.

٦- إباحة مباشرتها الأشياء رطبة أو يابسة، ومن ذلك غسل الشعر وترجيله.

٧- أن المعتكف إذا أخرج رأسه من المسجد لا يعد خارجا منه يقاس عليه غيره من الأعضاء، إذا لم يخرج جميع بدنه.

الحديث الثانى والأربعون

عَنْ عَائِشَةَ رَضيَ الله عَنْهَا قَالتْ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَتَّكِئُ في حِجْري وَأنَا حَائِض فَيَقْرأ القرآن.

غريب الحديث:

"يتكئ في حجري" "يتكئ" مهموز.

ويجوز الفتح والكسر في الحاء من "حجري": هما لغتان.

المعنى الإجمالى:

ذكرت عائشة أن النبي ﷺ كان يقرأ القرآن في حجرها وهي حائض، مما يدل على أن بدن الحائض طاهر، لم ينجس بالحيض.

ما يؤخذ من الحديث:

١- جواز قراءة القرآن في حجر الحائض، لأنها طاهرة البدن والثياب.

٢- تحريم قراءة القرآن على الحائض، أخذاً من توهّم امتناع القراءة في حجر الحائض. قاله ابن دقيق العيد.

الحائض لا تقضى الصلاة ولكن تقضى الصوم

الحديث الثالث والأربعون

عَنْ مُعَاذَةَ قالت: سَألْتُ عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا فَقُلْتُ: مَا بالُ الْحَائِضِ تَقْضِي الصَّوْمَ وَلا تَقْضِى الصلاةَ؟

فقالت: أحَرُورِيَّةٌ أنْتِ؟ فَقُلْتُ: لسْتُ بِحَرُورِيَّة. وَلكِنْ أسْألُ.

فَقَالَتْ: كَانَ يُصيبُنَا ذلكَ فنؤمَر بِقَضَاءِ الصَّوْم وَلا نُؤمَرُ بِقَضَاءِ الصَّلاةِ[1].

[1] هذا سياق " مسلم " وأما سياق " البخاري " فبلفظ: " قد كنا نحيض مع النبي صلى الله عليه وسلم، فلا يأمرنا به، أو قالت: فلا يفعله."

غريب الحديث:

"أحرورية أنت" نسبة إلى بلدة قرب الْكوفة، اسمها "حروراء" خرجت منها أول فرقة من الخوارج على عليّ بن أبي طالب، فصار الخوارج يعرفون بالحرورية.

المعنى الإجمالى:

سألت معاذة عائشة عن السبب الذي من أجله جعل الشارع أن الحائض تقضى أيام حيضها التي أفطرتها، ولا تقضى صلواتها زمن الحيض، مع اشتراك العبادتين في الفرضية، بل إن الصلاة أعظم من الصيام.

وكان عدم التفريق بينهما في القضاء، هو مذهب الخوارج المبنى على الشدة الحرج.

فقالت لها عائشة رضي الله عليها: أحرورية أنتِ تعتقدين مثل ما يعتقدون، وتشددِين كما يُشدون؟[1]

فقالت: لست حرورية، ولكنى أسأل سؤال متعلم مسترشد.

فقالت عائشة: كان الحيض يصيبنا زمن النبي ﷺ، وكنا نترك الصيام والصلاة زمنه، فيأمرنا ﷺ بقضاء الصوم ولا يأمرنا بقضاء الصلاة، ولو كان القضاء واجباً، لأمر به ولم يسكت عنه.

فكأنها تقول: كفى بامتثال أوامر الشارع والوقوف عند حدوده حكمة ورشداً.

ما يؤخذ من الحديث:

١- أن الحائض تقضى الصيام ولا تقضي الصلاة، لأن الصلاة تتكرر كل يوم خمس مرات، فهي عبادة مستمرة ويحصل من إعادتها وقضائها مشقة أيضاً.

٢- أن تقرير النبي ﷺ أمته على شيء يعد من السنة.

٣- الإنكار على كل من سأل سؤال تعنت ومجادلة.

٤- تبيين المعلم لمن طلبه للتعلم والاسترشاد.

وليس عند البخاري "فنؤمر بقضاء الصوم."

ولم يذكر " البخاري " أن السائلة: "معاذة"، بل ساقه من جهة قتادة عن معاذة أن امرأةْ ... الخ

[1] الخوارج عرفوا بالشدة والتنطع في الدين. ومن شدتهم أنهم يوجبون على المرأة قضاء الصلاة المتروكة في حيضها ا. هـ شارح

٥- كون الحائض لا تقضي الصلاة لأجل المشقة، من الأدلة التي تقرر القاعدة الإسلامية العامة وهى (إن المشقة تجلب التيسر.

العقيدة

شرح العقيدة الواسطية

المقدمة

أيها الإخوة الأحباب الكرام؛ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فهذا شرح للعقيدة الواسطية التي كتبها شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيميَّة، وكُتُب العقيدة تدور كلها حول أركان الإيمان الستة "أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، ومَلائِكَتِهِ، وكِتابِهِ، ولِقائِهِ، ورُسُلِهِ، وتُؤْمِنَ بالبَعْثِ، وتُؤْمِنَ بالقَدَرِ كُلِّهِ"[1]، وإن أكثر ما كتب علماء المسلمين في أمر الاعتقاد، وإن أكثر ما اختصروا؛ وأكثر ما شرحوا وبسطوا كان في أمر الاعتقاد؛ فتجد ممن كتب في الاعتقاد في وريقات بل أسطر؛ وكتب فيها الأئمة الكبار؛ فتجد للشافعي بل وللكثير من تلامذته اعتقادًا مختصرًا مبسطًا، ولأحمد بن حنبل وللكثير من منتسبيه اعتقادًا مبسطًا مختصرًا، وتجد للأئمة من بعدهم كذلك، وتجد لهم ردودًا على مسائل بعينها في كتب معينة مبسوطة مطولة، فتجد مثلًا: أن الذهبي كتب كتابًا باسم: (العلو للعلي الغفار)؛ لإثبات **صفة العلو**، وتجد أن حول هذه الصفة أيضًا دار ابن القيم في كتابه: (اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية)، وتجد من صنف الكتب في مسألة: الإيمان يزيد وينقص، التي خالف فيها أهل السنة المعتزلة، وخالف فيها المرجئة، وخالف فيها الخوارج ولذلك؛ فإنك إذا نظرت في كتاب الإيمان في صحيح البخاري، وجدتَ أن أهم قضية دارت حولها نصوصُ أحاديثِ هذا الكتاب؛ هي قضية: "أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية"؛ ليرد بها على المعتزلة، وعلى المرجئة، وعلى الخوارج، والخوارج قالوا: إن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، ولكن العاصي بمعصيته يخرج من الإيمان بالكلية ويدخل في الكفر، والمرجئة قالوا بعكسهم: قالوا: إن المعاصي لا تضر الإيمان ولا تؤثر فيه، ولكن إيمان أفسق الفاسقين كإيمان الأنبياء والمرسلين، وأما المعتزلة فكانوا دائمًا كموقفهم المتميع، قالوا: بأن العاصي أو الفاسق من أهل القبلة بمنزلة بين المنزلتين، لا هو مؤمن ولا هو كافر، ثم لما جاءوا في الآخرة وافقوا الخوارج في جعل هذا الفاسق يدخل النار.

أهم الكتب الجامعة لعقيدة السلف.

فكتب الاعتقاد كثيرة؛ لكنها إما أن تختص بمسألة معينة تُفصِّلها في أمر الاعتقاد وتُجمِل بقيتها، وإما أن تجمع مسائل الاعتقاد جمعًا متساويًا بغير إجمال أو تفصيل، فأريد أن أشير إلى ثلاثة كتب من كتب الاعتقاد كنموذج لهذا الكلام: كتاب (فتح المجيد شرح كتاب التوحيد)، وكتاب (شرح العقيدة الطحاوية)، وكتاب (العقيدة الواسطية).

وكتاب (شرح العقيدة الطحاوية) للعز الحنفي مثالٌ لكتابٍ: جمع مسائل الاعتقاد كلها من أولها إلى آخرها، بغير أن يَبسط مسألة أكثر من المسائل الأخرى، أما نفس العقيدة الطحاوية فأصلها للطحاوي، وهي مختصرة، كمثال من المختصرات التي وضعها على هيئة فقرات يتكلم فيها عن أمر الاعتقاد، فالدارس لشرح كتاب العقيدة الطحاوية يدرس

---

[1] أخرجه مسلم (١٠)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

مسائل الاعتقاد كلِها بتفصيلٍ مناسب لا هو مختصر ولا هو مطول، إلا أن العقيدة الطحاوية -لأنها ترجع إلى متن أصلي- فالشارح أحيانًا يُعيد المسألة -يعني يتكلم عن عقيدة أهل السنة في الصحابة -مرة في أول الكتاب ومرة في وسطه ومرة في آخره، يتعرض لمسألة القدر أكثر من مرة في الكتاب، فتجد الشرح يسير على هذا المنوال؛ لذا، احتاج هذا الكتاب إلى أن يهذبه بعض أهل العلم بحيث يجمعوا كل مسألة من المسائل في جانب، فالكتاب من الكتب الجليلة الهامة في الكلام على أمر الاعتقاد وبيانه.

أما كتاب فتح المجيد: فقد أَجمل في بدايته أمر الاعتقاد إجمالًا شديدًا، ثم بسط فيه المخالفات الواقعة في أمر الاعتقاد، فتكلم عن الشركيات، والرياء، ودعاء غير الله، وحماية جناب التوحيد من مظاهر الشرك، وبناء المساجد على القبور، ودعاء المقبورين.

وكان سبب تصنيف كتاب فتح المجيد للشيخ: عبد الرحمن بن حسن، أن الشيخ سليمان بن عبد الله كان يُصنف كتاب "تيسير العزيز الحميد"، ثم قُتِلَ الشيخ سليمان بن عبد الله قبل أن يُتم كتابه تيسير العزيز الحميد، وكان عبد الرحمن بن حسن قد صنف كتابًا في شرح كتاب التوحيد، سماه: قرة عيون الموحدين، وهو كتاب ليس بالكتاب المطول، بل قصير مختصر، فلما مات الشيخ سليمان بن عبد الله ووجد الشيخ عبد الرحمن بن حسن أن هذا الجزء الذي شرحه الشيخ سليمان بن عبد الله مفصلًا وجيدًا، فهذبه، ثم أكمل الكتاب وسماه: "فتح المجيد"، كأن كتاب فتح المجيد وإن كان شرحًا لكتاب التوحيد، إلا أنه في الجزء الأغلب منه تهذيب لكتاب تيسير العزيز الحميد؛ ولذلك أحيانًا تجد الشيخ عبد الرحمن بن حسن يقول: قال الشارح:.... من الشارح؟ يقصد بالشارح: سليمان بن عبد الله الذي صنف كتاب تيسير العزيز الحميد وهذا الكتاب يا إخواني نوصي بقراءته بتأني؛ لأن فيه الفوائد العظيمة التي يقع في مخالفتها الكثير من الناس.

أما كتاب العقيدة الوسطية، فقد اعتنى بإثبات صفات الله عز وجل، وأجمل بقية أمر الاعتقاد، فقد أجمل جزءًا في أوله وجزءًا في آخره، والكتاب بطوله اعتنى بإثبات صفات الله عز وجل؛ لأنها هي التي وقعت فيها المخالفات من كثير من الفرق من الجهمية، ومن المعتزلة، ومن فرق المرجئة كالأشاعرة والماتردية.

أهميَّة العقيدة الواسطية بين العقائد السَّلفيّة:

ولو تدبرنا هذه المسألة؛ لماذا اعتنى صاحب العقيدة الواسطية بتفصيل أسماء الله عز وجل وصفاته؟ لعرفنا أن التعرف على الله هو أصلُ كلِ خير، يعني: عندما نرى رجلًا مثلًا يفعل أمر معصية، نقول: يا أخي خف الله، فكيف يخاف الله مَن لا يعرفه؟ إذًا لا بد أن يعرفه حتى يخافه، عندما نرى قانطًا من رحمة الله، يقول: يا أخي ارغب فيما عند الله، فالله رؤوف رحيم، عندما نرى رجلًا صاحب صفات حسنة، نقول: هذا رجل يعرف ربه، أو نصفه ونقول: العارف بالله.[1]

وفي الحديث: "إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَة وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَة إِلّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّة"[2].

وفي بعض الروايات: "كلها في القرآن"[1].

---

[1] كلمة: (العارف بالله) هذه وإن كانت كلمة دَرجت على ألسنة المبتدعة، إلا أنها كلمة صحيحة المقصد، وليست في أصلها كلمة مبتدعة؛ لكن المبتدعة أطلقوها على أئمتهم.

[2] أخرجه البخاري (٢٧٣٦)، مسلم (٢٦٧٧).

فكلمة أحصاها تعني: عرفها وتدبر معانيها وعمل بمقتضاها وهذا معنى العرفان، معنى معرفة الله عز وجل، والرسل جميعًا إنما جاءوا يعرفوا الناس بالله رب العالمين.

وانتبه: إلى أن كلمة (إن الله عرفوه بالعقل) لا تستطيع أن تردها بالكلية، ولكن قبولها بالكلية أمرٌ غير صواب؛ لأن الله ما أرسل الرسل إلا ليُعرِّفوا بالله رب العالمين، وما أنزل الكتب، ولا بعثَ الوحي إلا لِيعرف بالله رب العالمين، إذًا (فالله عرفوه بالعقل) يعني عرفوا وجوده، كما قال الأعرابي: سماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، ألا يدل ذلك على السميع البصير؟

إذًا دل على وجوده، بل ويدل على بعض صفاته؛ لكن الذي يعرفنا بالله هم الأنبياء والرسل؛ لذلك لا تَكمل معرفة عبدٍ بربه إلا بطريق رسالة وبطريق رسول جاء بدينٍ من عند الله رب العالمين، هذا يجعلنا نلتفت ونتنبه إلى أن دراسة هذا الكتاب –دراسة كتاب العقيدة الواسطية –سيُعنى بأن يعرفنا بالله؛ لأن أصحاب المناهج الباطلة منهم مَن حرَّف، ومنهم مَن عطَّل، ومنهم مَن شبَّه، ومنهم مَن مثَّل، وهذه طرق أهل البدع في أسماء الله عز وجل وصفاته.

طرق أهل البدع في أسماء الله عز وجل وصفاته:

التحريف: والتحريف على نوعين: تحريف الكلمة، أو تحريف المعنى.

تحريف الكلمة: كما جاء في قول الله عز وجل: {ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ}[٢] فقال أهل البدع: استولى، فجعلوا الكلمة وأضافوا إليها لامًا (استولى).

وتحريف المعنى: هو تحريف معنى الكلمة، يعني العين في قوله تعالى: {تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا}[٣] يقولون: العين تعني الذات أو تعني الرعاية، واليد تعني القوة، ومآل قولهم أن القرآن الكريم عاجز أن يعبر عن اليد بالقوة، أو عاجز عن يعبر عن العين بالرعاية، فهذا كله من التحريف، إذًا التحريف نوعان: نوع تحريف اللفظ، ونوع تحريف المعنى، وكلاهما بغير طريق أهل السنة.

والتعطيل: إخلاء الكلمة من المعنى، جعلها كلمة جامدة، ليس لها معنى؛ {ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ}، استوى كلمة ليس لها معنى، يعني لفظة رب العزة أطلقها على نفسه؛ لكن لا يستفيدون منها معنى، مع أن كلام القرآن كلام عربي: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَا}[٤]

فالتعطيل معناه: إخلاء الكلمة من المعنى، وبهذا يتبين التناقض عند أهل الأهواء لأنه عندما يتكلم رب العالمين عن فرعون نفهم، يتكلم عن هامان نفهم، يتكلم عن السماوات والأرض نفهم، لكن يتكلم عن نفسه لا نفهم، فأين التدبر؟

---

[١] أخرجه الحاكم في المستدرك (٤٢) وضعفه الذهبي في التلخيص.

[٢] [طه: ٥].

[٣] [القمر: ١٤].

[٤] [محمد: ٢٤].

قد يكون هذا التعطيل تعطيل كامل، يعطل الصفة ومعانيها، أو يثبت الصفة ويعطل معانيها، **فالأول**: منهج الجهمية، **والثاني**: منهج المعتزلة.

التشبيه والتمثيل: يجعلون لله عز وجل شبيهًا أو مثيلًا، فيقولون يد ككذا، أو رجل ككذا، أو ينزل نزول كذا، يشبِهون الله عز وجل أو يجعلون له مثل، هذه بعض المناهج الباطلة التي خالفت أهل السنة والجماعة.

لماذا سُمِّيَت بالعقيدة الواسطية؟

لأن رجلًا من أهل واسط –بلد اسمها واسط –جاء إلى شيخ الإسلام وسأله أن يكتب له مختصرًا في أمر الاعتقاد وألح عليه، فقال في بدايته: جاءني من تعيّن عليَّ إجابته من "واسط"، وسألني كذا؛ فسميت العقيدة الواسطية؛ ولأنها شرحت عقيدة السنة والجماعة وهم الوسط بين الفرق، فيمكن أن تسمى العقيدة الوسطية.

شيخ الإسلام ابن تيمية له كتب في الاعتقاد غير العقيدة الوسطية؛ فله التدمرية، وله الحموية، وله كتاب العقيدة الأصفهانية، له كتب متعددة في هذا الباب، وله كتاب الإيمان الكبير، والإيمان الأوسط، كَتب في أمر الاعتقاد كُتبا، ولكن كتاب العقيدة الوسطية؛ لاختصاره حظي بكثير من الشروح.

ترجمة موجزة للشيخ مُحَمَّد خليل هرَّاس:

الشرح الذي نريد أن نتناوله عندنا هنا في درسنا، شارحه هو: الشيخ مُحَمَّد خليل هراس رحمه الله وهذا من أجمع الشروح على قِصره، والشيخ مُحَمَّد رحمه الله توفي منذ ربع قرن، يعني كان رجلًا قريبًا لم يكن من القدماء، توفي من ربع قرن سنة ألف وتسعمائة خمسة وسبعين (١٩٧٥م) يعني ألف وثلاثمائة وخمسة وتسعين من الهجرة (١٣٩٥هـ)، متخرج في كلية أصول الدين، وأريد أن ننتبه إلى أن لا تقل كلمة (متخرج من)، ولكن قل: (متخرج في)؛ لأن متخرج من: هذا من الخروج، لكن متخرج في: أي مُتعلم، تعلم في... حتى انتهى إلى الدرجة النهائية.

وكان مشتهرًا في ذلك الوقت عداء بعض رجال الأزهر الشريف لشيخ الإسلام ابن تيمية، ولمن كان على سيرتهم من سلف الأمة، وكان الرجل قد سمع عن شيخ الإسلام ابن تيمية سماعًا سيئًا، طُلب منه أن يُحضر رسالة في ابن تيمية، فأراد أن يحضر في رجل من المبتدعة، فلما انبرى الرجل –وكان الشيخ مُحَمَّد خليل الهراس رجلًا ذكيًا– وقرأ كتبه، انتقل من العداء الشديد إلى الحماس البالغ للرجل، ولذلك كان الشيخ الهراس رحمه الله يكاد يفتي في معظم مسائله ويتكلم في معظم كلامه بأقوال شيخ الإسلام ابن تيمية، وهو في أثناء دراسته لرسالة الدكتوراه أو كانت تسمى الرسالة العَالِمِّية.[1]

الرجل لما دخل في أمر دراسته لشيخ الإسلام ابن تيمية، كان مدرسًا في معهد الزقازيق الديني –مدينة الزقازيق هذه عاصمة محافظة الشرقية في مصر –كان مُدرسًا في المعهد، فلما تعرف عليه جماعة من أنصار السنة، ووجدوا أن الرجل

---

[1] تنبيه: كلمة الليسانس والبكالوريوس والماجستير والدكتوراة، هذه الكلمات أجنبية ولها كلمات أصيلة مقابلة لها في العربية، فيسمى الليسانس أو البكالوريوس بالشهادة العالية، في مقابل المتوسطة والثانوية والابتدائية، فنقول: حاصل على عالية كلية اللغة العربية، وحاصل على عالية كلية أصول الدين؛ ثم الماجستير تسمى شهادة التخصص، ولا تزال هذه الكلمة مستخدمة عند الأطباء، يعني لا يكتب أخصائي إلا من حصل درجة الماجستير، ولا يسمى أخصائي في كذا إلا إذا حصل على درجة الماجستير، فكأن كلمة ماجستير هذه يقابلها في الشهادات العربية، أو غلبت عليها لغة الماجستير والدكتوراه، لكن تسمى شهادة التخصص، أما درجة الدكتوراه فتسمى درجة العالميَّة، تلك التي حصل عليها الشيخ مُحَمَّد خليل هراس، دكتوراه في العقيدة من كلية أصول الدين في جامعة الأزهر الشريف.

صاحب عقيدة صحيحة ومنهج سليم، أخذوا يدعونه إلى مسجدهم، وكان المسجد ضيقًا، وكان يأتي الرجل ويجلس معهم، حتى تولى رئاسة الفرع، وزار في ذلك الوقت الشيخ حامد الفقي رحمه الله الذي كان مؤسسًا ورئيسًا عامًا لجماعة أنصار السنة، زار الزقازيق والتقى بالرجل وأُعجب به ودعاه إلى إلقاء المحاضرات في القاهرة، وأخذ يُقدمُهُ، فقال في مقدمته: هذا الرجل مُحَمَّد خليل هراس يَهرُس العلم هرسًا، يعني قدمه للناس، تقدم الرجل ودخل إلى أنصار السنة وهو شيخ مُعَلَّم، يعني ما تعلم التوحيد من خلال أنصار السنة؛ لكنه تعلمه من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية ثم برَع بعد ذلك.

كان الشيخ مُحَمَّد خليل هراس رجلًا شديد التواضع، صاحب تواضع جم، يذهب إلى كل قرية –فضلًا عن مدينة – يمكن أن يدعو فيها بدعوة التوحيد، وكان رجلًا أكاديميًا، ومعروف أن كلمة (أكاديمي) يعني: كان رجلًا متخصصًا في المسائل العلمية، ومع ذلك يُفهِم العوام، دقائق مسائل الاعتقاد بخطبه ومحاضراته، فكان يجمع بين الأكاديمية في العلم والتخصص والدقة، والتبسيط، فتسأله في المسألة من المسائل؛ فتجد الجواب يأتيك سهلًا بالطريقة المقنعة، وهذه الطريقة التي تعلمها من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم؛ لأنك تجدهم يحلّوا لك المعضلات بكلمات يسيرة.

الشيخ الهراس رحمه الله كان معروفًا في العالم الإسلامي في حياته ببراعته وفضله، عمل في المملكة العربية السعودية على فترات ثلاث في تأسيس المعاهد العلمية، ثم جامعة الإمام، ثم أخيرًا في جامعة أم القرى في مكة المكرمة، وكان من رفاقه: الشيخ عبد الرزاق عفيفي، والشيخ: مُحَمَّد البدوي، والشيخ: عبد الرحمن الوكيل، ، والشيخ: عبد العزيز بن باز، وكانوا إذا جلسوا فاختلفوا في مسألة من مسائل الاعتقاد؛ فَفَصْلُهَا عند الهراس، يعني كان أعلم هذه المجموعة في مسائل الاعتقاد، قد تجده في مسائل الحديث يستدركُ عليه بعضُ المتخصصين في ذلك؛ لكنه كان بارعًا في مسائل الاعتقاد مهما كانت المسألة دقيقة، ولم تكن عادته في الكتابة ولا الخطابة أن يخطب طويلًا، يعني أذكر مثلًا أنني حَضَرت له في سنة ألف وتسعمائة وسبعين، أو تسعة وستين، خطبة خطبها في القاهرة؛ شرح فيها أحكام سورة النور في خطبة الجمعة، استمر في خطبته ساعة ونصف، طبعًا ساعة ونصف على أحكام سورة النور وقت قصير، وكان الحاضرون غالبهم يعرفون علم الرجل، وما تشعر بملل وأنت تجلس في درسه، مع هذا كانت مقالاته دائمًا مقالات قصيرة، إن شرح حديثًا فشرحه يأخذ صفحة أو صفحتين يشرح فيه مقاصد الحديث، أو إن تكلم عن مسألة من مسائل الاعتقاد، فيقصد إلى المسألة بأكثر الطرق التي يفهمها الحاضرون.

وكان الرجل وقَّافًا عند الحق صلبًا فيه، فلقد ظهرت موجة من التكذيب في الحديث في مصر، وكان وقتها نائب رئيس أنصار السنة، فضلًا عن كونه مدرسا في كلية أصول الدين وأستاذ في الأزهر؛ فكان ينبري للدفاع، ولا يقبل أبدًا أنصاف الحلول أو التهاون في مثل هذه المسائل، فوقف وقفة صلبة في وجه الذين ردوا بعض الأحاديث في الصحيحين، وكان جريئًا جيدًا في ردوده؛ لكنه كان لا يَصبر على حوار المعاندين، ليس لضعف علمه، يعني مثلًا: إذا جلس في مجلس وجاء رجل من المبتدعة أو من المعاندين وأراد أن يشوش في المجلس يقوم مباشرة من المحاضرة ويتركها ويمشي، فإن سُئل لماذا؟ يقول هذا مجلس حضره شيطان لا نحضره، هذا الكلام تكرر منه مرات.

كان رجلًا متبسطًا في مأكله، ومشربه، وملبسه، يركب القطار في الدرجة الثالثة، ويذهب إلى أي مكان وهو أستاذ رفيع في كلية أصول الدين، وقد مات رحمه الله وهو يتجول في الدعوة، مات وكان رئيسًا لقسم العقيدة في جامعة أم القرى، ثم عاد إلى مصر في عطلة صيفية، وأخذ يتجول في الفروع حتى أصيب بنوبة، فنقل إلى المستشفى ومكث في المستشفى أيامًا ظن إخوانه أن صحته قد عاودته، لكنهم فوجئوا بأن الرجل مات -رحمه الله -.

شرح الكتاب:

شرح مقدمة شيخ الإسلام:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في عقيدته الواسطية: **[بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَه بِالهُدَى ودِينِ الحقّ، لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ، وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَه لاَ شَرِيكَ لَهُ؛ إِقْرَارًا بِهِ وَتَوْحِيدًا، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُه وَرَسُولُه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا مَزِيدًا.**

أَمَّا بَعْدُ: فَهَذَا اعْتِقادُ الفِرْقة النَّاجِيَة الْمَنْصُورَة إِلَى قِيَامِ السَّاعَة، أَهْلِ السُّنَّة وَالْجَمَاعَة، وَهُوَ الإِيمَانُ بِاللهِ، وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالإِيمَانُ بِالقَدَرِ: خَيْرِهِ وَشَرِّهِ].

فيقول الشارح رحمه الله: **[أما بعد]** كلمة يؤتى بها للدلالة على الشروع في المقصود، يعني: كأن الاستفتاح بالبسملة والحمدلة والشهادتين إنما هو من قبيل إعلان عقيدة المسلم، والاستعاذة بالله رب العالمين، ثم يأتي بعده الشروع في المقصود من بيان المراد، وكان النبي ﷺ يستعملها، أي يستعمل أما بعد، كثيرًا في خطبه وكتبه، وكتبه يعني: الرسائل التي كان يرسلها إلى الناس، وتقديرها عند النحويين: مهما يكن من شيء بعد، والإشارة بقوله **[هذا]**.

تعريف الفرقة الناجية المنصورة:

يقول: **[أما بعد فهذا اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة]** هذا إلى ما تضمنه هذا المؤلَف من العقائد الإيمانية التي أجملها في قوله: وهو إيمانه بالله، **[والاعتقاد]** مصدر اعتقد كذا إذا اتخذه عقيدة له، بمعنى عقد عليه الضميرَ والقلب ودان لله به، وأصله من عقد الحبل، ثم استعمل في التصميم والاعتقاد الجازم **[الفِرقة]** بكسر الفاء: الطائفة من الناس، وصفها بأنها **[الناجية المنصورة]** أخذًا من قوله عليه السلام: عَنْ ثَوْبَانَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَذَلِكَ"[1]، ومن قوله في الحديث الآخر: "وستفترقُ هذه الأمة على ثلاثٍ وسبعينَ فرقة كلُّها في النارِ إلا واحدة، وفي رواية قالوا: يا رسولَ اللهِ مَن الفرقة الناجية؟ قال: من كانَ على مثلِ ما أنا عليه اليومُ وأصحابي"[2].

إذًا شرح من هم أهل السنة، ومن هي الفرقة الناجية المنصورة، من هم؟ من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي.

وقوله **[السنة والجماعة]** بدل من الفرقة، والمراد بالسنة: الطريقة التي عليها رسول الله ﷺ وأصحابه قبل ظهور البدع والمقالات، والجماعة في الأصل: القوم المجتمعون، والمراد بهم هنا: سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين الذين اجتمعوا على الحق الصريح من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.

---

[1] أخرجه البخاري (٧٣١١)، ومسلم (١٩٢٠).

[2] أخرجه الترمذي (٢٦٤٠) من حديث عوف بن مالك الأشجعي. وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٠٨٢).

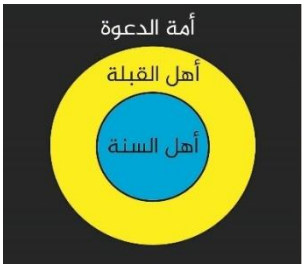

أريد أن أوضح مسألة هنا بطريق الرسم البياني -رسم إيضاحي -، فكل واحد منكم معه ورقة يرسم دائرتين متداخلتين، يعني دائرة كبرى وداخلها دائرة صغرى، دائرة كبيرة وبداخلها دائرة صغيرة، ويكتب في داخل الدائرة الصغيرة: السنة والجماعة، ويكتب في الدائرة الكبيرة: القبلة، ويكتب حول الدائرة الكبيرة: أمة الدعوة

إذًا في الخارج أمة الدعوة، وبعدها القبلة، وبعدها السنة والجماعة، إذًا السنة والجماعة جزء من القبلة، والقبلة جزء من أمة الدعوة.

من هم أمة الدعوة؟ أمة الدعوة: هم كل مكلفٍ وُجد منذ بعثة النبي ﷺ إلى أن تقوم الساعة، ما اسمهم؟ أمة الدعوة، يعني: البوذيون، واليهود، والنصارى، والمسلمون كلهم داخلون في أمة الدعوة؛ لكن هناك من استجاب ودخل في أمة الإجابة الذين سميناهم في الرسم بأهل القبلة، وهناك من لم يستجب وهم الكفار الباقون على كفرهم، وأما الذين هم في دائرة أهل القبلة فإنهم تفرقوا فِرقًا، منهم فرقة هي الفرقة الناجية، وهي التي في الوسط في الدائرة الداخلية.

أنواع الخلاف:

والكلام على العقيدة، كلام على عقيدة هذه الفرقة الناجية المنصورة، كأن الخلافات أستطيع أن أقسمها إلى ثلاثة أنواع:

خلافات تقع ولا تُخرج من السنة، مثل: خلافات الإمام الشافعي، ومالك، وأبي حنيفة، وأحمد، هل يوجد بينهم خلافات؟ نعم هذه الخلافات في مسائل عملية لا تخرج من السنة والجماعة، ومثل الخلافات التي تقع بين بعض الصحابة، خلافات لا تخرج من السنة والجماعة -من الفرقة الناجية المنصورة -؛ لكن هناك خلافات بين السنة وبين فرق الأمة التي تسمى بفرق الضلال.

وفرق الضلال رؤوسها أربعة، والبعض يعدها خمسة: الخوارج، والروافض، الشيعة، والمعتزلة، والمرجئة، ولا يُعد غُلاتُهم منهم يعني: قد تجد غلاة الخوارج، غلاة الروافض، غلاة المرجئة، غلاة القدرية، لا يُعد منهم، ومن يعدهم خمسة؛ يُضيف الجهمية، وبعض أهل العلم يجعل كلَّ فرق الجهمية فرقًا خارجةً عن الملة، والخلاف ما بين السنة وبين فرق الضلال من النوع الذي لا يجوز الإقرار عليه، ولا التسامح فيه؛ لأنه خلاف في أمور عقدية لا خلاف فيها عند أهل السنة، فلا نقول: نتعاون معهم فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه، لا هذا خلاف في خلافات أصلية؛ لكن الاختلاف الذي يعذر بعضنا بعضًا فيه، هو الخلاف الذي في دائرة السنة، في دائرة الفرقة الناجية المنصورة. **(وهذا النوع الثاني: خلاف بين أهل السنة وفرق الضلال)**

النوع الثالث من أنواع الخلاف: هو الخلاف بين السنة، وبين فرق الكفر، وهو المتعلق بأركان الإيمان الستة: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

يقول: [وهو الإيمان بالله] أي: الاعتقاد، يقول: فهذا اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة أهل السنة والجماعة وهو أي: الاعتقاد بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والإيمان بالقدر خيره وشره، هذه

الأمور الستة هي أركان الإيمان فلا يتم إيمان أحد إلا إذا آمن بها جميعًا على الوجه الصحيح الذي دل عليه الكتاب والسنة، وضع خطًا تحت هذه الكلمات (**آمن بها جميعًا على الوجه الصحيح الذي دل عليه الكتاب والسنة**)، فمن جحد شيئًا منها، أو آمن بها على غير وجهها الصحيح فقد كفر، طبعًا هذه الكلمة فيها تفصيل؛ فالكفر المخرج من الملة: هو الإيمان بها على غير الوجه الصحيح المناقض لما عليه أهل الإسلام، فنقول: فمن جحد شيئًا من هذه الأركان الستة، أو آمن به على غير الوجه الصحيح فقد كفر، ولذلك يُستدل على هذا: بحديث سؤال جبريل؛ لأنه ذكر هذه الأركان الإيمانية الستة، وسؤال جبريل سبب إيراده في صحيح مسلم -مع التنبيه على أن حديث سؤال جبريل أول حديث في صحيح مسلم بعد المقدمة، والبخاري ليس له مقدمة، أما مسلم فوضع مقدمة لصحيحه، فبعد المقدمة ستجد الحديث يرويه الإمام مسلم بسنده إلى يحيى بن يَعمَر يقول: إن أول من أظهر الكلام في القدر في البِصرة مَعبَد الجهني فانطلقت أنا، وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجين أو معتمرين، فقلنا: إن لقينا أحدًا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سألناه عما يقول القوم، -من القوم؟ هم القدرية وهم أول من أظهر الكلام في القدر، إذًا فهم ذاهبين ليسألوا عن كلام القدرية -فأجابهم ابن عمر بالحديث كله، وإنما يَقصد منه أن يذكر: وأن تؤمن بالقدر خيره وشره.

الإيمان بالملائكة:

يقول الشارح: **[وقَدْ ذُكِرَت كُلُّهَا فِي حَدِيثِ جِبْرِيلَ الْمَشْهُورِ، حِينَ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -فِي صُورَةِ أَعْرَابِيٍّ يَسْأَلُهُ عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ وَالْإِحْسَانِ؟ فَقَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَبِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»[1]؛ حُلْوِهِ وَمُرِّهِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى.]**

الْمَلَائِكَة: جَمْعُ مَلَك، هذا هو الركن الثاني، ترك الركن الأول وبدأ يشرح من الركن الثاني؛ لأن الكتاب معظمه بعد ذلك سيُبنى على شرح الركن الأول، وهذا ما أشرنا إليه في البداية إلى أن الكتاب جاء مفصّلًا في ركن الإيمان بصفات الله عز وجل وبأسمائه وصفاته.

فيقول: **[وَالْمَلَائِكَة: جَمْعُ مَلَك، وَأَصْلُهُ مَأْلَكٌ؛ مِنَ الْأُلُوكَة، وَهِيَ الرِّسَالَة، وَهُمْ نوعٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، أَسْكَنَهُمْ سماواته، ووكلهم بشؤون خَلْقِهِ، وَوَصَفَهُمْ فِي كِتَابِهِ بِأَنَّهُمْ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ، وَأَنَّهُمْ يسبّحون لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَا يَفْتُرُونَ. فَيَجِبُ عَلَيْنَا الْإِيمَانُ بِمَا وَرَدَ فِي حَقِّهِمْ مِنْ صِفَاتٍ وَأَعْمَالٍ فِي الْكِتَابِ والسنَّة، وَالْإِمْسَاكُ عمَّا وَرَاءَ ذَلِكَ؛ فَإِنَّ هذا من شؤون الْغَيْبِ الَّتِي لَا نَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا علَّمنا اللَّهُ وَرَسُولُهُ]**.

إذا الكلام على أمر الملائكة لا نأخذه من القصص، ولا من الرسامين، والفنانين؛ إنما الملائكة نأخذ علمهم مما جاء في القرآن والسنة؛ لأنهم عالم غيَّبَه الله عز وجل عنا، وإن كانوا هم معنا.

---

[1] أخرجه مسلم (٨).

الإيمان بالكتب:

يقول: **[وَالْكُتُبُ: جَمْعُ كِتَابٍ، وَهُوَ مِن الكَتْب؛ بِمَعْنَى: الْجَمْعِ وَالضَّمِّ، وَالْمُرَادُ بِهَا الْكُتُبُ المنزَّلة مِنَ السَّمَاءِ عَلَى الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ. وَالْمَعْلُومُ لَنَا مِنْهَا: صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ، وَالتَّوْرَاة الَّتِي أُنزلت عَلَى مُوسَى فِي الْأَلْوَاحِ، وَالْإِنْجِيلُ الَّذِي أُنزل عَلَى عِيسَى، والزَّبور الَّذِي أُنزل عَلَى دَاوُدَ، وَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ الَّذِي هُوَ آخِرُهَا نُزُولًا، وَهُوَ المصدِّق لَهَا، وَالْمُهَيْمِنُ عَلَيْهَا، وَمَا عَدَاها يَجْبُ الْإِيمَانُ بِهِ إِجْمَالًا]**

كلمة إجمالًا هذه نفهم منها أننا نؤمن بكل ما أنزل الله من كتاب، ونعلم من الكتب التي أُنزلت، نعلم من أسمائها صحف إبراهيم، والتوراة التي هي صحف موسى، والزبور الذي هو كتاب داود الذي نزل على داود، والإنجيل الذي نزل على المسيح عيسى ابن مريم، ونعرف القرآن اسمًا وتفصيلًا، إذًا كلمة الإيمان إجمالًا يعني: نؤمن بكل ما أنزل الله من كتاب، ونؤمن أن الله عز وجل أنزل على إبراهيم صحفًا، وأنزل على موسى صحفًا تسمى التوراة، هذا اسمه إيمان إجمالي؛ لكن هذا الإيمان الإجمالي لا يخلو من تفصيل، والتفصيل نؤمن بما صدقته شريعة الإسلام من هذه الكتب، هذا يعني أن رب العزة عندما يقول: {مَثَلُهُم فِي ٱلتَّورَىٰة }[1]، إذًا نؤمن أن هذا الكلام موجود في التوراة، القرآن ذكره ونسبه للتوراة إذًا هو موجود في التوراة، {وَمَثَلُهُم فِي ٱلإِنجِيلِ}[2].

إذًا هذا المثل موجود أيضًا في الإنجيل، وعندما يذكر صحف إبراهيم وموسى، إذًا هذا موجود في صحف إبراهيم وفي صحف موسى، هذا اسمه إيمان تفصيل من ذلك الإجمال، وننفي عنه ما نفاه القرآن ونفاه الرسول عليه الصلاة والسلام، مثل: {وَمَا كَفَرَ سُلَيمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلمَلَكَينِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ}[3] سليمان عليه السلام ينسبون في كتبهم أنه كان يعملُ بالسحر، إذًا كتبنا جاءت بنفي هذا، إذًا ننفيه؛ فيكون هذا من تمام الإيمان، ننفي ما نفاه، وتنظر فتتدبر لترى أن القرآن الكريم جاء يتكلم بكلام يدلك على أنه يقيني، يعني: أنا لو سألتكم في مسألة فاختلفتم فيها، ولكن اتفقتم على جزئية منها، إذًا أتوقع أن الجزئية التي اتفقتم عليها دين حق أم باطل؟ أتوقع أنها حق، فالقرآن الكريم جاءنا بالحق كله، اليهود قالت عن المسيح: ابن زنًا صلبناه، والنصارى قالوا: ابن الله وصلبوه، اتفقوا أم اختلفوا؟ هم مختلفون لكنهم اتفقوا على أنهم صلبوه، اليهود يقولون: نحن صلبناه والنصارى يقولون: نحن صلبناه، يعني إذًا متفقين على هذا، ومختلفين: في أنه ابن زنا أو ابن الله، فالقرآن الكريم جاء يبرؤه من كل ذلك ويقول: {وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡ}(٤)، هذا من دلائل نبوة النبي ﷺ؛ لأنه لو أراد أن يجامل القوم، أو لو كان يأخذ الكلام من القوم، لقال: صلبوه؛ لأن كل من على الأرض يقولوا المسيح صلب، ولا يعرف أحد أنه لم يصلب إلا الله رب العالمين، فأنزل قوله: {وَمَا قَتَلُوهُ}.

---

[1] [الفتح: ٢٩].

[2] [الفتح: ٢٩].

[3] [البقرة: ١٠٢].

[4] [النساء: ١٥٧].

إذًا فهذا أيضًا من التفصيل الذي يجب أن نؤمن به؛ لكن كل الكتب جاءت من عند الله، إلا أن أقوام هذه الكتب حرفوها، ما خلا هذين القسمين: القسم الذي أيدته كتبنا، والقسم الذي رفضته كتبنا، (وهناك قسم ثالث وهو مالم تؤيده كتبنا تصديقًا له أو تكذيبًا) لا نرده ولا نقبله فعسانا إن قبلناه قبلنا باطلًا، وعسانا إن رددناه رددنا حقًّا، وانتبه إلى أن كلمة لم تؤيده كتبنا يعني: المعنى صحيح؛ لأنه لو كان المعنى باطلًا فقد رفضته كتبنا لأننا من أين سنعرف بطلانه؟ أضربُ مثالًا من هذا القسم: ما ينسب إلى سليمان عليه السلام أنه لما مات أبوه داود، وتولى الملك من بعده أراد أن يتخذ نديمًا، فقال: ومن أتخذ نديمًا إن لم أتخذ نديم أبي داود؟ فاتخذ نديم أبيه داود -نديمًا يعني: جليسًا -، فجاء ملك الموت إلى سليمان، وكان ملك الموت يأتي جهارًا، فأخذ ملك الموت يكلم سليمان ويلحظ نديمه -ينظر إليه -، فلما قام من عنده قال: نديم سليمان لسليمان: من هذا؟ قال: هذا ملك الموت، قال: أنا بأرض فيها ملك الموت، مُرِ الريحَ فلتلقِني ببلاد الهند، فأمر الريح فألقته ببلاد الهند؛ فما مرَّ وقت طويل حتى جاء ملك الموت إلى سليمان، فسأله سليمان: مالك كنت تلحظ الرجل، قال: كنت أتعجب ربي أمرني أن أقبض روحه بأرض الهند في ساعة كذا وهو عندك، هل المعنى هذا فيه شيء يُنكر؟ ليس هناك شيء ينكر، هل جاءت به كتبنا من القرآن والسنة؟ لا، إذًا نُحدث به ولا نصدقه ولا نكذبه، نحدث يعني: لا بد أن يكون هذا من المعنى المقبول حتى نقول إنه من هذا القسم.

الإيمان بالرسل:

يقول الشارح رحمه الله: **[وَالرُّسُلُ: جَمْعُ رَسُولٍ، وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُ مَنْ أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ بِشَرْعٍ وَأَمَرَهُ بِتَبْلِيغِهِ، وَعَلَيْنَا أَنْ نُؤْمِنَ تَفْصِيلًا بِمَن سَمَّى اللَّهُ فِي كِتَابِهِ مِنْهُمْ، وَهُمْ خَمْسَة وَعِشْرُونَ، ذَكَرَهُمُ الشَّاعِرُ فِي قَوْلِهِ:**

فِي {تِلْـــكَ حُجَّتُنَـــا} مِـــنْهُمْ ثَمَانِيَـــة ... مِـــنْ بَعْـــدِ عَشْـــرٍ وَيَبْقَـــى سَـــبْعَة وهُـــمُ

إِدْرِيـــسُ هُـــودُ شُـــعَيْبٌ صَـــالِحٌ وكَـــذا ... ذُو الكِفْـــلِ آدَمُ بالمخْتَـــارِ قَـــدْ خُتِمُـــوا

طبعًا في تلك حجتنا، الآية التي في سورة الأنعام: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ}[1] فهؤلاء هم الثمانية عشر، السبعة الباقون هم: إدريس، وهود، وشعيب، وصالح، وذو الكفل، وآدم، و**مُحَمَّد** ﷺ.

[وَأَمَّا مَن عَدَا هَؤُلَاءِ مِنَ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ؛ فَنُؤْمِنُ بِهِمْ إِجْمَالًا عَلَى مَعْنَى الاعتقاد بنبوَّتِهم وَرِسَالَتِهِمْ، دُونَ أَنْ نكلِّف أَنْفُسَنَا الْبَحْثَ عَنْ عِدَّتِهِمْ وَأَسْمَائِهِمْ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا اختصَّ اللَّهُ بِعِلْمِهِ؛ قَالَ تَعَالَى: {وَرُسُلا قد قَصَصنَاهُم عَلَيكَ مِن قَبلُ وَرُسُلًا لَّم نَقصُصهُم عَلَيكَ}[2].

---

[1] [الأنعام: ٨٣-٨٦].

[2] [النساء: ١٦٤].

وَيَجِبُ الْإِيمَانُ بِأَنَّهُمْ بلَّغوا جميعَ مَا أُرسلوا بِهِ عَلَى مَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وبيَّنوه بَيَانًا لَا يَسَعُ أَحَدًا مِمَّن أُرسلوا إِلَيْهِ جَهْلُهُ، وَأَنَّهُمْ مَعْصُومُونَ مِنَ الْكَذِبِ وَالْخِيَانَة، وَالْكِتْمَانِ وَالْبَلَادَة].

إذًا صارت هذه العبارة عبارة عن موضوع كامل، وهذه ميزة الهراس رحمه الله كانت كلماته يمكن أن تبني عليها موضوعًا كاملًا.

[وأنَّ أَفْضَلَهُمْ أُولُو الْعَزْمِ، وَالْمَشْهُورُ] كلمة والمشهور: يعني أن المسألة فيها اتفاق أم فيها اختلاف؟ فيها اختلاف؛ ولكن هذا هو المشهور، وهذه الكلمة، كأن الرجل ما أراد أن يُدخل نفسه في تقديم الراجح والمرجوح، إنما قال: [والمشهور أَنَّهُمْ: مُحَمَّدٌ، وَإِبْرَاهِيمُ، وَمُوسَى، وَعِيسَى، وَنُوحٌ؛ لِأَنَّهُمْ ذُكروا مَعًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَإِذ أَخَذنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُم وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذنَا}[1]، وقوله: {شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ}[2].].

الإيمان بالبعث:

يقول الشارح: وَ «**الْبَعْثِ**» فِي الْأَصْلِ: الْإِثَارَة وَالتَّحْرِيكُ، وَالْمُرادُ بِهِ فِي لِسَانِ الشَّرْعِ: إِخْرَاجُ الْمَوْتَى مِنْ قُبُورِهِمْ أَحْيَاءً يَوْمَ الْقِيَامَة؛ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ بَيْنَهُمْ، {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّة خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّة شَرّا يَرَهُ}[3]، وَيَجِبُ الْإِيمَانُ بِالْبَعْثِ عَلَى الصِّفَة الَّتِي بيَّنها اللَّهُ فِي كِتَابِهِ، وَهُوَ أَنَّهُ جمعُ مَا تحلَّل مِنْ أَجْزَاءِ الْأَجْسَادِ الَّتِي كَانَتْ فِي الدُّنْيَا، وَإِنْشَاؤُهَا خَلْقًا جَدِيدًا، وإعادة الْحَيَاة إِلَيْهَا] سيتكلم على تفصيل في هذا البعث يقول: **[وَمُنْكِرُ الْبَعْثِ الْجُسْمَانِيّ . كَالْفَلَاسِفَة وَالنَّصَارَى . كَافِرٌ]** طبعًا لا يشير إلى أن النصارى كفار فهذا أمر معلوم؛ لكن يقول: من أنكر، فشابه في هذه المسألة إنكار البعث الجسماني فهو كفر؛ لأن هذا وقعت فيه بعض الفرق كالدروز، والنصيرية وقعوا في مثل هذه الأخطاء، فقالوا: بالتناسخ، وقالوا بانتقال الأرواح من أجساد إلى أجساد، وقالوا: بأن الجزاء الأخروي معناه: إذا كان إنسان محسن في حياته، إذًا روحه تنتقل في عصفور أخضر، الناس تضعه في قفص وتقدم إليه الطعام والشراب، وإن كان إنسانًا سيئًا، فإن روحه تدخل في كلب، الناس تضربه وتزجره، أو في فأر؛ لكن البعث: أن يبعث الناس أحياءً، فيبعث كل ابن آدم بعثًا جديدًا جسمانيًا، **[وَأَمَّا مَن أقرَّ بِهِ، وَلَكِنَّهُ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ الْأَرْوَاحَ فِي أجسامٍ غَيْرِ الْأَجْسَامِ الَّتِي كَانَتْ فِي الدُّنْيَا؛ فَهُوَ مبتدعٌ وفاسقٌ]**.

إذًا الإيمان الصحيح: أن نؤمن أن الله عز وجل يبعث الأرواح في الأجساد التي كانت فيها فيجمعها، أما الكيف: فهذا فعل الله عز وجل لا نستطيعه، فإن قال قائل: إن ابن آدم سيكون طوله ستون ذراعًا هو اليوم طوله ذراعان أو ثلاثة؛ فكيف يكون طوله ستون ذراعًا؟ نقول هذا الطفل الصغير الذي ولد يوم ولد كان بيزن ثلاثة أرطال أو رطلان أو

---

[1] [الأحزاب: ٧].

[2] [الشورى: ١٣].

[3] [الزلزلة: ٧-٨].

أربعة، صار اليوم بيزن مائة وخمسين رطلًا ونقول هذا الطفل هو هذا الرجل، فالله عز وجل الذي جعل من ذلك الطفل رجلًا، وجعل من هذه النطفة إنسانًا بشرًا، هو الذي يبعثهم يوم القيامة وهو على كل شيء قدير.

الإيمان بالقدر:

[وَأَمَّا «**الْقَدَرِ**»؛ فَهُوَ فِي الْأَصْلِ، مَصْدَرٌ تَقُولُ: قدَرتُ الشَّيْءَ -بِفَتْحِ الدَّالِ وَتَخْفِيفِهَا -أَقْدِرُهُ -بِكَسْرِهَا -قَدْرًا وقَدَرًا؛ إِذَا أحطتَ بِمِقْدَارِهِ.

والْمُرَادُ بِهِ فِي لِسَانِ الشَّرْعِ: أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عَلِمَ مَقَادِيرَ الْأَشْيَاءِ وَأَزْمَانَهَا أَزَلًا، ثُمَّ أَوْجَدَهَا بِقُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ عَلَى وَفْقِ مَا عَلِمَهُ مِنْهَا، وَأَنَّهُ كَتَبَهَا فِي اللَّوْحِ قَبْلَ إِحْدَاثِهَا؛ كَمَا فِي الْحَدِيثِ: "أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمُ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ. قَالَ: وَمَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ كُلَّ مَا هُوَ كَائِنٌ"[1] وقال تعالى: {مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ}[2].

الإيمان بالله:

ثم يرجع إلى كلام شيخ الإسلام فيقول: **[وَمِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ: الإِيمَانُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ مُحَمَّدٌ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -؛ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلاَ تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلاَ تَمْثِيلٍ]** ثم يشرح هذه ويقول: وقوله: وَمِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ...: هذا شروع في التفصيل بعد الاجمال، و (**مِن**) هنا للتبعيض، والمعنى ومن جملة إيمان أهل السنة والجماعة بالأصل الأول، الذي هو أعظم الأصول وأساسها، وهو الإيمان بالله: أنهم يؤمنون بما وصف به نفسه.... إلى آخره.

التعريف بمعنى: (التحريف، التعطيل، التمثيل، التكييف).

وقوله: «**مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ**» متعلق بالإيمان قبله؛ يعني أنهم يؤمنون بالصفات الإلهية على هذا الوجه الخالي من كل هذه المعاني الباطلة؛ إثباتًا بلا تمثيل، وتنزيها بلا تعطيل، والتحريف في الأصل مأخوذ من قولهم: حرفت الشيء عن وجهه حرفًا، من باب ضرب؛ إذا أملته وغيَّرته، والتشديد للمبالغة، وتحريف الكلام: إمالته عن المعنى المتبادر منه إلى معنى آخر لا يدل عليه اللفظ إلا باحتمال مرجوح، فلا بد فيه من قرينة تبين أنه المراد.

وأما التعطيل؛ فهو مأخوذ من العطل، الذي هو الخلو والفراغ والترك، ومنه قوله تعالى: {وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ}[3] أي: أهملها أهلها، وتركوا وردها، والمراد به هنا: نفي الصفات الإلهية، وإنكار قيامها بذاته تعالى.

---

[1] أخرجه أحمد (٢٢٧٠٧)، وأبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٢١٥٥) وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٢٠١٧).

[2] [الحديد: ٢٢].

[3] [الحج: ٤٥].

يقول المعلق على هذا الكتاب في كلمة التعطيل: التعطيل قسمان: كلي: كما فعل نفاة الصفات من الجهمية والمعتزلة، وجزئي: كما فعل الأشاعرة الذين يثبتون سبع صفات وينفون الباقي، يعني: كأن المعطلة إذا أردت أن تضرب لهم مثالًا فقل: الجهمية، وقل: المعتزلة؛ ولكن إذا ضربت المثال بالأشاعرة: يثبتون سبعًا وينفون بقية الصفات.

يَستدل الشارح رحمه الله على معنى التعطيل بقوله: {وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَة} أي: أهملها أهلها، وتركوا وردها، والمراد به هنا: نفي الصفات الإلهية، وإنكار قيامها بذاته تعالى، فالفرق بين التحريف، والتعطيل؛ أن التعطيل: نفي للمعني الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة، يعني: رب العزة سبحانه وتعالى قال: {مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ}[1] فأثبت الله عز وجل له يدًا؛ فيعطلون، ويقولون: لا، ليست له يد.

وأما التحريف: فهو تفسير النص بالمعاني الباطلة التي لا تدل عليه، يعني: يقول اليد بمعنى: القدرة، إذًا المعطل عطل من غير أن ينقل معنًى جديدًا، لكن المحرف نقل إلى معنًى آخر باطل، والنسبة بينهما نسبة العموم والخصوص المطلق، فإن التعطيل أعم مطلقًا من التحريف؛ لأنه أزال المعنى كلية، بمعنى: أنه كلما وُجد التحريف وُجد التعطيل دون العكس، يعني: من قال اليد بمعنى القدرة، يكون المعنى: أن الكلمة التي وردت في القرآن والسنة عطلها، ثم حرفها، فأبدلها بكلمة أخرى، لكن المعطل عطل من غير أن يُحرف، هذا معنى كلمة العموم والخصوص، يعني إذًا بهذا المعنى: (كل مُحرفٍ معطل، وليس كلُّ مُعطلٍ محرف)، وبذلك يوجدان معًا فيمن أثبت المعنى الباطل، ونفى المعنى الحق، ويوجد التعطيل بدون التحريف فيمن نفى الصفات الواردة في الكتاب والسنة، وزعم أن ظاهرها غير مراد، ولكنه لم يعين لها معنًى آخر وهو ما يسمونه بالتفويض، أي: تفويض المعنى.

الفرق بين تفويض أهل السنة وتفويض غيرهم:

أصحاب مذهب المفوضة هم الذين يفوضون المعنى، أما تفويض الكيف: فهو من مذهب أهل السنة وكلامهم.

ومن الخطأ القول بأن تفويض المعنى هو مذهب السلف؛ كما نسب ذلك إليهم المتأخرون من الأشاعرة وغيرهم، فإن السلف لم يكونوا يفوضون في علم المعنى، وتنبه من هذه الكلمة، لأن هذا هو الخطأ الذي يقع فيه بعض الناس فينسبوا أنفسهم للسنة ويتذرعوا بهذا، يعني: أنا قرأت كتابًا سَمَّاه صاحبه: (أركان الإيمان)، وأخذ يتكلم على كل المصنفين والجماعات اليوم، وقال: إنهم على منهج السلف، وأخذ يخلط بين تفويض الكيف، وتفويض المعنى، وهذا الكلام موجود في كثير من الكتب التي تُحَرَّرُ اليوم، فانتبه إلى التفريق بين تفويض الكيف، وتفويض المعنى، فتفويض الكيف: منهج السنة، وتفويض المعنى: طريق الجهمية، ولو جئنا إلى كلمة: المفوضة، يقصد: معنى المفوضة في المعاني.

يقول: ولا كانوا يقرؤون كلامًا لا يفهمون معناه؛ بل كانوا يفهمون معاني النصوص من الكتاب والسنة، ويثبتونها لله عز وجل، ثم يفوضون فيما وراء ذلك من كنه الصفات أو كيفياتها؛ كما قال مالك حين سئل عن كيفية استوائه تعالى على العرش: الاستواء معلوم، والكيف مجهول.

---

[1] [ص: ٧٥].

وأما قوله: **[من غير تكييف ولا تمثيل]** فالفرق بينهما أن التكييف أن يعتقد أن صفاته تعالى على كيفية كذا، أو يسأل عنها بكيف.

وأما التمثيل؛ فهو اعتقاد أنها مثل صفات المخلوقين، وليس المراد من قوله: من غير تكييف أنهم ينفون الكيف مطلقًا؛ فإن كل شيء لا بد أن يكون على كيفية ما، ولكن المراد أنهم ينفون علمهم بالكيف، إذ لا يعلم كيفية ذاته وصفاته إلا هو سبحانه.

انتبه لهذه المسألة المهمة: عندما نقول نثبت بلا كيف، يعني: نثبت بلا كيف نعلمه، لكن إن كان له كيف يعلمه الله فهذا هو الكلام الصواب، فليس المعنى نفي التكييف، إنما يعني نفي عِلمنا بالتكييف؛ لكن الله عز وجل له عين، كيفية هذه العين لا نعلمها، ولكن يعلمها الله رب العالمين. له يد، له صفات، له قدرة، له حياة، كيفية هذه كلها لا طاقة لأحد أن يَعلمها؛ لكن عِلمها عند الله رب العالمين،

يقول شيخ الإسلام: **[بَلْ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللهَ {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}]**. ليس كمثله شيء؛ هذا نفي، وهو السميع البصير هذا إثبات، قوله: ليس كمثله هذه الآية المحكمة في الله عز وجل، وهي دستور أهل السنة والجماعة في باب الصفات؛ فإن الله عز وجل قد جمع فيها بين النفي {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}، والإثبات {وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ} فنفى عن نفسه المِثْلَ وأثبت لنفسِه سمعًا وبصرًا، فدل هذا على أن المذهب الحق: ليس هو نفي الصفات مطلقًا؛ كما هو شأن المعطلة، ولا إثباتها مطلقًا؛ كما هو شأن الممثلة؛ بل إثباتها بلا تمثيل.

وقد اختُلف في إعراب: ليس كمثله شيء على وجوه، أصحها: أن الكاف صلة زيدت للتأكيد؛ كما في قول الشاعر: ليس كمثل الفتى زهير، يعني تقدير الكلام: ليس كمثله شيء.

فيقول: **فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه، ولا يلحدون في أسمائه وآياته، ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه.**

يقول الشارح: فلا ينفون تفريع على ما قبله؛ فإنهم إذا كانوا يؤمنون بالله على هذا الوجه، فلا ينفون ولا يحرفون، ولا يكيفون ولا يمثلون.

يقول: ولا يحرفون الكلم عن مواضعه: المواضع جمع موضع، والمراد بها: المعاني التي يجب تنزيل الكلام عليها، وهي المتبادرة منه عند الإطلاق، فهم لا يعدلون به عنها.

قوله: ولا يلحدون في أسمائه وآياته، فينقل الشارح عن ابن القيم هذا الكلام.

الإلحاد في أسماء الله تعالى:

فقد قال العلامة ابن القيم رحمه الله: والإلحاد في أسمائه: هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها؛ مأخوذ من الميل؛ كما يدل عليه مادة لحد، فمنه اللحد، وهو الشق في جانب القبر، الذي قد مال عن الوسط، ومنه الملحد في الدين: المائل عن الحق، المدخِلِ فيه ما ليس منه، فالإلحاد فيها إما أن يكون بجحدها وإنكارها بالكلية، وإما

بجحد معانيها وتعطيلها، وإما بتحريفها عن الصواب وإخراجها عن الحق بالتأويلات الفاسدة، وإما بجعلها أسماء لبعض المبتدعات؛ كإلحاد أهل الاتحاد.[1].

وخلاصة ما تقدم:

عقيدة السلف الصالح في ذات الله:

أن السلف ﷺ يؤمنون بكل ما أخبر الله به عن نفسه في كتابه، وبكل ما أخبر به عنه رسوله ﷺ إيمانًا سالمًا من التحريف والتعطيل، ومن التكييف والتمثيل، ويجعلون الكلام في ذات الباري وصفاته بابًا واحدًا؛ فإن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات، يحتذى فيه حذوه، فإذا كان إثبات الذات إثبات وجود لا إثبات تكييف؛ يعني إذا سألتك هل تؤمن بالله؟ تقول نعم، تؤمن بوجوده؟ تقول: نعم، فإن سألتك كيف وجوده؟ فتقول: لا علم لي، إذًا الإيمان بوجوده إيمان إثبات بلا تكييف، فكذلك الإيمان بصفاته إثبات للصفات بلا تكييف، وقد يعبرون عن ذلك بقولهم: (تُمرُّ كما جاءت بلا تأويل)، هذه كلمة من كلمات السلف، ومن لم يفهم كلامهم، ظن أن غرضهم بهذه العبارة هو قراءة اللفظ دون التعرض للمعنى، يعني نقول مثلًا: {ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ}[2]، تُمرُّ كما جاءت بلا تكييف، فيظن البعض أن تُمر كما جاءت يعني: تُقرأ هكذا بدون أن نبحث في معناها

مثال: كلمة (استوى) فمقتضى كلامهم أن هذه كلمة لا نبحث في معناها، وهذا الكلام غير صحيح، فنحن لا نبحث في كيفتها، لكن ربنا خاطبنا بقرآنٍ عربي لنتدبر معاني كلماته، ومن لم يفهم كلامهم؛ ظن أن غرضهم بهذه العبارة هو قراءة اللفظ دون التعرض للمعنى، وهو باطل، فإن المراد بالتأويل المنفي هنا: هو حقيقة المعنى وكنهه وكيفيته.

قال الإمام أحمد رحمه الله: لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله، ولا يتجاوز القرآن والحديث[3].

وقال نعيم بن حماد: من شبه الله بخلقه؛ كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه؛ كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله تشبيه ولا تمثيل[4].

ويقول الشارح رحمه الله: **[لأَنَّهُ سُبْحَانَهُ: لَا سَمِيَّ لَهُ، وَلَا كُفْءَ لَهُ، وَلَا نِدَّ لَهُ]** هذا تعليل لقوله: فيما تقدم إخبارٌ عن أهل السنة والجماعة أنهم لا يكيفون ولا يمثلون، ومعنى لا سَمِيَّ له: أي لا نظيرَ له يستحق مثل اسمه، أو لا مُسامي له يساميه، وقد دل على نفيه قوله تعالى في سورة مريم: {هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا}[5] فإن الاستفهام هنا استفهام إنكاري، معناه النفي.

---

[1] بدائع الفوائد (١/ ١٦٩).

[2] [طه: ٥].

[3] العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (١٠٢/١).

[4] شرح العقيدة الطحاوية (٩٤/١).

[5] [مريم: ٦٥].

وليس المراد من نفي السَّمِيّ أن غيره لا يُسمى بمثل أسمائه، فإن هناك أسماء مشتركة بينه وبين خلقه، ولكن المقصود أن هذه الأسماء إذا سُمي الله بها؛ كان معناها مختصًا به لا يشركه فيها غيره، فإن الاشتراك إنما هو في مفهوم الاسم الكلي، وهذا لا وجود له إلا في الذهن، وأما في الخارج؛ فلا يكون المعنى إلا جزئيًّا مختصًا وذلك بحسب ما يضاف إليه؛ فإن أضيف إلى الرب فنقول: الرب رحيم كان مختصًا به، لا يشاركه فيه العبد، وإن أضيف إلى العبد نقول: فلان رحيم، كان مختصًا به لا يشاركه فيه الرب.

وأما الكفء؛ فهو: المكافئ المساوي، وقد دل على نفيه قوله تعالى: {وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ}(١).

وأما النِّدُّ فمعناه: المساوي المناوئ؛ قال تعالى: {فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ}(٢).

القياس الجائز والممنوع في حق الله تعالى:

ويقول شيخ الإسلام: **[وَلَا يُقَاسُ بِخَلْقِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى]** والقياس أنواع؛ فالقياس الذي يجوز إثباته في حق الله تعالى هو قياس الأولى، أما قياس التمثيل وقياس الشمول: فلا يجوز إثباته في حق الله تعالى.

ومعنى قياس الأولى: أن كل كمال ثبت للمخلوق وأمكن أن يتصف به الخالق؛ فالخالق أولى به من المخلوق، وكل نقصٍ تنزه عنه المخلوق؛ فالخالق أحق بالتنزه عنه، وهذه صورة من صور قياس الأولى تجوز في حق الله عز وجل، ولو أردنا أن نضرب مثالًا على ذلك، فهو: ما جاء من أن رجلًا من علماء المسلمين نزل في مجلس ملك من ملوك الروم، وكان بحضرته جماعة من الرهبان، فأراد أن يقطع المناظرة في كلمة، فحيا الملك؛ ثم قال للرهبان: كيف حالكم وحال الأهل والأبناء؟ فاشتاط الملك غيظًا، وقال له: خَيَّبَكَ اللهُ وخيَّبَ مَن أَرسَلَك، أما علمتَ أننا نُنَزِّهُ هؤلاء عن الزوجة والولد، قال: نزهتموهم مما سببتم به رب العالمين. يعني إذا كان هؤلاء يستحقون التنزيه من الزوجة والولد فرب العالمين أولى، فهذا اسمه قياس الأولى، وقياس الأولى جائز بين المخلوقين، ولكنه جائز بين رب العزة وخلقه، إذا قرأنا قول الله عز وجل: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ}(٣) هذا قياس، فنقول: هل عيسى له أم؟ نعم، هل آدم له أم؟ لا، هل عيسى له أب؟ لا، إذًا سبحانه الذي خلق من غيرِ أبٍ وأمٍّ، يمكِنُه أن يَخلقَ من أمٍّ بغيرِ أبٍ، هذا اسمُه قياسُ الأولى، يعني: إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم، خلقه بأم من غير أب، وقد خلق آدم أيضًا من غير أب ولا أم، فهذا اسمه قياس الأولى، وقياس الأولى يَجُرُنا إلى معرفةِ قاعدةٍ تُسَمَّى بقاعدةِ الكمال، وهي تقول: إذا قُدر اثنان أحدهما موصوف بصفة كمال، والآخر يمتنع عليه أن يتصف بتلك الصفة، كان الأول أكمل من الثاني؛ فيجب إثبات مثل تلك الصفة لله ما دام وجودها كمالًا وعدمها نقصًا.

---

(١) [الإخلاص: ٤].

(٢) [البقرة: ٢٢].

(٣) [آل عمران: ٥٩].

الله عز وجل أعلم بنفسه منا، ورسله صادقون مصدقون:

ثم يقول شيخ الإسلام: **[فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ؛ أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ]** يعني: الله أعلم بنفسه، **[وَأَصْدَقُ قِيلًا، وَأَحْسَنُ حَدِيثًا مِنْ خَلْقِهِ، ثُمَّ رُسُلُهُ صَادِقُونَ مُصَدَّقُونَ؛ بِخِلَافِ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَيْهِ مَا لَا يَعْلَمُونَ]** فالله عز وجل أعلم بنفسه، ورسله صادقون مصدقون؛ هذا الكلام جاء لبيان صحة مذهب السلف من الإيمان بجميع الصفات، الله أعلم بنفسه فكلامه هو الأصدقُ، ورسله صادقون مصدَّقون، فنؤمن بكل ما جاء به الرسل وكل ما جاء عن رب العزة سبحانه وتعالى وكان أصدق قولًا وأحسن حديثًا، وكان رسله عليهم الصلاة والسلام في كل ما يخبرون به عنه معصومين من الكذب عليه، والإخبار عنه بما يخالف الواقع؛ ولذلك وجب التعويل في باب الصفات نفيًا وإثباتًا على ما قاله الله، وقاله رسول الله ﷺ فهو أعلم الخلق بربه سبحانه وتعالى، وأنه لا يترك ذلك إلى قول من يفترون على الله الكذب ويقولون عليه ما لا يعلمون، وبيان ذلك: أن الكلام إنما تقصر دلالته على المعاني المرادة منه؛ لأحد ثلاثة أسباب:

١- إما لجهل المتكلم وعدم علمه بما يتكلم به.

٢- وإما لعدم فصاحته وقدرته على البيان.

٣- وإما لكذبه وغشه وتدليسه.

ونصوص الكتاب والسنة بريئة من هذه الأمور الثلاثة من كل وجه، فكلام الله وكلام رسوله في غاية الوضوح والبيان؛ كما أنه المثل الأعلى في الصدق والمطابقة للواقع؛ لصدوره عن كمال العلم بالنسب الخارجية، وهو كذلك صادر عن تمام النصح، والشفقة، والحرص على هداية الخلق وإرشادهم، فقد اجتمعت له الأمور الثلاثة التي هي عناصر الدلالة والإفهام على أكمل وجه، فالرسول ﷺ أعلم الخلق بما يريد إخبارهم به، وهو أقدرهم على بيان ذلك والإفصاح عنه، وهو أحرصهم على هداية الخلق، وأشدهم إرادة لذلك، فلا يمكن أن يقع في كلامه شيء من النقص والقصور، بخلاف كلام غيره؛ فإنه لا يخلو من نقص في أحد هذه الأمور أو جميعها، فلا يصح أن يعدل بكلامه كلام غيره، فضلًا عن أن يعدل عنه إلى كلام غيره؛ فإن هذا هو غاية الضلال، ومنتهى الخذلان.

قواعد خاصة بالنفي والإثبات في صفات الله وأسمائه:

[ولهذا قال الله تعالى: {سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ*وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ* وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ}[1] فَسَبَّحَ نَفْسَهُ عَمَّا وَصَفَهُ بِهِ الْمُخَالِفُونَ لِلرُّسُلِ، وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ لِسَلَامَةِ مَا قَالُوهُ مِنَ النَّقْصِ وَالْعَيْبِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَمَعَ فِيمَا وَصَفَ وَسَمَّى بِهِ نَفْسَهُ بَيْنَ: النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ].

يعني: اعلم أن كلًا من النفي والإثبات في الأسماء والصفات؛ فيه مجمل ومفصل، أما الإجمال ففي النفي؛ فهو أن يُنْفَى عن اللهِ عزَّ وجلَّ كلُّ ما يضادُّ كمالَه، كما جاء في قوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ}[2]، وقوله: {هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا}[1]، وقوله: {سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ}[2]، وقوله: {وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ}.

---

[1] [الصافات: ١٨٠-١٨٢].

[2] [الشورى: ١١].

أما التفصيل في النفي: فهو أن ينزَّه الله عن كل واحد من هذه العيوب والنقائص بخصوصه، فينزه عن الولد، والوالد، والشريك، والصاحبة، والند، والضد، والجهل، والعجز، والضلال، والنسيان، والسِنة، والنوم، والعبث، والباطل، فقد جاء القرآن الكريم بهذا النفي المفصل، إذًا جاء بالنفي المجمل في مثل هذه الآيات: {وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ}، {هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا}، {لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ}، {سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ}، هذا نفي مجمل.

أما النفي المفصل؛ فنفي للظلم: {وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدا}[٣]، نفي للسِنة {لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ}[٤]، نفي للنوم {لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ}[٥]، نفي للضلال، {لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى}[٦]

وانتبه لهذه القاعدة: ولكن ليس في كتاب الله ولا في السنة نفي محض؛ فإن النفي الصِرف لا مدح فيه، وإنما يراد بكل نفي فيه إثبات ما يضاده من الكمال: فنفي الشريك والند؛ لإثبات كمال عظمته وتفرده بصفات الكمال، ونفي العجز؛ لإثبات كمال قدرته، ونفي الجهل؛ لإثبات سعة علمه وإحاطته، ونفي الظلم؛ لإثبات كمال عدله، ونفي العبث؛ لإثبات كمال حكمته، ونفي السنة والنوم والموت؛ لإثبات كمال حياته وقيوميته.

ولهذا كان النفي في الكتاب والسنة إنما يأتي مجملًا في أكثر أحواله، بخلاف الإثبات، فإن التفصيل فيه أكثر من الإجمال؛ لأنه مقصود لذاته. إذًا النفي لا يأتي في كتاب الله، ولا في سنة الرسول عليه الصلاة والسلام في حق الأسماء والصفات لا منفردًا؛ إنما يأتي لكمال الإثبات، هذا بخلاف منهج المبتدعة؛ فالمبتدعة يقولون: ليس فوق ولا تحت ولا أمام ولا خلف ولا داخل ولا خارج، فهذا نفي كله لا يفيد إلا العدم فلا يفيد المدح، فأنت لو جئت لإنسان تقول له: أنت لست بظالم ولا حيوان ولا بهيم ولا جبار، أنت ما أثبتَ له مدحًا؛ لكنك لو قلت له: أنت عالم، لا يعوزك من العلم شيء؛ فقد أثبتَّ له كمال العلم، فكذلك رب العزة سبحانه وتعالى وصف نفسه بصفات الإثبات، وثنى بالنفي لبيان كمال الإثبات.

يقول الشارح رحمه الله: وأما الإجمال في الإثبات؛ فمثل إثبات الكمال المطلق، والحمد المطلق، والمجد المطلق، ونحو ذلك، كما يشير إليه مثل قوله تعالى: {ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ}[٧]، وقوله تعالى: {وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ}[٨] أثبتَّ لله عز وجل الحمد، وأثبت له المثل.

---

[١] [مريم: ٦٥].
[٢] [المؤمنون: ٩١].
[٣] [الكهف: ٤٩].
[٤] [البقرة: ٢٥٥].
[٥] [البقرة: ٢٥٥].
[٦] [طه: ٥٢].
[٧] [الفاتحة: ٢].
[٨] [النحل: ٦٠].

وأما التفصيل في الإثبات: فهو متناول لكل اسم أو صفة وردت في الكتاب والسنة، وهو من الكثرة بحيث لا يمكن لأحد أن يحصيه؛ فإن منها ما اختص الله عز وجل بعلمه، كما قال عليه الصلاة والسلام: "اللَّهمَّ إنِّي أعوذُ برضاكَ مِن سخطِك وبمعافاتِك مِن عقوبتِك وأعوذُ بِك منكَ لا أُحصي ثناءً علَيكَ أنتَ كما أثنَيتَ علَى نفسِك"[1].

وفي حديث دعاء المكروب قوله: "أسألُكَ بِكُلِّ اسمٍ هوَ لَكَ، سمَّيتَ بِهِ نفسَكَ، أو أنزلتَهُ في كتابِكَ، أو علَّمتَهُ أحدًا مِن خلقِكَ، أوِ استأثَرتَ بِهِ في عِلمِ الغَيبِ عندَكَ"[2].

هذا في بيان الإجمال والتفصيل في النفي والإثبات في أسماء الله عز وجل وصفاته.

ثم يقول شيخ الإسلام رحمه الله: **[فَلَا عُدُولَ لِأَهْلِ السُّنَّة وَالْجَمَاعَة عَمَّا جَاءَتْ بِهِ الْمُرْسَلُونَ، فَإِنَّهُ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ، وَالصِّدِّيقِينَ، وَالشُّهَدَاءِ، وَالصَّالِحِينَ]**، هذا الكلام مترتب على ما تقدم من بيان أن ما جاء به الرسل عليهم الصلاة والسلام هو الحق الذي يجب اتباعه، ولا يصح العدول عنه، وقد علل ذلك بأنه الصراط المستقيم، يعني الطريق السوي القاصد الذي لا عوج فيه ولا انحراف، والصراط المستقيم لا يكون إلا واحدًا؛ ومن زاغ عنه أو انحرف وقع في طريق من طرق الضلال والجور؛ كما قال تعالى: {وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ}[3].

والصراط المستقيم هو طريق الأمة الوسط، الواقع بين طرفي الإفراط والتفريط، ولهذا أمرنا الله عز وجل وعلمنا أن نسأله أن يهدينا هذا الصراط المستقيم في كل ركعة من الصلاة؛ أي: يلهمنا ويوفقنا لسلوكه واتباعه، فإنه صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا.

فضل سورة الإخلاص:

يقول شيخ الإسلام: **[وَقَدْ دَخَلَ فِي هَذِهِ الْجُمْلَة مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي «سُورَة الْإِخْلَاصِ» الَّتِي تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ، حَيْثُ يَقُولُ: (وانظر إلى هذه السورة وما جاء فيها من إثبات ونفي) {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ –أثبت له الأحدية –اللَّهُ الصَّمَدُ –هذا في الإثبات –لَمْ يَلِدْ –هذا نفي للوالدية –وَلَمْ يُولَدْ –هذا نفي للولدية –وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ}[4] –نفي للمشابهة والمكافأة والمماثلة –.]**

فيقول الشارح رحمه الله: وابتدأ بتلك السورة العظيمة؛ لأنها اشتملت من ذلك على ما لم يشتمل عليه غيرها، ولهذا سميت سورة الإخلاص؛ لتجريدها التوحيد من شوائب الشرك والوثنية، ولقد روى الإمام أحمد في مسنده، عن أُبي بن كعب ﷺ في سبب نزولها: أنَّ المشرِكينَ قالوا لرسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ: انسِب لنا ربَّكَ فأنزلَ اللَّهُ تعالى: {قُلْ هُوَ

---

[1] أخرجه مسلم (٤٨٦) من حديث أم المؤمنين عائشة.

[2] أخرجه أحمد (٣٧١٢) من حديث عبد الله بن مسعود. وصححه الألباني في الكلم الطيب (١٢٤).

[3] [الأنعام: ١٥٣].

[4] [الإخلاص: ١ – ٤].

ٱللَّهُ أَحَدٌ* ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ}[1].[2] إلى آخر السورة، وقد ثبت في الصحيح قال رسول الله ﷺ: "والذي نَفْسِي بيَدِهِ، إنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ القُرْآنِ"[3].

وقد اختلف العلماء في تأويل ذلك على أقوال؛ أقربها ما نقله شيخ الإسلام عن أبي العباس، وحاصله أن القرآن الكريم **اشتمل على ثلاثة مقاصد أساسية:**

أولها: الأوامر والنواهي المتضمنة للأحكام والشرائع العملية التي هي موضوع علم الفقه والأخلاق.

ثانيها: القصص والأخبار المتضمنة لأحوال الرسل عليهم الصلاة والسلام مع أممهم، وأنواع الهلاك التي حاقت بالمكذبين لهم، وأحوال الوعد والوعيد، وتفاصيل الثواب والعقاب.

ثالثها: علم التوحيد، وما يجب على العباد من معرفة الله بأسمائه وصفاته، وهذا هو أشرف الثلاثة.

ولما كانت سورة الإخلاص قد تضمنت أصول هذا العلم، واشتملت عليه إجمالًا؛ فصح أن يقال: إنها تعدل ثلث القرآن.

وأما كيف اشتملت هذا السورة على علوم التوحيد كلها، وتضمنت الأصول التي هي مجامع التوحيد العلمي الاعتقادي؟

فنقول: إن قوله تعالى: {اللَّهُ أَحَدٌ} دلت على نفي الشريك من كل وجه: في الذات، وفي الصفات، وفي الأفعال؛ كما دلت على تفرده سبحانه بالعظمة والكمال والمجد والجلال والكبرياء، ولهذا لا يطلق لفظ: {أَحَدٌ} في الإثبات إلا على الله عز وجل، وهو أبلغ من واحد، لا تقول: فلان أحد إلا الله، لكن تقول: فلان واحد أي فرد واحد، لكن إثبات الأحدية ليس إلا لله رب العالمين، وقد بينها في هذه نفي الشريك من كل وجه، ودل على تفرده سبحانه بصفات العظمة والكمال والجلال.

معنى إثبات صفة الصمد في حق الله تعالى:

وقوله: {ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ} قد فسرها ابن عباس ﷺ بقوله: السيد الذي كَمُل في سؤدده، والشريف الذي كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والغني الذي قد كمل في غناه، والجبار الذي قد كمل في جبروته، والعليم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد، وهو الله عز وجل، هذه صفته، لا تنبغي إلا له، ليس له كفء، وليس كمثله شيء[4].

وقد فُسِّرَ الصمد أيضًا بأنه الذي لا جوف له، وبأنه الذي تصمد إليه الخليقة كلها وتقصده في جميع حاجاتها ومهماتها، فإثبات الأحدية لله تضمن نفي المشاركة والمماثلة.

---

[1] [الإخلاص: ١-٢].

[2] أخرجه الترمذي (٣٣٦٤) وضعفه الألباني في (ضعيف الترمذي) (٣٣٦٤).

[3] أخرجه البخاري (٧٣٧٤) من حديث أبي سعيد الخدري.

[4] انظر: تفسير الطبري (٢٤/ ٦٩٢).

وإثبات الصمدية بكل معانيها المتقدمة تتضمن إثبات جميع تفاصيل الأسماء الحسني والصفات العلى، وهذا هو توحيد الإثبات. وانتبه: إلى أن إثبات (الصمد الذي لا جوف له) لله عز وجل من أمور العقيدة المهمة التي ينبغي للمسلم أن يتنبه إليها؛ لأن عقيدة الحلول إنما جاءت من أن الناس يعتقدون أن كل شيء حالٌّ في ذات الله، فينفيها أن الله الصمد (الذي لا جوف له)، فلا يحل فيه شيء، والذين يقولون: إن الله عز وجل في كل مكان؛ كأنهم يثبتون حلول الخلق فيه، وأهل الحلول والاتحاد ينفون عن الله عز وجل صفة الصمدية التي جاءت من معانيها؛ أنه الذي لا جوف له، فهذا هو النوع الأول الذي هو توحيد الإثبات.

وأما النوع الثاني: وهو توحيد التنزيه؛ فيؤخذ من قوله تعالى: {لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}[١]، كما يؤخذ إجمالًا من قوله: {اللَّهُ أَحَدٌ}، أي: لم يتفرع عنه شيء، ولم يتفرع هو عن شيء، وليس له مكافئ ولا مماثل ولا نظير.

فانظر كيف تضمنت هذه السورة توحيد الاعتقاد والمعرفة، وما يجب إثباته للرب تعالى من الأحدية المنافية لمطلق المشاركة، والصمدية المثبتة له جميع صفات الكمال، الذي لا يلحقه نقص بوجه من الوجوه، ونفي الولد والوالد الذي هو من لوازم غناه وصمديته وأحديته، ثم نفي الكفء المتضمن لنفي التشبيه والتمثيل والنظير، فَحُقَ لسورة تضمنت هذه المعارف كلها أن تعدل ثلث القرآن.

فضل آية الكرسي:

يقول شيخ الإسلام: **[وَمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي أَعْظَمِ آيَةٍ فِي كِتَابِهِ. حَيْثُ يَقُولُ: {ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوْمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٖ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ}**[٢]**]**.

يقول الشارح رحمه الله: روى مسلم في صحيحه عن أبي بن كعب أن النبي -ﷺ- قال: "يا أبا المنْذِرِ، أتَدْرِي أيُّ آيَةٍ مِن كِتابِ اللهِ معكَ أعْظَمُ؟ قالَ: قُلتُ: اللَّهُ ورَسولُهُ أعْلَمُ. قالَ:" يا أبا المنْذِرِ أتَدْرِي أيُّ آيَة مِن كِتابِ اللهِ معكَ أعْظَمُ؟ قالَ: قُلتُ: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} قالَ: "فَضَرَبَ في صَدْرِي، وقالَ: واللَّهِ لِيَهْنِكَ العِلْمُ أبا المنْذِرِ"[٣].

وفي رواية عند أحمد(٤) "والذي نفسي بيدِه إنَّ لهذه الآية لسانًا وشفتينِ تقدسُ الملكَ عندَ ساقِ العرشِ".

---

[١] [الإخلاص: ٣، ٤].

[٢] [البقرة: ٢٥٥].

[٣] أخرجه مسلم (٨١٠).

[٤] أخرجه أحمد (٢١٣١٥)، وصححه الألباني في (مختصر العلو) (٢٢).

ولا غرو، فقد اشتملت هذه الآية العظيمة من أسماء الرب وصفاته على ما لم تشتمل عليه آية أخرى، فقد أخبر الله فيها عن نفسه بأنه المتوحد في إلهيته، الذي لا تنبغي العبادة بجميع أنواعها وسائر صورها إلا له سبحانه وحده، {ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ} فهذا أول الآية.

ثم أردف قضية التوحيد بما يشهد لها من ذكر خصائصه وصفاته الكاملة، فذكر أنه {ٱلۡحَيُّ} الذي له كمال الحياة؛ لأن حياته من لوازم ذاته، فهي أزلية أبدية، وكمال حياته يستلزم ثبوت جميع صفات الكمال الذاتية له سبحانه من العزة والقدرة والعلم والحكمة والسمع والبصر والإرادة والمشيئة وغيرها؛ لأن هذا من كمال الحياة إذ لا يتخلف شيء منها إلا لنقص في الحياة، فالكمال في الحياة يتبعه الكمال في سائر الصفات اللازمة للحي.

ثم قرن ذلك باسمه {ٱلۡقَيُّومُ}، ومعناه الذي قام بنفسه، واستغنى عن جميع خلقه غنىً مطلقًا لا تشوبه شائبة حاجة أصلًا؛ لأنه غنىً ذاتي، وبه قامت الموجودات كلها، فهي فقيرة إليه فقرًا ذاتيًا، بحيث لا تستغني عنه لحظة، فهو الذي ابتدأ إيجادها على هذا النحو من الإحكام والإتقان، وهو الذي يدبر أمورها، ويمدها بكل ما تحتاج إليه في بقائها، وفي بلوغ الكمال الذي قدره لها، فهذا الاسم متضمن لجميع صفات الكمال الفعلية، كما أن اسمه الحي متضمن لجميع صفات الكمال الذاتية، واسم القيوم متضمن لجميع صفات الكمال الفعلية، ولهذا ورد أن الحي القيوم هما اسم الله الأعظم الذي إذا سئل به أعطى[1]، وإذا دعي به أجاب، ثم أعقب ذلك بما يدل على كمال حياته وقيوميته، فقال: {لَا تَأۡخُذُهُۥ}؛ أي لا تغلبه {سِنَةٞ}؛ أي نعاس {وَلَا نَوۡمٞ}؛ فإن ذلك ينافي القيومية، إذ النوم أخو الموت، ولهذا كان أهل الجنة لا ينامون؛ ثم ذكر عموم ملكه لجميع العوالم العلوية والسفلية، وأنها جميعًا تحت قهره وسلطانه، فقال: {لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ}، ثم أردف ذلك بما يدل على تمام ملكه، وهو أن الشفاعة كلها له، فلا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، **وقد تضمن هذا النفي والاستثناء أمرين:**

أحدهما: إثبات الشفاعة الصحيحة، وهي أنها تقع بإذنه سبحانه لمن يرضى قوله وعمله،

والثاني: إبطال الشفاعة الشركية التي كان يعتقدها المشركون لأصنامهم، وهي أنها تشفع لهم بغير إذن الله ورضاه، ثم ذكر سعة علمه وإحاطته، وأنه لا يخفى عليه شيء من الأمور المستقبلة والماضية، وأما الخلق؛ فإنهم {وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ}؛ قيل: يعني من علومه.

وقيل: من علم أسمائه وصفاته؛ {إِلَّا بِمَا شَآءَۚ} الله سبحانه أن يعلمهم إياه على ألسنة رسله، أو بغير ذلك من طرق البحث والنظر والاستنتاج والتجربة، ثم ذكر ما يدل على عظيم ملكه، وواسع سلطانه، فأخبر أن كرسيه قد وسع السماوات والأرض جميعًا.

والصحيح في الكرسي أنه غير العرش، وأنه موضع القدمين، وأنه في العرش كحلقة ملقاة في فلاة.

---

[1] أخرجه الطبراني (٧٩٢٥) من حديث أبي أمامة الباهلي. وصححه الألباني في الجامع (٩٧٩).

ثم أخبر سبحانه بعد ذلك عن عظيم قدرته وكمال قوته بقوله: {وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ}؛ أي: السماوات والأرض وما فيهما، ثم وصف نفسه سبحانه في ختام تلك الآية الكريمة بهذين الوصفين الجليلين؛ وهما: {ٱلۡعَلِيُّ}، و{ٱلۡعَظِيمُ}، فالعلي: هو الذي له العلو المطلق من جميع الوجوه، علو الذات: وهو: كونه فوق جميع المخلوقات مستويًا على عرشه، وعلو القدر: إذا كان له كل صفات كمال، وله من تلك الصفة أعلاها وغايتها، وعلو القهر: إذ كان هو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير، وأما العظيم؛ فمعناه الموصوف بالعظمة، الذي لا شيء أعظم منه، ولا أجل، ولا أكبر، وله سبحانه التعظيم الكامل في قلوب أنبيائه وملائكته وأصفيائه، وبعد ذكر سورة الفاتحة، وذكر آية الكرسي –و هما أجمع ما في القرآن في الآيات والصفات –، ثم يأتي شيخ الإسلام بعد ذلك بأمثلة، فيقول: [وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: {هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ}[1]].

ويقول الشارح: هو الأول: الجملة هنا جاءت مُعرفة الطرفين، فهي تفيد اختصاصه سبحانه بهذه الأسماء الأربعة ومعانيها على ما يليق بجلاله وعظمته، فلا يثبت لغيره من ذلك شيء، ويقول الشارح: وقد اضطربت عبارات المتكلمين في تفسير هذه الأسماء، ولا داعي لهذه التفسيرات بعدما ورد تفسيرها عن المعصوم صلوات الله وسلامه عليه، فقد روى مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ أنه كان يقولُ إذا أوي إلى فراشِه: «اللهم رب السماوات ورب الأرض ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، فالق الحب والنوى، ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته، اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عنا الدين، وأغننا من الفقر»[2].

هذا التفسير تفسير رسول الله ﷺ، ضمن ذلك الدعاء لهذه الأسماء، فهذا تفسير واضح جامع يدل على كمال عظمته سبحانه، وأنه محيط بالأشياء من كل وجه، فالأول والآخر: بيان لإحاطته الزمانية.

والظاهر والباطن: بيان لإحاطته المكانية.

كما أن اسمه الظاهر يدل على أنه العالي فوق جميع خلقه، فلا شيء منها فوقه، فمدار هذه الأسماء الأربعة على الإحاطة، فأحاطت أوليته وآخريته بالأوائل والأواخر، وأحاطت ظاهريته وباطنيته بكل ظاهر وباطن.

فاسمه الأول: دال على قِدمه وأذليته، واسمه الآخر: دال على بقائه وأبديته، واسمه الظاهر: دال على علوه وعظمته، واسمه الباطن: دال على قربه ومعيته، ثم ختمت الآية بما يفيد إحاطة علمه بكل شيء من الأمور الماضية والحاضرة والمستقبلة، ومن العالم العلوي والسفلي، ومن الواجبات والجائزات والمستحيلات، فلا يغيب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، فالآية كلها في شأن إحاطة الرب سبحانه بجميع خلقه من كل وجه، وأن العوالم كلها في قبضة يده؛ كخردلة في يد العبد، لا يفوته منها شيء، وإنما أتى بين هذه الصفات بالواو، مع أنها جارية على موصوف واحد؛ لزيادة التقرير والتأكيد، ولأن الواو تقتضي تحقيق الوصف المتقدم وتقريره، وحسن ذلك لمجيئها بين أوصاف متقابلة قد

---

[1] [الحديد: ٣].

[2] أخرجه مسلم (٢٧١٣).

يسبق إلى الوهم استبعاد الاتصال بها جميعا؛ فإن الأولية تنافي الآخرية في الظاهر، وكذلك الظاهرية والباطنية، فاندفع توهم الإنكار بذلك التأكيد بحرف الواو الذي جاء بينها في قوله: {هُوَ ٱلۡأَوَّلُ} ومع أنه الأول فهو الآخر، {وَٱلظَّٰهِرُ} ومع أنه الظاهر فهو الباطن، {وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ}.

صفة الحياة:

[وقوله سبحانه: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ}[1]].

يقول الشارح: قوله: **{وَتَوَكَّلْ}** إلى آخرها، هذه الجملة من الآيات ساقها المؤلف؛ لإثبات بعض الأسماء والصفات، فالآية الأولى فيها إثبات اسمه الحي، كما تضمنت سلب الموت الذي هو ضد الحياة عنه، وقد قدمنا أنه سبحانه حي بحياة –هي صفة له لازمة لذاته –، فلا يعرض لها موت ولا زوال أصلًا، وأن حياته أكمل حياة وأتمها، فيستلزم ثبوتها له ثبوت كل كمال، يضاد نفيه كمال الحياة.

صفة العلم:

وأما الآيات الباقية؛ ففيها إثبات صفة العلم وما اشتق منها؛ ككونه عليمًا، وأحاط بكل شيء علمًا.

[وقوله: {وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ}[2]، {وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا}[3]، {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}[4]، وقوله: {وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ}[5]، وقوله: {لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا}[6]].

يقول الشارح: والعلم صفة لله عز وجل، بها يدرك جميع المعلومات على ما هي به، فلا يخفى عليه منها شيء – كما قدمنا –و فيها إثبات اسمه الحكيم، وهو مأخوذ من الحكمة، ومعناه: الذي لا يقول ولا يفعل إلا الصواب، فلا يقع منه عبث ولا باطل، بل كل ما يخلقه أو يأمر به فهو تابع لحكمته، وقيل: هو من فعيل بمعنى مفعل، ومعناه: المحكِم للأشياء، من الإحكام: وهو الإتقان، فلا يقع في خلقه تفاوت ولا فطور، ولا يقع في تدبيره خلل أو اضطراب، وفيها كذلك إثبات اسمه الخبير، وهو من الخِبرة؛ بمعنى كمال العلم ووثوقه، والإحاطة بالأشياء على وجه التفصيل، ووصول علمه إلى ما خفي ودق من الحسيات والمعنويات، وقد ذكر سبحانه في هذه الآيات بعض ما يتعلق به علمه؛ للدلالة على شموله وإحاطته بما لا تبلغه علوم خلقه، فذكر أنه: {يَعْلَمُ مَا يَلِجُ}؛ أي: يدخل {فِي الْأَرْضِ} من حب وبذر ومياه وحشرات ومعادن، {وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا} من زرع وأشجار وعيون جارية ومعادن نافعة كذلك، {وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ} من

---

[1] [الفرقان: ٥٨].

[2] [التحريم: ٢].

[3] [سبأ: ١، ٢].

[4] [الأنعام: ٥٩].

[5] [فاطر: ١١] [فصلت: ٤٧].

[6] [الطلاق: ١٢].

ثلج وأمطار وصواعق وملائكة، {وَمَا يَعْرُجُ}؛ أي: يصعد {فِيهَا} كذلك من ملائكة وأعمال وطير صواف إلى غير ذلك مما يعلمه جل شأنه، وذكر فيها أيضًا أن: {عِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ}، ومفاتح الغيب؛ قيل: خزائنه. وقيل: طرقه وأسبابه التي يتوصل بها إليه، جمع مِفتح؛ بكسر الميم، أو مُفتاح؛ بحذف ياء مفاعيل.

وقد فسرها النبي ﷺ بقوله:" في خمس لا يعلمهن إلا الله "، ثم تلا قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}[1].[2]

وقد دلت الآيتان الأخيرتان على أنه سبحانه عالم بعلم هو صفة له، قائم بذاته، خلافًا للمعتزلة الذين نفوا صفاته، فمنهم من قال: إنه عالم بذاته، وقادر بذاته.. إلخ، ومنهم من فسر أسماءه بمعان سلبية، فقال: عليم، معناه: لا يجهل. وقادر، معناه: لا يعجز.... إلخ.

وهذه الآيات حجة عليهم، فقد أخبر فيها سبحانه عن إحاطة علمه، بحمل كل أنثى ووضعها من حيث المعنى والكيف، كما أخبر عن عموم قدرته، وتعلقها بكل ممكن، وعن إحاطة علمه بجميع الأشياء.

وما أحسن ما قاله الإمام عبد العزيز المكي في كتابه (الحيدة) لبشر المريسي المعتزلي وهو يناظره في مسألة العلم: (إن الله عز وجل لم يمدح في كتابه ملكًا مقربًا ولا نبيًا مرسلًا ولا مؤمنًا تقيًا بنفي الجهل عنه؛ ليدل على إثبات العلم له، وإنما مدحهم بإثبات العلم لهم، فنفى بذلك الجهل عنهم، فمن أثبت العلم نفى الجهل، ومن نفى الجهل لم يثبت العلم).

والدليل العقلي على علمه تعالى: أنه يستحيل إيجاده الأشياء مع الجهل؛ لأن إيجاده الأشياء بإرادته، والإرادة تستلزم العلم بالمراد، ولهذا قال سبحانه: {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}[3]؛ ولأن المخلوقات فيها من الإحكام والإتقان وعجيب الصنعة ودقيق الخلقة ما يشهد بعلم الفاعل لها؛ لامتناع صدور ذلك عن غير علم.

ولأن من المخلوقات من هو عالم، والعلم صفة كمال، فلو لم يكن الله عالمًا؛ لكان في المخلوقات من هو أكمل منه.

وكل علم في المخلوق إنما استفاده من خالقه، وواهب الكمال أحق به، وفاقد الشيء لا يعطيه.

وأنكرت الفلاسفة علمه تعالى بالجزئيات، وقالوا: إنه يعلم الأشياء على وجه كلي ثابت، وحقيقة قولهم أنه لا يعلم شيئًا؛ فإن كل ما في الخارج هو جزئي.

كما أنكر الغلاة من القدرية علمه تعالى بأفعال العباد حتى يعملوها؛ توهمًا منهم أن علمه بها يفضي إلى الجبر، وقولهم معلوم البطلان بالضرورة في جميع الأديان.

وقوله: {إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ}[4].

---

[1] [لقمان: ٣٤].

[2] أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩).

[3] [الملك: ١٤].

[4] [الذاريات: ٥٨].

يقول الشارح: {إن الله هو} فجاء بضمير الفصل هو، لبيان التأكيد لاختصاصه هو الله الرزاق، {إن الله هو الرزاق}، وجاء في التعريف بالجملة الاسمية {هو الرزاق} لبيان التأكيد للتعريف بأنه سبحانه مختص وحده بالرزق؛ فليس هناك من رازق إلا الله، ولذلك فإن كثير من العوام يقولون: فلان قطع رزق فلان، وهذا كلام لا يجوز أن ننسب لأحد من الخلق إيصال رزق، ولا قطع رزق؛ لأن الذي يوصل الرزق هو الله، والذي يقطعه هو الله، والخلق أسباب؛ لكن الرزاق هو الله رب العالمين، ورب العالمين إذ قال: {وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ}[1] يعني: لا يستطيع أحد أن يسرق رزق أحد.

انتبه إلى التفصيل الذي ذكره من أن الرزق فيه حلال وحرام؛ فكل واحد يأكل رزقه، ليس هناك من أحد يأكل حق غيره، المال الذي اكتسبته هذا حقي وليس من الضروري إذا كان حقي أن يكون رزقي، فقد يكون حقي ورزق غيري، وقد يكون حق غيري ورزقي، وقد يكون حقي ورزق غيري حلالًا له أن يأخذه، وحقي ورزق غيري حرامًا له أن يأخذه.

يعني مثلًا: جاءني أضياف فجلسوا عندي، فقدمت إليهم الطعام، هذا مالي وهو رزق لهم حلال أحله الله رب العالمين، هو حقي ولكنه رزق لهم حلال.

وجاء آخر وسرق من مالي هو حقي فهو رزقه حرام عليه.

ففرّق بين الرزق والحق، وعدم التفريق بينها يؤدي إلى الوقوع في كثير من الأخطاء.

وقوله: {ذو القوة}؛ أي صاحب القوة؛ فهو بمعنى اسمه القوي؛ إلا أنه أبلغ في المعنى، فهو يدل على أن قوته سبحانه [لا تتناقص فَيَهم أو يفتر] وأما {المتين؛ فهو اسم له من المتانة، وقد فسره ابن عباس بـ: الشديد.

وقوله سبحانه: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}[2].

وقوله {إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا}[3] في هاتين الآيتين إثبات اسمه السميع والبصير، ولكن الآية الأولى جمعت بين الإثبات والنفي، فهي دالة على إثبات صفتي السمع والبصر له سبحانه بعد أن نفت المثل عنه، على أنه ليس المراد من نفي المثل نفي الصفات؛ كما يدعي ذلك المعطلة، ويحتجون به باطلًا، ولذلك جاءت الآية الكريمة جامعة {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}[4]، نفي وإثبات.

يقول ابن القيم: قوله: {ليس كمثله شيء} إنما قصد به نفي أن يكون معه شريك أو معبود يستحق العبادة والتعظيم؛ كما يفعله المشبهون والمشركون، يقصد به نفي صفات: كماله، وعلوه على خلقه، وتكلمه بكتبه، وتكلمه لرسله، ورؤية المؤمنين له جهرة بأبصارهم كما ترى الشمس والقمر في الصحو.

و{السميع}: المدرك لجميع الأصوات مهما خفتت، فهو يسمع السر والنجوى بسمع هو صفة لا يماثل أسماع خلقه.

---

[1] [الذاريات: ٢٢].

[2] [الشورى: ١١].

[3] [النساء: ٥٨].

[4] [الشورى: ١١].

و{البصير}: المدرك لجميع المرئيات من الأشخاص والألوان مهما لطفت أو بعدت، فلا تؤثر على رؤيته الحواجز والأستار، وهو فعيل بمعنى مفعل، وهو دال على ثبوت صفة البصر له سبحانه على الوجه الذي يليق به.

وقد روى أبو داود في «سننه» عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية: {إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا}، فوضع إبهامه على أذنه، والتي تليها على عينيه"[1].

ننتبه إلى هذا الفعل، وهذا الحديث صحيح في سنن أبي داود، هذا الفعل ليس تشبيهًا يعني بعض الناس يظنون أنه عندما يقول: "إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ"[2].

ويشير بأصابعه أن هذا تشبيه، هذا فعله الرسول عليه الصلاة والسلام.

وأقر ﷺ الحَبْر على قوله: "كيف أنت إذا جاء ربك يوم القيامة، وقد وضع الأرضين على أصبع، والسماوات على أصبع"[3]، يشير إلى أصابعه، فهذا من قبيل التفسير وليس من قبيل التشبيه؛ فانتبه ليس ذلك تشبيهًا فهو سبحانه: {ليس كمثله شيء}.

وهذا الحديث معناه: أنه سبحانه يسمع بسمع، ويرى بعين، فهو حجة، على بعض الأشاعرة الذين يجعلون سمعه: علمه بالمسموعات، وبصره: علمه بالمبصرات، وهو تفسير خاطئ؛ فإن الأعمى يعلم بوجود السماء ولا يراها، والأصم يعلم بوجود الأصوات ولا يسمعها.

يقول ابن تيمية رحمه الله: وقوله سبحانه: {وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ}[4] هنا جاء إثبات صفة المشيئة.

وقوله: {وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ}[5] إثبات صفة المشيئة، وصفة الإرادة.

وقوله: {أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ}[6] إثبات صفة الإرادة.

وقوله: {فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ}[7] إثبات صفة الإرادة له سبحانه وتعالى.

الشارح رحمه الله يقول: إن هذه الآيات دالة على صفتي الإرادة والمشيئة، والنصوص في ذلك لا تحصى.

يقول: والأشاعرة: يثبتون إرادة واحدة قديمة تعلقت في الأزل بكل المرادات يعني: كأن الله عز وجل ليست له مشيئة، لم يشأ أن يحدث ذلك اليوم، أو أن يحدث ذلك غدًا، لم يشأ الشيء عند حدوثه، إنما يثبتون مشيئة قديمة.

---

[1] أخرجه أبو داود (٤٦٥٠). وصححه الألباني في صحيح موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان (٣٧).

[2] أخرجه مسلم (٦٨٤٤).

[3] أخرجه البخاري (٤٨١١)، ومسلم (٧١٧٤) من حديث ابن مسعود.

[4] [الكهف: ٣٩].

[5] [البقرة: ٢٥٣].

[6] [المائدة: ١].

[7] [الأنعام: ١٢٥].

والمعتزلة: لا يثبتون صفة الإرادة، ويقولون: بل يريد بإرادة حادثة، كأنهم يقولون: الإرادة مخلوقة، شيء قائم بذاته.

يقول الشارح رحمه الله: وهذا من أبطل الباطل. أن تكون إرادة الله أو مشيئة الله مخلوقة، أو أن تكون له إرادة واحدة قديمة.

يعني لم يرد أن يوجد فلان اليوم، أو يموت فلان اليوم، وإنما إرادة قديمة.

وأما أهل الحق؛ فيقولون: إن الإرادة على نوعين: إرادة كونية: وهي مرادفة للمشيئة، وإرادة شرعية: وهي وحيه لأنبيائه ورسله الذي أَمر به الخلق ليعملون.

١ –فالإرادة الكونية: هي التي تتعلق بكل ما يشاء الله فعله وإحداثه، فهو سبحانه إذا أراد شيئًا وشاءه؛ كان عقب إرادته له؛ كما قال تعالى: {إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ}[١].

وفي الحديث الصحيح: "ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن"[٢]، فهذا مقصد الإرادة الكونية.

٢ –والإرادة الشرعية: تتعلق بما يأمر الله به عباده مما يحبه ويرضاه، وهي المذكورة في مثل قوله تعالى: {يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ}[٣] أي: تفطروا إذا لم تستطيعوا الصوم لمرض أو سفر، هذا هو اليسر الذي أراده الله عز وجل، ولا يريد بكم العسر.

وهنا نتدبر أن الإرادة الكونية والشرعية يتفقان ويفترقان، يعني الله أنزل الوحي على مُحَمَّد ﷺ يدعو الناس للإيمان، فآمن أبو بكر، إذًا أراد الله لأبي بكر الإيمان فهذه إرادة شرعية ولا كونية؟ كونية، وشرعية، أراد له الإيمان كونًا فكان، وأراد له الإيمان شرعًا فآمن.

وأراد الله الإيمان لأبي جهل كونية ولا شرعية؟ أراد له إرادة شرعية، ولم يرد له إرادة كونية.

فالإرادة الكونية لا تتخلف، والإرادة الشرعية هي المتعلقة باستجابة العبد وتركه، فقد يريد الله عز وجل بعبد اليسر شرعًا، فلا يصوم؛ لأن الصوم يضعفه، ويصوم فيضعف بالصوم، الله أراد له شرعًا اليسر، وهو أراد بنفسه العسر، ووقعت إرادة العسر التي أرادها الله عز وجل كونًا.

يقول: فالإرادة الكونية أعم من جهة تعلقها بما لا يحبه الله ويرضاه من الكفر والمعاصي، وأخص من جهة أنها لا تتعلق بمثل إيمان الكافر وطاعة الفاسق، فكأن كفْرُ الكافر طاعة أو امتثال للأمر الكوني والإرادة الكونية لله عز وجل، ومخالفة للإرادة الشرعية.

والإرادة الشرعية أعم من جهة تعلقها بكل مأمور به واقعًا كان أو غير واقع، وأخص من جهة أن الواقع بالإرادة الكونية قد يكون غير مأمور به، يعني: إرادة شرعية واقع أو غير واقع، نقول: إيمان أبو بكر وقعت به الإرادة الشرعية، والكونية، وإيمان أبو جهل وقعت به الإرادة الشرعية وخالف في الإرادة الكونية هذا معنى أعم وأخص.

---

[١] [يس: ٨٢].

[٢] أخرجه أبو داود (٥٠٧٥). وضعفه الألباني في تخريج الكلم الطيب (٢٨).

[٣] [البقرة: ١٨٥].

والحاصل أن الإرادتين قد تجتمعان معًا في مثل إيمان المؤمن، وطاعة المطيع، يعني: الله عز وجل أمره بالإيمان فأراد له الإيمان شرعًا، أمره بالطاعة فأراد له الطاعة شرعًا، وقدر له الإيمان فأراده له كونًا، وقدر له الطاعة فأرادها له كونًا.

وهنا لا يجوز لعبد أن يحتج بالإرادة الكونية، ويجوز له أن يحتج بالإرادة الشرعية، يعني مثلًا: أراك خرجت من بيتك في الساعة الرابعة صباحًا، فأسألك ما أخرجك في ذلك الوقت؟ فتحتج بأن وقت صلاة الصبح قد جاء، إذًا أنت تحتج بأن وقت صلاة الصبح قد جاء مع أنه لم يؤذن بعد، لأنك تعلم أن الله عز وجل يقدر عليك صلاتك.

لكن يقول قائل لماذا لم تصل؟ يقول: والله ربنا كتب عليَّ، من الذي أعلمك أن الله كتب عليك؟! لكن الكتابة المعروفة {إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا}[1].

كتابًا هنا بمعنى: مكتوبة أي مفعولة، {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ}[2] فلو جئت لرجل لماذا لا تصوم؟ يقول: "هذه إرادة الله، إذا أراد ربنا لنا أن نصوم".

والجواب: أن الله سبحانه أراد لك الصيام.

أما الإرادة الكونية: فأنت لا تعلمها، اليوم السبت وينتهي السبت بغروب الشمس، ويأتي ليلة الأحد ثم يوم الأحد، كم صلاة مكتوبة عليك يوم الأحد؟ خمسة، إذًا أنت تعرفها قبل أن يأتي يوم الأحد، إذًا أنت تعرف الإرادة الشرعية، لكن كم صلاة ستؤديها أنت فعلًا يوم الأحد؟ الجواب؟ لا أدري، قد أموت قبل أن يأتي يوم الأحد، قد أموت قبل أن تأتي الصلاة الأخيرة، قد أموت بعد صلاتين منه، وهكذا.

إذًا الإرادة الكونية: لا يعلمها إلا الله، فلا يجوز لعبد أن يحتج بها.

أما الإرادة الشرعية: فهي معلومة مسبقًا والحجة عليها قائمة، إذًا فالمحتجون بالقدر مخطئون في أمرهم لأنهم احتجوا بما لا يجوز الاحتجاج به ولم يُعلمهم الله عز وجل إياه، وإنما يعلمونه بعد وقوعه، فقد يدبر الناس ويرتب لقتل إنسان ثم تأتي الأحداث وتأتي الأمور كما أرادوا ولا يُقتل وإنما هم كسبوا إثم ذلك كله؛ لأن الله لم يكتب عليه القتل، وقد يصوبون إليه آلة القتل وتصيبه في مقتل ولم يخلق الله عز وجل له موتًا فيبقى حيًا ويعافى، إذا لا يجوز أن يُحتج بالقدر.

يقول الشارح رحمه الله: وتنفرد الشرعية في مثل إيمان الكافر، وطاعة العاصي، وقوله تعالى: {وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ}[3] الآية؛ هذا في قول الله حكاية عن الرجل المؤمن لزميله الكافر صاحب الجنتين؛ يعظه به أن يشكر نعمة الله عليه، ويردها إلى مشيئة الله، ويبرأ من حوله وقوته؛ فإنه لا قوة إلا بالله.

وقوله: {وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ}[4] الآية؛ إخبار عما وقع بين أتباع الرسل من بعدهم: من التنازع، والتعادي بغيًا بينهم وحسدًا، وأن ذلك إنما كان بمشيئة الله عز وجل، ولو شاء عدم حصوله ما حصل، ولكنه شاءه فوقع.

---

[1] [النساء: ١٠٣].

[2] [البقرة: ١٨٣].

[3] [الكهف: ٣٩].

[4] [البقرة: ٢٥٣].

وقوله: {فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ}[1] إلى آخر الآية. تدل على أن كلًا من الهداية والضلال بخلق الله عز وجل، فمن يرد هدايته أي: إلهامه وتوفيقه يشرح صدره للإسلام، بأن يقذف في قلبه نورًا، فيتسع له، وينبسط؛ كما ورد في الحديث، ومن يرد إضلاله وخذلانه يجعل صدره في غاية الضيق والحرج، فلا ينفذ إليه نور الإيمان، وشبه ذلك بمن يصعَّد في السماء.

يقول شيخ الإسلام: وقوله: {وَٱحۡسِنُوٓاْۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ}(٢)، {وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ}[3]، {فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ}(٤)، {إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ} [البقرة: ٢٢٢]، وقوله: {قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ}[5]، وقوله: {فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ}[6]، وقوله: {إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ}[7].

هذه الآيات تضمنت إثبات أفعال له تعالى ناشئة عن صفة المحبة، ومحبة الله عز وجل لبعض الأشخاص والأعمال والأخلاق صفة له قائمة به، وهي من صفات الفعل الاختيارية التي تتعلق بمشيئته، فهو يحب بعض الأشياء دون بعض على ما تقتضيه الحكمة البالغة.

الأشاعرة والمعتزلة نفوا صفة المحبة؛ بدعوى أنها توهم نقصًا؛ إذ المحبة في المخلوق معناها ميله إلى ما يناسبه أو يستلذه.

أما الأشاعرة ؛ فيرجعونها إلى صفة الإرادة، فيقولون: إن محبة الله لعبده لا معنى لها إلا إرادته لإكرامه ومثوبته.

وكذلك يقولون في صفات الرضا والغضب والكراهية والسخط؛ كلها عندهم بمعنى إرادة الثواب والعقاب. هذا كلام الأشاعرة وقد ضلوا بذلك.

وأما المعتزلة؛ فلأنهم لا يثبتون إرادة قائمة به، فيفسرون المحبة بأنها نفس الثواب الواجب عندهم على الله لهؤلاء؛ بناء على مذهبهم في وجوب إثابة المطيع وعقاب العاصي فهذا مذهبهم الباطل.

وأما أهل الحق؛ فيثبتون المحبة صفة حقيقية لله عز وجل على ما يليق به، فلا تقتضي عندهم نقصًا ولا تقتضي عند أهل السنة تشبيهًا، كما يثبتون لازم تلك المحبة، وهي إرادته سبحانه إكرام من يحبه وإثابته.

يقول الشارح رحمه الله: وليت شعري بماذا يجيب النافون للمحبة عن مثل قوله عليه السلام في حديث أَبِي هُرَيْرَة، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، قَالَ: فَيُحِبُّهُ

---

[1] [الأنعام: ١٢٥].
[2] [البقرة: ١٩٥].
[3] [الحجرات: ٩].
[4] [التوبة: ٧].
[5] [آل عمران: ٣١].
[6] [المائدة: ٥٤].
[7] [الصف: ٤].

جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، قَالَ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ..."(١) .

وقوله تعالى في الآية الأولى: {وَأَحۡسِنُوٓاْ} أمر بالإحسان العام في كل شيء؛ لا سيما في النفقة المأمور بها قبل ذلك، والإحسان فيها يكون بالبذل وعدم الإمساك، وبالتوسط بين التقتير والتبذير، وهو القوام الذي أمر الله به في سورة الفرقان.

وروى مسلم في صحيحه: أن رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: "إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ"(٢).

وأما قوله: {إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ} فهو تعليل للأمر بالإحسان، فإنهم إذا علموا أن الإحسان موجب لمحبته؛ سارعوا إلى امتثال الأمر به.

وأما قوله في الآية الثانية: {وَأَقۡسِطُوٓاْ}؛ فهو أمر بالإقساط، وهو العدل في الحكم بين الطائفتين المتنازعتين من المؤمنين، وهو من قسط؛ إذا جار، فالهمزة فيه للسلب، ومن أسمائه تعالى: المقسط، وفي الآية الحث على العدل وفضله، وأنه سبب لمحبة الله عز وجل.

وأما قوله تعالى: {فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ}؛ فمعناه: إذا كان بينكم وبين أحد عهد كهؤلاء الذين عاهدتموهم عند المسجد الحرام؛ فاستقيموا لهم على عهدهم مدة استقامتهم لكم، فـ (ما) هنا مصدرية ظرفية. ثم علل ذلك الأمر بقوله: {إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ}؛ أي: يحب الذين يتقون الله في كل شيء، ومنه عدم نقض العهود.

وأما قوله: {إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ...} إلخ؛ فهو إخبار من الله سبحانه وتعالى عن محبته لهذين الصنفين من عباده، التوابين: الذين يكثرون التوبة والرجوع إلى الله عز وجل، والمتطهرين: الذين يبالغون في التطهير والتنظيف بالوضوء أو الغسل من الأحداث والنجاسات الحسية.

وأما قوله: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ}(٣)؛ فقد روي عن الحسن(٤) في سبب نزولها أن قومًا ادعوا ادعوا أنهم يحبون الله، فأنزل الله هذه الآية محنة لهم، وفي هذه الآية قد شرط الله لمحبته اتباع نبيه ﷺ ، فلا ينال تلك المحبة؛ إلا من أحسن الاتباع والاستمساك بهديه عليه السلام.

يقول شيخ الإسلام: وقوله: **{وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ}**(٥)، وقوله: **{بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ}**(٦)، **{رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡما}**(٧)، **{وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا}**(١)، **وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡء}**(٢)، **{كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ**

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٨٥)، ومسلم (٢٦٣٧).

(٢) أخرجه مسلم (١٩٥٥).

(٣) [آل عمران: ٣١].

(٤) أخرجه الطبري في التفسير (٥/ ٣٢٥).

(٥) [البروج: ١٤].

(٦) [الفاتحة: ١].

(٧) [غافر: ٧].

نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ}[٣]، {**وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ**}[٤]، {**فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ**}[٥] ننظر في هذه الآيات فنرى أنه أثبت أسماءً وصفاتٍ.

فمن الأسماء: الغفور، الودود، الرحمن، الرحيم، هذه الأسماء التي جاءت في هذه الآيات.

ومن الصفات: وسعت كل شيء رحمةً وعلمًا، ورحمتي وسعت كل شيء، كتب ربكم على نفسه الرحمة، فمن صفاته الرحمة والعلم. وهو خير حافظا وهو أرحم الراحمين.

يقول الشارح رحمه الله: قوله: {وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ}: تضمنت الآية إثبات اسمين:

الأول: فهو مبالغة في الغفر، ومعناه الذي يكثر منه الستر على المذنبين من عباده، والتجاوز عن مؤاخذتهم.

والثاني: الودود، فهو من الود الذي هو خالص الحب وألطفه، وهو إما من فعول بمعنى فاعل، فيكون معناه: الكثير الود لأهل طاعته، والمتقرب إليهم بنصره لهم ومعونته. وإما من فعول بمعنى مفعول، فيكون معناه: المودود لكثرة إحسانه، المستحق لأن يوده خلقه فيعبدوه ويحمدوه.

وأما قوله: {بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ} وما بعدها من الآيات؛ فقد تضمنت إثبات اسميه الرحمن والرحيم، وإثبات صفتي الرحمة والعلم.

وقد أنكرت الأشاعرة والمعتزلة صفة الرحمة بدعوى أنها في المخلوق ضعف وخوَر وتألم للمرحوم، وهذا من أقبح الجهل، فإن الرحمة إنما تكون من الأقوياء للضعفاء، فلا تستلزم الرحمة ضعفًا ولا خورًا؛ بل قد تكون مع غاية العزة والقدرة، فالإنسان القوي يرحم ولده الصغير وأبويه الكبيرين ومن هو أضعف منه، فأين الضعف والخَوَر – وهما من أذم الصفات– من الرحمة التي وصف الله نفسه بها، وأثنى على أوليائه المتصفين بها، وأمرهم ان يتواصوا بها.

وقوله سبحانه: {رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا}[٦] من كلام الله عز وجل حكاية عن حملة العرش والذين حوله، يتوسلون إلى الله عز وجل بربوبيته وسعة علمه ورحمته في دعائهم للمؤمنين، وهو من أحسن التوسلات التي يرجى معها الإجابة.

وقوله: {رَّحۡمَة وَعِلۡمٗا} نصب على التمييز المحول عن الفاعل، والتقدير: وسعت رحمتك وعلمك كل شيء. فرحمته سبحانه وسعت في الدنيا المؤمن والكافر والبر والفاجر، ولكنها يوم القيامة تكون خاصة بالمتقين؛ كما قال تعالى: {فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰة}[٧].

---

(١) [الأحزاب: ٤٣].
(٢) [الأعراف: ١٥٦].
(٣) [الأنعام: ٥٤].
(٤) [يونس: ١٠٧].
(٥) [يوسف: ٦٤].
(٦) [غافر: ٧].
(٧) [الأعراف: ١٥٦].

وقوله: {كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ}[1] أي: أوجبها على نفسه تفضلًا وإحسانًا، ولم يوجبها عليه أحد، كما ظنت المعتزلة.

وفي حديث أَبِي هُرَيْرَة، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: "إِنَّ اللَّهَ لَمَّا قَضَى الخَلْقَ، كَتَبَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي"[2].

وأما قوله: {فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}[3] فالحافظ والحفيظ مأخوذ من الحفظ، وهو الصيانة، ومعناه: الذي يحفظ عباده بالحفظ التام، فييسر لهم أقواتهم، ويقيهم أسباب الهلاك والعطب، وكذلك يحفظ عليهم أعمالهم، ويحصي أقوالهم، ويحفظ أولياءه بالحفظ الخاص، فيعصمهم عن مواقعة الذنوب، ويحرسهم من مكايد الشيطان عن كل ما يضرهم في دينهم ودنياهم.

فالله عز وجل حافظ بقدره، وحافظ بشرعه يعني: الله حفظ الطفل الصغير بقدر رحمة أودعها في قلب الوالدين، وحفظ الأب عند كبره وضعفه بشرع أمر به الأبناء أن يرحموا الآباء إذا كبروا، إذًا هذا حفظ بالشرع، وهذا حفظ بالقدر، فالله خير حافظًا بقدره وشرعه.

ويقول شيخ الإسلام قوله: {**رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ**}[4] إذًا انتقل من صفة المحبة، وصفة الرحمة إلى صفة الرضا فيقول: {**رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ**}[5] وقوله: {**وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنا مُّتَعَمِّدا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ**}[6] إذًا صفة الغضب.

وقوله: {**ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ**}[7]، فالله يسخط.

وقوله: {**فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ**}[8] فهو المنتقم فمن صفاته الانتقام.

وقوله: {**وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ**}[9] فالكره صفة لله عز وجل.

وقوله: {**كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ**}[10]، والمقت أيضًا من أفعاله.

فيقول رحمه الله: تضمنت هذه الآيات إثبات بعض صفات الفعل من الرضى لله، والغضب، واللعن، والكره، والسخط، والمقت، والأسف، وهي عند أهل الحق صفات حقيقية لله عز وجل، على ما يليق به، ولا تشبه ما يتصف به

---

[1] [الأنعام: ١٢، ٥٤].
[2] أخرجه البخاري (٧٤٢٢).
[3] [يوسف: ٦٤].
[4] [المائدة: ١١٩].
[5] [المائدة: ١١٩].
[6] [النساء: ٩٣].
[7] [محمد: ٢٨].
[8] [الزخرف: ٥٥].
[9] [التوبة: ٤٦].
[10] [الصف: ٣].

المخلوق من ذلك، ولا يلزم منها ما يلزم من المخلوق، يعني أن الغضب يكون من غيظ قلب أو أن يصيبه ضر من ذلك فيغضب ليس ذلك إلا في صفات المخلوقين، أما صفات الله عز وجل فهي تليق بجلاله.

فيقول: فلا حجة للأشاعرة والمعتزلة على نفيها، ولكنهم ظنوا أن اتصاف الله عز وجل بها يلزمه أن تكون هذه الصفات فيه على نحو ما هي في المخلوق، وهذا الظن الذي ظنوه في ربهم أرداهم فأوقعهم في حمأة النفي والتعطيل.

والأشاعرة: يرجعون هذه الصفات كلها إلى الإرادة؛ كما علمت سابقًا، فالرضا عندهم إرادة الثواب، والغضب والسخط... إلخ إرادة العقاب.

وأما المعتزلة: فيرجعونها إلى نفس الثواب ونفس العقاب يعني: يقول: رضا الله ثوابه، وغضب الله عقابه، فالغضب والرضا صفتان من صفات الله عز وجل، وإيقاع الثواب والعقاب من أفعاله سبحانه.

وقوله: {رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ}[1] إخبار عما يكون بينه وبين أوليائه من تبادل الرضا والمحبة، أما رضاه عنهم؛ فهو أعظم وأجل من كل ما أعطوا من النعيم؛ ولذلك يقول: {وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ}[2]، وأما رضاهم عنه؛ فهو رضا كل منهم بمنزلته مهما كان، وسروره بها؛ حتى يظن أنه لم يؤت أحد خيرا مما أوتي، وذلك في الجنة.

وأما قوله: {وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنا مُتَعَمِّدًا..}[3] الآية، فهي احتراز بقوله: {مؤمنًا} عن قتل الكافر، وبقوله: {متعمدًا} أي: قاصدا لذلك، بأن يقصد من يعلمه آدميًا معصومًا، فيقتله بما يغلب على الظن موته به، وذلك احتراز من القتل الخطأ.

وقوله: {خالدًا فيها} أي: مقيمًا، واللعن: هو الطرد والإبعاد من رحمة الله.

وقد استشكل العلماء هذه الآيات من حيث إنها تدل على أن القاتل عمدًا لا توبة له، وأنه مخلد في النار، وهذا معارض لقوله تعالى: {إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ}(٤)، والقتل من دون ما هو الشرك. الشرك.

فيقول: إجابة العلماء فيها أربع إجابات:

الأول: أن هذا الجزاء لمن كان مستحلًا قتل المؤمن عمدًا،

الثاني: أن هذا هو الجزاء الذي يستحقه لو جوزي، مع إمكان أن لا يجازى، بأن يتوب أو يعمل صالحًا يرجح بعمله السيئ.

الثالث: أن الآية واردة مورد التغليظ والزجر.

الرابع: أن المراد بالخلود المكث الطويل في النار.

---

[1] [المائدة: ١١٩] [التوبة: ١٠٠] [المجادلة: ٢٢] [البينة: ٨].

[2] [التوبة: ٧٢].

[3] [النساء: ٩٣].

[4] [النساء: ٤٨].

ثم يقول: وقد ذهب ابن عباس وجماعة إلى أن القاتل عمدا لا توبة له، حتى قال ابن عباس: "إن هذه الآية من آخر ما نزل، ولم ينسخها شيء".

والصحيح: أن على القاتل حقوقًا ثلاثة: حقًا لله، وحقًا للورثة، وحقًا للقتيل.

١ -فحق الله يسقط بالتوبة.

٢ -وحق الورثة يسقط بالاستيفاء في الدنيا أو العفو.

٣ -وأما حق القتيل؛ فلا يسقط حتى يجتمع بقاتله يوم القيامة، ويأتي رأسه في يده، ويقول: يا رب! سل هذا فيم قتلني؟ فإن أراد الله عز وجل به رحمة أرضى عنه خصمه، كما يقول: "خذ بيد أخيك فأدخله الجنة"[١].

وأما قوله: {فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا..} إلى آخره، فالأسف يستعمل بمعنى شدة الحزن، وبمعنى شدة الغضب والسخط، وهو المراد في الآية، والانتقام: المجازاة بالعقوبة، مأخوذ من النقمة، وهي شدة الكراهة والسخط.

سيدخل المصنف بعد ذلك في إثبات صفات لله عز وجل: صفة العلو، وصفة اليد، وصفة الوجه، وهذه مما كثر كلام المعتزلة والجهمية عنها، فنفوها، وهي مما وقع فيها الكثير من الخلاف.

وقوله تعالى: {هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ}[٢]، {هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ}[٣]، {كَلَّآۖ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا* وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا}[٤]، وقوله: {وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلٗا}[٥]

فهذه الآيات جاءت في إثبات صفتين من صفات الفعل له سبحانه، وهما صفتا الإتيان والمجيء، والذي عليه أهل السنة والجماعة الإيمان بذلك على حقيقته، والابتعاد عن التأويل الذي هو في الحقيقة: إلحاد وتعطيل.

يقول الشارح الشيخ الهراس: ولعل من المناسب أن ننقل إلى القارئ هنا ما كتبه حامل لواء التجهم والتعطيل في هذا العصر، وهو المدعو بزاهد الكوثري؛ قال في حاشيته على كتاب "الأسماء والصفات" للبيهقي ما نصه:

قال الزمخشري ما معناه: إن الله يأتي بعذاب في الغمام الذي يُنتظر منه الرحمة، فيكون مجيء العذاب من حيث تنتظر الرحمة أفظع وأهول.

وقال إمام الحرمين في معنى الباء -كما سبق -، وقال الفخر الرازي: أن يأتيهم أمر الله.

فأنت ترى من نقْل هذا الرجل عن أسلافه في التعطيل مدى اضطرابهم في التخريج والتأويل -يعني لم يتفقوا -على أن الآيات صريحة في بابها يعني: في صفتي المجيء والإتيان، لا تقبل شيئًا من تلك التأويلات، فالآية الأولى: تتوعد هؤلاء

---

[١] أخرجه الحاكم (٨٩٤٤) وصححه.

[٢] [البقرة: ٢١٠].

[٣] [الأنعام: ١٥٨].

[٤] [الفجر: ٢١-٢٢].

[٥] [الفرقان: ٢٥].

المصرين على كفرهم وعنادهم واتباعهم للشيطان بأنهم ما ينتظرون إلا أن يأتيهم الله عز وجل في ظلل من الغمام لفصل القضاء بينهم، وذلك يوم القيامة، ولهذا قال بعد ذلك: {وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ}[1].

والآية الثانية: أشد صراحة؛ إذ لا يمكن تأويل الإتيان فيها بأنه إتيان الأمر أو العذاب؛ لأنه ردد فيها بين إتيان الملائكة وإتيان الرب، وإتيان بعض آيات الرب سبحانه.

وقوله في الآية التي بعدها: {وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا} لا يمكن حملها على مجيء العذاب؛ لأن المراد مجيئه سبحانه يوم القيامة لفصل القضاء، والملائكة صفوف؛ إجلالًا وتعظيمًا له، وعند مجيئه تنشق السماء بالغمام؛ كما أفادته الآية الأخيرة، وهو سبحانه يجيء ويأتي وينزل ويدنو وهو فوق عرشه بائن من خلقه.

إذًا هذه الكلمة هي خلاصة ما سبق، وهو سبحانه يجيء فهذه من صفات فعله، ويأتي من صفة فعله، وينزل، ويدنو، وهو فوق عرشه بائن من خلقه؛ فهذه كلها أفعال له سبحانه على الحقيقة، ودعوى المجاز تعطيل له عن فعله، واعتقاد أن ذلك المجيء والإتيان من جنس مجيء المخلوقين وإتيانهم نزوع إلى التشبيه يفضي إلى الإنكار والتعطيل.

فهذه الأفعال ينبغي للمسلم حتى يَسلَم أن يثبت لله عز وجل ما أثبته لنفسه؛ فلا يعطل؛ ولا يَنزِع إلى التأويل، ولا يشبه بالمخلوقين، فإن التشبيه يوقعه أيضًا في الإنكار والتعطيل.

ثم ينتقل إلى قوله سبحانه: {وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ}[2] إذًا المجيء، والإتيان، والنزول كانت كلها صفات فعل، لكن هنا في الآية يقول: {وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ}[3]، {كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ}[4] فهاتان الآيتان في إثبات صفة الوجه لله عز وجل، والنصوص في إثبات الوجه من الكتاب والسنة لا تحصى كثرة، وكلها تنفي تأويل المعطلة الذين يفسرون الوجه بالجهة أو الثواب أو الذات.

والذي عليه أهل الحق أن الوجه صفة غير الذات، ولا يقتضي إثباته كونه تعالى مركبًا من أعضاء، لأننا نثبت وجهًا لا كما يخطر على بال أحد من الخلق إنما كما يليق بجلاله، ولا يقتضي إثبات الوجه كونه تعالى مركبًا من أعضاء كما يقول المجسمة، بل هو صفة لله على ما يليق به، فلا يشبه وجهًا ولا يشبهه وجه.

واستدلت المعطلة بهاتين الآيتين على أن المراد بالوجه الذات؛ إذ لا خصوص للوجه في البقاء وعدم الهلاك.

ونحن نعارض هذا الاستدلال بأنه لو لم يكن لله عز وجل وجه على الحقيقة لما جاء استعمال هذا اللفظ في معنى الذات؛ فإن اللفظ الموضوع لمعنى لا يمكن أن يستعمل في معنى آخر إلا إذا كان المعنى الأصلي ثابتًا للموصوف، حتى يمكن للذهن أن ينتقل من الملزوم إلى لازمه، إذًا لا يمكن أن يقول رب العزة سبحانه وتعالى: {وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ}[5] إلا أن يكون له سبحانه وتعالى وجه مع أنه سبحانه لا يعتريه الفناء فهو الباقي بعد كل شيء؛ لكن لا يعبر بلفظ البقاء على

---

[1] [هود: ٤٤].

[2] [الرحمن: ٢٧].

[3] [الرحمن: ٢٧].

[4] [القصص: ٨٨].

[5] [الرحمن: ٢٧].

الوجه إلا أن يكون له وجهًا سبحانه، فنحن نُثبت ما ارتضاه لنفسه على أنه يمكن دفع مجازهم بطريق آخر؛ فيقال: إن أسند البقاء إلى الوجه، ويلزم منه بقاء الذات؛ بدلًا من أن يقال: أطلق الوجه وأراد الذات.

وقد ذكر البيهقي نقلًا عن الخطابي: أنه تعالى لما أضاف الوجه إلى الذات، وأضاف النعت إلى الوجه، فقال: {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}[1]؛ دل على أن ذكر الوجه ليس بصفة، وأن قوله: {ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} صفة للوجه، والوجه صفة للذات.

فهذا الكلام معناه: أن الله عز وجل قال: ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام، فكأن الوجه صفة لذاته سبحانه وتعالى وهو ذو الجلال والإكرام صفة لوجهه، فالوجه صفته الجلال والإكرام، والذات من صفاتها أنه له وجه.

وكيف يمكن تأويل الوجه بالذات أو بغيرها في مثل قوله -عليه السلام -في حديث الطائف: "أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات..."[2] إلى آخره، كيف يؤوّل أعوذ بنور وجهك إلا أن نؤمن بأن لله عز وجل وجهًا، وأن لوجهه نورًا.

وكما جاء أيضًا في حديث رواه أبو موسى الأشعري: "حجابه النور -أو النار -، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه"[3].

وأريد هنا أن أُذكِّر أخوة الإسلام -بأن قوله تعالى: {فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ}[4] أن وجه الله هنا يعني: قبلة الله، وهذا ليس تأويلًا؛ لأن كلمة وجه هنا ليست من آيات الصفات.

لأن هذه قد يقع فيه الكثير فيأتي إلى قوله عز وجل: {فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ} فإما أن يثبت بها الوجه يقول: هذا إثبات صفة الوجه، أو يقول: أن السلف أوَّلوا في هذه الآية فقالوا: الوجه بمعنى: القبلة، وهذا الكلام ينبغي أن نعرفه؛ لأن الوجه هنا لفظة عربية بمعنى: الوِجْهَة، فيقال: فلان توجه إلى وجه كذا أو إلى وجهة كذا توجه إلى وجه المشرق أو إلى جهة المشرق.

إذًا كلمة {فثمَّ وجه الله} أي: فثم الوجهة التي أراد الله عز وجل أن تُصلي إليها إذا اختلفت عليك الأشياء فأين اتجاه القبلة؟ {فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ} يعني: فهذه القبلة التي يقبل الله عز وجل الصلاة إليها، إذًا وجه هنا ليست بمعنى الوجه الذي هو صفة؛ إنما هو بمعنى الوجهة.

ولذلك فإن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله قال: أمهلت خصومي ثلاث سنين أن يأتوا بحرف واحد من أقوال السلف فيه تأويل لصفة من صفات الله عز وجل، قال: فجاءني أحدهم، فقال: أنت قلت كذا؟ قال: نعم، قال: وقعت

---

[1] [الرحمن: ٢٧].

[2] أخرجه الطبراني في المعجم الكبير جـ ١٤ (١٤٧٦٤)، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (٢٩٣٣).

والصحيح الموقوف من حديث ابن عباس، أخرجه ابن أبي شيبة (٣١٥١٦) ولفظه: كان يقول: "اللهم إني أسألك بنور وجهك الذي أشرقت له السماوات والأرض، أن تجعلني في حرزك وحفظك وجوارك وتحت كنفك".

[3] أخرجه مسلم (٣٦٤).

[4] [البقرة: ١١٥].

عليها، فقال شيخ الإسلام: لعلك تقصد قول الله عز وجل: {فأينما تولوا فثم وجه الله} أي: قبلة الله، قال: نعم، قال: هذه ليست من آيات الصفات، فإن الوجه لفظة عربية معناها الوجهة والاتجاه.

وقوله: {مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ}(١) {وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ}(٢)

يقول الشارح قوله: {ما منعك} إلخ؛ تضمنت هاتان الآيتان إثبات اليدين صفة حقيقية له سبحانه على ما يليق به، فهو في الآية الأولى يوبخ إبليس على امتناعه عن السجود لآدم الذي خلقه بيديه، ولا يمكن حمل اليدين هنا على القدرة؛ فإن الأشياء جميعًا –حتى إبليس –خلقها الله بقدرته، فلا يبقى لآدم خصوصية يتميز بها، يعني: {ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي}، هذه ليست خصوصية كان إبليس يقول له: أنا خلقتني بيديك؛ لكن الله عز وجل خص آدم بأن خلقه بيديه.

وفي حديث عبد الله بن عمرو: "إن الله عز وجل خلق ثلاثة أشياء بيده: خلق آدم بيده، وكتب التوراة بيده، وغرس جنة عدن بيده"(٣).

فتخصيص هذه الثلاثة بالذكر مع مشاركتها لبقية المخلوقات في وقوعها بالقدرة دال على اختصاصها بأمر زائد،

وأيضًا؛ فلفظ اليدين بالتثنية لم يعرف استعماله إلا في اليد الحقيقية، ولم يرد قط بمعنى القدرة أو النعمة؛ فإنه لا يسوغ أن يقال: خلقه الله بقدرتين أو بنعمتين. على أنه لا يجوز إطلاق اليدين بمعنى النعمة أو القدرة أو غيرهما إلا في حق من اتصف باليدين على الحقيقة، ولذلك لا يقال: يد الريح، ولا يد الماء، فلا يقال: إن فلانا له على فلان يد بمعنى نعمة إلا ولفلان هذا يد.

وأما احتجاج المعطلة بأن اليد قد أفردت في بعض الآيات، وجاءت بلفظ الجمع في بعضها؛ فلا دليل فيه؛ فإن ما يصنع بالاثنين قد ينسب إلى الواحد؛ تقول: رأيت بعيني، وسمعت بأذني، والمراد: عيناي، وأذناي.

وكذلك الجمع يأتي بمعنى المثنى أحيانًا؛ كقوله تعالى: {إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا}(٤) إذًا إن تتوبا هذا خطاب لمن؟ زوجات الرسول عليه الصلاة والسلام حفصة، وعائشة؛ فقد صغت قلوبكما، إذًا ذكر التوبة بالتثنية، والقلوب بالجمع، والمراد: قلباكما.

وكيف يتأتى حمل اليد على القدرة أو النعمة؛ مع ما ورد من إثبات الكف والأصابع واليمين والشمال والقبض والبسط وغير ذلك مما لا يكون إلا لليد الحقيقية؟! فجاءت بإثبات الكف والأصابع واليمين والشمال والقبض والبسط في القرآن والسنة.

---

(١) [ص: ٧٥].

(٢) [المائدة: ٦٤].

(٣) أخرجه الدارقطني في الصفات (٢٨)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٦٩٢).

(٤) [التحريم: ٤].

وفي الآية الثانية: يحكي الله سبحانه مقالة اليهود قبحهم الله في شأن ربهم، ووصفهم إياه -حاشاه -بأن يده مغلولة؛ أي: ممسكة عن الإنفاق، ثم أثبت لنفسه سبحانه عكس ما قالوا، وهو أن يديه مبسوطتان بالعطاء؛ ينفق كيف يشاء؛ كما جاء في الحديث: عن أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «إِنَّ يَمِينَ اللَّهِ مَلْأَى لَا يَغِيضُهَا نَفَقَة، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَنْقُصْ مَا فِي يَمِينِهِ، وَعَرْشُهُ عَلَى الماءِ، وَبِيَدِهِ الأُخْرَى الفَيْضُ -أَوِ القَبْضُ -يَرْفَعُ وَيَخْفِضُ "[1].

ترى لو لم يكن لله يدان على الحقيقة؛ هل كان يحسن هذا التعبير ببسط اليدين؟!

ألا شاهت وجوه المتأولين!!

أريد أن أقول أيضًا: في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ﴾ [الذاريات: ٤٧] أيد هنا أيضًا ليست جمع يد؛ إنما أيد هنا مفردة عربية بمعنى: القوة، ومنها قوله: {أيَّدنَا} أي: قَوَّينا، لأن الكثير يدخل هذه في أبواب الصفات، فيقول: هذا تأويل، ويَنقل هذا عن بعض السلف فينسب إليهم التأويل وليس كذلك.

وقوله سبحانه: {وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا}[2]، {وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ}[3]، {وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي}[4] في هذه الآيات الثلاث يثبت الله سبحانه لنفسه عينًا يرى بها جميع المرئيات، وهي صفة حقيقية لله عز وجل على ما يليق به، فلا يقتضي إثباتها كونها جارحة مركبة من شحم وعصب وغيرهما، هذا يعني: التكييف لله عز وجل بهذا جهل وضلال.

وتفسير المعطلة لها بالرؤية أو بالحفظ أو بالرعاية نفي وتعطيل، وأما إفرادها في بعض النصوص وجمعها في البعض الآخر؛ فلا حجة لهم فيه على نفيها؛ فإن لغة العرب تتسع لذلك، فقد يعبر فيها عن الاثنين بلفظ الجمع، ويقوم فيها الواحد مقام الاثنين كما قدمنا في اليدين، على أنه لا يمكن استعمال لفظ العين في شيء من هذه المعاني التي ذكروها إلا بالنسبة لمن له عين حقيقية.

فهل يريد هؤلاء المعطلة أن يقولوا: إن الله يتمدح بما ليس فيه، فيثبت لنفسه عينًا وهو عاطل عنها؟! وهل يريدون أن يقولوا: إن رؤيته للأشياء لا تقع بصفة خاصة بها؛ بل هو يراها بذاته كلها -كما تقول المعتزلة: إنه قادر بذاته، مريد بذاته، سميع بذاته، بصير بذاته؟!، ولم يقولوا: قادر بقدرة، ولا مريد بإرادة، ولا سميع بسمع، ولا بصير ببصر

وفي الآية الأولى: يأمر الله نبيه -ﷺ -بالصبر لحكمه، والاحتمال لما يلقاه من أذى قومه، ويعلل ذلك الأمر بأنه بمرأى منه، وفي كلاءته وحفظه.

---

[1] أخرجه البخاري (٧٤١٩).

[2] [الطور: ٤٨].

[3] [القمر: ١٣، ١٤].

[4] [طه: ٣٩].

وفي الآية الثانية: يخبر الله عز وجل عن نبيه نوح عليه السلام أنه لما كذبه قومه، وحقت عليهم كلمة العذاب، وأخذهم الله بالطوفان؛ حمله هو ومن معه من المؤمنين على سفينة ذات ألواح عظيمة من الخشب ودسر؛ أي: مسامير، جمع دِسار، تشد بها الألواح، وأنها كانت تجري بعين الله وحراسته.

وفي الآية الثالثة: خطاب من الله لنبيه موسى عليه السلام بأنه ألقى عليه محبة منه؛ يعني: أحبه هو سبحانه وحببه إلى خلقه، وأنه صنعه على عينه، ورباه تربية استعد بها للقيام بما حمله من رسالته إلى فرعون وقومه.

وقوله: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ}[1]، وقوله: {لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا}[2]، وقوله: {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ}[3]، {إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى}[4]، {أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى}[5]، {الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}[6]، {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ}[7].

هذه الآيات ساقها المؤلف لإثبات صفات السمع والبصر والرؤية.

أما السمع؛ فقد عبرت عنه الآيات بكل صيغ الاشتقاق، وهي: سمع، ويسمع، وسميع، ونسمع، وأسمع، فهي صفة حقيقية لله سبحانه، يدرك بها الأصوات؛ كما قدمنا.

وأما البصر؛ فهو الصفة التي يدرك بها الأشخاص والألوان، والرؤية لازمة له، كما جاء في حديث أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَمَّا غَزَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْبَرَ، أَوْ قَالَ: لَمَّا تَوَجَّهَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَشْرَفَ النَّاسُ عَلَى وَادٍ، فَرَفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ بِالتَّكْبِيرِ: اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ، لَا إِلَهَ إِلّا اللَّهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، إِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا وَهُوَ مَعَكُمْ"[8].

وكل من السمع والبصر صفة كمال، وقد عاب الله على المشركين عبادتهم ما لا يسمع ولا يبصر، {يَأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ}[9] دل على أن المعبود لا بد أن يكون يسمع ويبصر.

---

[1] [المجادلة: ١].
[2] [آل عمران: ١٨١].
[3] [الزخرف: ٨٠].
[4] [طه: ٤٦].
[5] [العلق: ١٤].
[6] [الشعراء: ٢١٨ – ٢٢٠].
[7] [التوبة: ١٠٥].
[8] أخرجه البخاري (٤٢٠٥).
[9] [مريم: ٤٢].

وأخرج البخاري في صحيحه "عن عروة عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الأَصْوَاتَ" ، لقد جاءت المجادلة تشكو إلى رسول الله -ﷺ -و أنا في ناحية من البيت ما أسمع ما تقول، وأنا أي عائشة في ناحية من البيت أسمع ما تقول: فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا}"[1].

وأما الآية الثانية؛ فقد نزلت في فنحاص اليهودي الخبيث، حين قال لأبي بكر ﷺ لما دعاه إلى الإسلام: والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة من فقر، وإنه إلينا لفقير، ولو كان غنيًا ما استقرضنا.

الآية الثالثة في قوله: {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ} ف (أم) بمعنى (بل)، والهمزة للاستفهام، فهي (أم) المنقطعة، والاستفهام انكاري يتضمن معنى التوبيخ، والمعنى: بل أيظن هؤلاء في تخفيهم واستتارهم أنا لا نسمع سرهم ونجواهم؛ بلى نسمع ذلك، وحفظتنا لديهم يكتبون ما يقولون وما يفعلون.

وأما الآية الرابعة؛ فهي خطاب من الله عز وجل لموسى وهارون عليهما الصلاة والسلام حين شكوا إلى الله خوفهما من بطش فرعون بهما، فقال لهما: {لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى}.

وأما الآية الخامسة؛ فقد نزلت في شأن أبي جهل لعنه الله حين نهى النبي ﷺ عن الصلاة عند البيت، فنزل قوله تعالى: {أرأيت الذي ينهى* عبدا إذا صلى* أرأيت إن كان على الهدى* أو أمر بالتقوى* أرأيت إن كذب وتولى* ألم يعلم بأن الله يرى} أي: ألم يعلم أبو جهل وأمثاله بأن الله يرى، فهذا إثبات صفة الرؤية لله عز وجل.

وقوله: {وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ}[2]، وقوله: {وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}[3]، وقوله: {وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}[4]، وقوله: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا}[5].

يقول: تضمنت هذه الآيات إثبات صفتي المكر والكيد، وهما من صفات الفعل الاختيارية، يعني نقول مثلًا: الخلق من صفات الفعل، والحكمة من صفات الفعل؛ لكنها صفات لازمة، لكن هنا صفتي المكر والكيد وهما من صفات الفعل الاختيارية، يعني: التي يفعلها الله متى شاء.

يقول: ولكن لا ينبغي أن يشتق له من هاتين الصفتين اسم، فلا يقال: ماكر، وكائد؛ بل يوقف عند ما ورد به النص من أنه خير الماكرين، وأنه يكيد لأعدائه الكافرين.

أما قوله سبحانه: {وهو شديد المحال}؛ فمعناه: شديد الأخذ بالعقوبة؛ كما في قوله تعالى: {إن بطش ربك لشديد}، {إن أخذه أليم شديد}.

وقال ابن عباس: (معناه: شديد الحول)[6].

---

[1] علقه البخاري (٩/ ١١٧)، ووصله أبو داود (٢٢٠٥)، وابن ماجه (١٨٨)، والنسائي في الصغرى (٣٤٨٦)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٢٠٨٧).

[2] [الرعد: ١٣].

[3] [آل عمران: ٥٤].

[4] [النمل: ٥٠].

[5] [الطارق: ١٥، ١٦].

[6] أخرجه الطبري في التفسير (١٣/ ٤٨٤).

وقال مجاهد: (شديد القوة)[1] ، والأقوال متقاربة.

وأما قوله: {والله خير الماكرين}؛ فمعناه: أنفذهم وأسرعهم مكرًا.

وقد فسر بعض السلف مكر الله بعباده بأنه استدراجهم بالنعم من حيث لا يعلمون، فكلما أحدثوا ذنبا أحدث لهم نعمة؛ وفي الحديث: "إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا ما يحب وهو مقيم على معصيته؛ فاعلم أنما ذلك منه استدراج"[2].

فإذا كان رب العزة سبحانه وتعالى أعطى الكافرين الذين أصروا على الكفر أعطاهم في الدنيا نِعم، وأعطاهم في الدنيا أشياء كثيرة ذلك كله ليس حبًا لهم إنما هو استدراج، وهذا مكر بهم؛ لأنهم اختاروا لأنفسهم الكفر، فمكروا فمكر الله بهم، وكادوا فكادهم الله رب العالمين.

يقول: وقد نزلت هذه الآية في شأن عيسى عليه السلام حين أراد اليهود قتله، فدخل بيتًا فيه كوة، وقد أيده الله بجبريل عليه السلام، فرفعه إلى السماء من الكوة، فدخل عليه يهوذا؛ ليدلهم عليه فيقتلوه، فألقى الله شبه عيسى على ذلك الخائن، فلما دخل البيت فلم يجد فيه عيسى؛ خرج إليهم وهو يقول: ما في البيت أحد. فقتلوه وهم يرون أنه عيسى، فذلك قوله تعالى: { وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ}.

وأما قوله تعالى: { وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ...} إلخ؛ فهي في شأن الرهط التسعة من قوم صالح عليه السلام حين {تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ}[3] أي: ليقتلنه بياتًا هو وأهله، {ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ}[4]، فكان عاقبة هذا المكر منهم أن مكر الله بهم فدمرهم وقومهم أجمعين.

وقوله سبحانه: {إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا أَوۡ تُخۡفُوهُ أَوۡ تَعۡفُواْ عَن سُوٓءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرًا}[5].

وقوله {وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُور رَّحِيمٞ}[6].

يقول الشارح: هذه الآيات تضمنت إثبات صفات العفو والقدرة والمغفرة والرحمة والعزة والجلال والإكرام.

فالعفو الذي هو اسمه تعالى؛ معناه: المتجاوز عن عقوبة عباده إذا هم تابوا إليه وأنابوا؛ كما قال تعالى: {وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ}[7].

ولما كان أكملَ العفو هو ما كان عن قدرة تامة على الانتقام والمؤاخذة؛ جاء هذان الاسمان الكريمان: العفو، والقدير مقترنين في هذه الآية وفي غيرها.

---

[1] أخرجه الطبري في التفسير (١٣/ ٤٨٤).

[2] أخرجه أحمد (١٧٣١١) من حديث عقبة بن عامر ﷺ. وحسن إسناده العراقي في المغني عن حمل الأسفار (ص: ١٤٧٧).

[3] [النمل: ٤٩].

[4] [النمل: ٤٩].

[5] [النساء: ١٤٩].

[6] [النور: ٢٢].

[7] [الشورى: ٢٥].

وأما القدرة؛ فهي الصفة التي تتعلق بالممكنات إيجادًا وعدما، فكل ما كان ووقع من الكائنات واقع بمشيئته وقدرته؛ كما في الحديث: "ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن"[(١)].

وأما قوله تعالى: {وليعفوا وليصفحوا} فقد نزلت في شأن أبي بكر ﷺ حين حلف لا ينفق على مسطح بن أثاثة، وكان ممن خاضوا في الإفك، وكانت أم مسطح بنت خالة أبي بكر، فلما نزلت هذه الآية قال أبو بكر: «والله إني لأحب أن يغفر الله لي»[(٢)]، ووصل مسطحًا.

وقوله سبحانه: {وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ}[(٣)].

وقوله عن إبليس: {فبعزتك لأغوينهم أجمعين}

وأما قوله تعالى: {وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ}[(٤)]؛ فقد نزلت في شأن عبد الله بن أبي ابن سلول رئيس المنافقين، وكان في بعض الغزوات قد أقسم ليخرجن رسول الله – ﷺ – هو وأصحابه من المدينة، فنزل قول تعالى: {يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ}[(٥)]؛ يقصد بالأعز: قبحه الله نفسه وأصحابه، ويقصد بالأذل: رسول الله ومن معه من المؤمنين، فرد الله عز وجل عليه بقوله: {وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ}[(٦)].

فالعزة صفة أثبتها لله عز وجل لنفسه؛ قال تعالى: {وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ}[(٧)]، وقال: {وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزا}[(٨)]، وأقسم بها سبحانه؛ كما في حديث الشفاعة: (وعزتي وكبريائي وعظمتي؛ لأخرجن منها من قال: لا إله إلا الله)[(٩)] ، وأخبر عن إبليس أنه قال: {فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ}[(١٠)]

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: "بَيْنَمَا أَيُّوبُ يَغْتَسِلُ عُرْيَانًا، خَرَّ عَلَيْهِ رِجْلُ جَرَادٍ مِنْ ذَهَبٍ، فَجَعَلَ يَحْثِي فِي ثَوْبِهِ، فَنَادَاهُ رَبُّهُ يَا أَيُّوبُ، أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتُكَ عَمَّا تَرَى، قَالَ بَلَى يَا رَبِّ، وَلَكِنْ لَا غِنَى لِي عَنْ بَرَكَتِكَ"[(١١)].

وقد جاء في حديث الدعاء الذي علمه النبي ﷺ لمن كان به وجع: "ضَعْ يَدَكَ عَلَى الَّذِي تَأَلَّمَ مِنْ جَسَدِكَ، وَقُلْ: بِاسْمِ اللهِ ثَلَاثًا، وَقُلْ سَبْعَ مَرَّاتٍ: أَعُوذُ بِاللهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ"[(١٢)].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٨٩)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٤١٢١).

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٦١)، ومسلم (٧١٢٠) في حديث الإفك.

(٣) [المنافقون: ٨].

(٤) [المنافقون: ٨].

(٥) [المنافقون: ٨].

(٦) [المنافقون: ٨].

(٧) [إبراهيم: ٤].

(٨) [الأحزاب: ٢٥].

(٩) أخرجه البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (٣٩٨).

(١٠) [ص: ٨٢-٨٣].

(١١) أخرجه البخاري (٣٣٩١)

(١٢) أخرجه مسلم (٢٢٠٢)

والعزة تأتي بمعنى الغلبة والقهر؛ من عز يعز – بضم العين في المضارع – يقال: عزه؛ إذا غلبه، كقوله: {وعزني في الخطاب} وتأتي بمعنى القوة والصلابة؛ من عز يعز – بفتحها –، ومنه أرض عزاز؛ للصلبة الشديدة، وتأتي بمعنى علو القدر والامتناع عن الأعداء؛ من: عز يعز – بكسرها–.

وهذه المعاني كلها ثابتة لله عز وجل، فنثبت له الغلبة والقهر، ونثبت له القوة والصلابة، ونثبت له القدرة والامتناع، كل ذلك ثابت له سبحانه، وهو من معاني العزيز.

وقوله: {تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ}[1]، {تبارك} فإنه من البركة: بمعنى دائم الخير وكثيره، وقوله: {ذي الجلال} أي: صاحب الجلال والعظمة سبحانه الذي لا شيء أجل ولا أعظم منه، {والإكرام} الذي يكرم عما لا يليق به، وقيل: الذي يكرم عباده بأنواع الكرامة في الدنيا، والله أعلم.

وقوله تعالى: {**فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا**}[2] هذه نفي المُسامي يعني المساوي أو نفي المشابه في الاسم {**وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ**}(٣) نفي الكفء، {**فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ**}[4] نفي الند {**وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ**}[5] أيضًا النهي عن اتخاذ الند، وقوله: {**وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيك فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرٗا**}[6] نفي الولد والشريك والولي، {**يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ**}[7] إثبات الملك والحمدِ له {**تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا * ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيك فِي ٱلۡمُلۡكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرا**}[8].

وقوله: {**مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ**}[9]، وقوله: {**فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ**}[10]، {**قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ**}[11].

---

[1] [الرحمن: ٧٨].
[2] [مريم: ٦٥].
[3] [الإخلاص: ٤].
[4] [البقرة: ٢٢].
[5] [البقرة: ١٦٥].
[6] [الإسراء: ١١١].
[7] [التغابن: ١].
[8] [الفرقان: ١-٢].
[9] [المؤمنون: ٩١-٩٢].
[10] [النحل: ٧٤].
[11] [الأعراف: ٣٣].

تضمنت هذه الآيات الكريمة: جملة من صفات السلوب، وهي نفي السمي والكفء والند والولد والشريك والولي من ذل وحاجة؛ كما تضمنت بعض صفات الإثبات؛ من: الملك، والحمد، والقدرة والكبرياء.

وأما قوله: {هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا}؛ فقد قال شيخ الإسلام رحمه الله: قال أهل اللغة: {هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا}؛ أي: نظيرًا استحق مثل اسمه، ويقال: مساميًا يساميه. وهذا معنى ما يروى عن ابن عباس: {هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا}؛ مَثلًا أو شبيهًا، والاستفهام في الآية إنكاري، معناه النفي؛ أي: لا تعلم له سميًا.

وأما قوله: {وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ}؛ فالمراد بالكفء: المكافئ المساوي، فهذه الآية تنفي عنه سبحانه النظير والشبيه من كل وجه؛ لأنه {أحد} وقع نكرة في سياق النفي، فيعم.

انتبه: النكرة تأتي مفيدة العموم في سياقات خمس؛ لأن المشهور نكرة في سياق النفي، لكنها تأتي تفيد العموم في سياق:

١ -النفي.

٢ -والنهي.

٣ -والشرط.

٤ -والاستفهام.

٥ -والامتنان.

يعني النكرة إذا جاءت في سياق النفي أو سياق النهي أو سياق الشرط أو سياق الاستفهام أو سياق الامتنان كقوله: {جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجا}[1] فهذه الآية الكريمة يستدل بها بعض أهل العلم أنه لا تزاوج بين الإنس والجن، لأن أزواج هنا جمع مذكر، وجاءت في معرض الامتنان ولو كان لهم أزواج من غير أنفسهم لما صحت المنة من أن يجعل لهم من أنفسهم أزواجًا.

وأما قوله: {فلا تجعلوا لله أندادا...} إلخ. فالأنداد جمع ند، ومعناه -كما قيل -: النظير المناوئ. ويقال: ليس لله ند ولا ضد، والمراد نفي ما يكافئه ويناوئه، ونفي ما يضاده وينافيه.

وجملة: {وأنتم تعلمون} وقعت حالا من الواو في {تجعلوا}، والمعنى: إذا كنتم تعلمون أن الله هو وحده الذي خلقكم ورزقكم، وأن هذه الآلهة التي جعلتموها له نظراء وأمثالًا وساويتموها به في استحقاق العبادة لا تخلق شيئًا، بل هي مخلوقة، ولا تملك لكم ضرًا ولا نفعًا؛ فاتركوا عبادتها، وأفردوه سبحانه بالعبادة والتعظيم.

وأما قوله: {وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ...} إلخ؛ فهو إخبار من الله عن المشركين بأنهم يحبون آلهتهم كحبهم لله عز وجل؛ يعني: يجعلونها مساوية له في الحب. { وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ } من حب المشركين لآلهتهم؛ لأنهم أخلصوا له

---

[1] [النحل: ٧٢].

الحب، وأفردوه به، أما حب المشركين لآلهتهم؛ فهو موزع بينها، ولا شك أن الحب إذا كان لجهة واحدة كان أمكن وأقوى.

وقيل: المعنى: أنهم يحبون آلهتهم كحب المؤمنين لله، والذين آمنوا أشد حبًا لله من الكفار لأندادهم.

وأما قوله تعالى: {وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا...} الآية؛ فقد تقدم الكلام في معنى الحمد، وأنه الثناء باللسان على النعمة وغيرها، وقلنا: إن إثبات الحمد له سبحانه متضمن لإثبات جميع الكمالات التي لا يستحق الحمد المطلق إلا من بلغ غايتها.

ثم نفى سبحانه عن نفسه ما ينافي كمال الحمد من الولد والشريك والولي من الذل -أي: من فقر وحاجة، فهو سبحانه لا يوالي أحدًا من خلقه من أجل ذلة وحاجة إليه. يعني: لا يتخذ الولي أو ينصر إنما هو سبحانه وتعالى يتخذ الأولياء إذا أطاعوه رحمة منه ورضوانًا عليهم.

ثم أمر عبده ورسوله أن يكبره تكبيرًا؛ أي: يعظمه تعظيمًا وينزهه عن كل صفة نقص وصفه بها أعداؤه من المشركين.

وأما قوله: {يسبح لله...} إلخ؛ فالتسبيح هو التنزيه والإبعاد عن السوء؛ كما تقدم.

ولا شك أن جميع الأشياء في السموات وفي الأرض تسبح بحمد ربها، وتشهد له بكمال العلم والقدرة والعزة والحكمة والتدبير والرحمة؛ قال تعالى: {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ} [الإسراء: ٤٤].

وقد اختلف في تسبيح الجمادات التي لا تنطق؛ هل هو بلسان الحال أم بلسان المقال؟

والثاني أرجح؛ بدليل قوله تعالى: {وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ}(١)؛ إذ لو كان المراد تسبيحها بلسان الحال؛ لكان ذلك معلومًا، فلا يصح الاستدراك، فنحن نرى أن أحوال كل شيء دال على حكمة الله عز وجل وعلى عظمته ودالة على حسن تدبيره وجميل خلقه، إذًا الذي لا نفقهه هو التسبيح بلسان المقال.

وقد قال تعالى خبرًا عن داود عليه السلام: {إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ * وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ}(٢).

وأما قوله تعالى: {تَبَارَكَ ٱلَّذِي...} إلخ؛ فقد قلنا: إن معنى {تبارك} من البركة؛ وهي دوام الخير وكثرته، ولكن لا يلزم من تلك الزيادة سبق النقص، فإن المراد تجدد الكمالات الاختيارية التابعة لمشيئته وقدرته، فإنها تتجدد في ذاته على وفق حكمته، فالخلو عنها قبل اقتضاء الحكمة لها لا يعتبر نقصًا.

وقد فسر بعضهم التبارك: بالثبات وعدم التغير، ومنه سميت البركة؛ لثبوت مائها. وقال: وهو بعيد.

فمعنى قوله: {تبارك الذي بيده الملك}، إثبات البركة يعني إثبات دوام الخير وكثرته وزيادته من غير أن يكون مسبوقًا بنقص، فهذه البركة عن الزيادة من غير أن يكون ما قبلها نقص أو ما بعدها نقص.

---

(١) [الإسراء: ٤٤].

(٢) [ص: ١٨-١٩].

والمراد بـ {الفرقان} القرآن، سمي بذلك لقوة تفرقته بين الحق والباطل والهدى والضلال.

والتعبير بـ {نزل} بالتشديد؛ لإفادة التدرج في النزول، وأنه لم ينزل جملة واحدة.

والمراد بـ {عبده} مُحَمَّد ﷺ، والتعبير عنه بلقب العبودية للتشريف، فالعبودية شرف يعني: أنا ضعيف ولكني عبد القوي، أنا فقير ولكني عبد الغني، أنا ذليل ولكني عبد المعز، أنا جاهل ولكني عبد العليم، إذًا فالشرف في العبودية؛ ولذلك فإن رب العزة يمتن على نبيه بقوله: {نزل على عبده}.

و{العالمين}؛ جمع عالم، وهو جمع لما يعقل، واختلف في المراد به، فقيل: الإنس. وقيل: الإنس والجن. وهو الصحيح؛ فقد ثبت أن النبي ﷺ مرسل إلى الجن أيضًا، وأنه يجتمع بهم، ويقرأ عليهم القرآن، وأن منهم نفرًا أسلم حين سمع القرآن وذهب ينذر قومه به؛ كما قال تعالى: {وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ}[1].

والنذير والمنذر هو من يعلم بالشيء مع التخويف، وضده البشير أو المبشر، وهو من يخبرك بما يسرك.

وقوله: {مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَد...} إلخ؛ تضمنت هذه الآية الكريمة أيضًا جملة من صفات التنزيه التي يراد بها نفي ما لا يليق بالله عز وجل عنه، فقد نزه سبحانه نفسه فيها عن اتخاذ الولد، وعن وجود إله خالق معه، وعما وصفه به المفترون الكذابون؛ كما نهى عن ضرب الأمثال له، والإشراك به بلا حجة ولا برهان، والقول عليه سبحانه بلا علم ولا دليل.

فهذه الآية تضمنت إثبات توحيد الإلهية، وإثبات توحيد الربوبية، فإن الله بعدما أخبر عن نفسه بعدم وجود آلهة معه أوضح ذلك بالبرهان القاطع والحجة الباهرة، فقال: {إذا}؛ أي: إذ لو كان معه آلهة كما يقول هؤلاء المشركون؛ {لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْض}[2].

وتوضيح هذا الدليل أن يقال: إذا تعددت الآلهة؛ فلا بد أن يكون لكل منهم خلق وفعل، ولا سبيل إلى التعاون فيما بينهم؛ فإن الاختلاف بينهم ضروري، كما أن التعاون بينهم في الخلق يقتضي عجز كل منهم عند الانفراد، والعاجز لا يصلح إلهًا، فلا بد أن يستقل كل منهم بخلقه وفعله، وحينئذ؛ فإما أن يكونوا متكافئين في القدرة، لا يستطيع كل منهم أن يقهر الآخرين ويغلبهم، فيذهب كل منهم بما خلق، ويختص بملكه؛ كما يفعل ملوك الدنيا من انفراد كل بمملكته إذا لم يجد سبيلًا لقهر الآخرين، وإما أن يكون أحدهم أقوى من الآخرين، فيغلبهم، ويقهرهم، وينفرد دونهم بالخلق والتدبير، فلا بد إذا مع تعدد الآلهة من أحد هذين الأمرين: إما ذهاب كل بما خلق، أو علو بعضهم على بعض.

وذهاب كل بما خلق غير واقع؛ لأنه يقتضي التنافر والانفصال بين أجزاء العالم، مع أن المشاهدة تثبت أن العالم كله كجسم واحد مترابط الأجزاء، متسق الأنحاء، فلا يمكن أن يكون إلا أثرًا لإله واحد.

وعلو بعضهم على بعض يقتضي أن يكون الإله هو العالي وحده.

---

[1] [الأحقاف: ٢٩].

[2] [المؤمنون: ٩١].

وأما قوله تعالى: {فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَۚ}[1]؛ فهو نهي لهم أن يشبّهوه بشيء من خلقه؛ فإنه سبحانه له المثل الأعلى الذي لا يشركه فيه مخلوق.

وقد قدمنا أنه لا يجوز أن يستعمل في حقه من الأقيسة ما يقتضي المماثلة أو المساواة بينه وبين غيره؛ كقياس التمثيل وقياس الشمول.

وإنما يستعمل في ذلك قياس الأولى الذي مضمونه أن كل كمال وجودي غير مستلزم للعدم ولا للنقص بوجه من الوجوه اتصف به المخلوق، فالخالق أولى أن يتصف به؛ لأنه هو الذي وهب المخلوق ذلك الكمال، ولأنه لو لم يتصف بذلك الكمال -مع إمكان أن يتصف به -لكان في الممكنات من هو أكمل منه، وهو محال، وكذلك كل نقص يتنزه عنه المخلوق، فالخالق أولى بالتنزه عنه.

وأما قوله: {قل إنما حرم...} إلخ؛ فـ {إنما} أداة حصر تفيد اختصاص الأشياء المذكورة بالحرمة، فيفهم أن من عداها من الطيبات فهو مباح لا حرج فيه؛ كما أفادته الآية التي قبلها.

والفواحش: جمع فاحشة، وأما {والإثم}؛ فمنهم من فسره بمطلق المعصية، فيكون المراد منه ما دون الفاحشة، ومنهم من خصه بالخمر؛ فإنها جماع الإثم.

وأما {والبغي بغير الحق}؛ فهو التسلط والاعتداء على الناس من غير أن يكون ذلك على جهة القصاص والمماثلة.

وقوله: {وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا}، وحرم أن تعبدوا مع الله غيره، وتتقربوا إليه بأي نوع من أنواع العبادات والقربات؛ كالدعاء، والنذر، والذبح، والخوف، والرجاء، ونحو ذلك مما يجب أن يُخلص فيه العبد قلبه ويسلم وجهه لله، وحرم أن تتخذوا من دونه سبحانه أولياء يشرعون لهم من الدين ما لم يأذن به الله في عباداتهم ومعاملاتهم؛ كما فعل أهل الكتاب مع الأحبار والرهبان، حيث اتخذوهم أربابًا من دون الله في التشريع، فأحلوا ما حرم الله، وحرموا ما أحل الله، واتبعوهم في ذلك.

وقوله: {لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا} قيد لبيان الواقع؛ فإن كل ما عبدوه أو اتبع أو أطيع من دون الله قد فعل به ذلك من غير سلطان.

وأما القول على الله بلا علم؛ فهو باب واسع جدًا يدخل فيه كل خبر عن الله بلا دليل ولا حجة؛ كنفي ما أثبته، أو إثبات ما نفاه، أو الإلحاد في آياته بالتحريف والتأويل.

كما قال العلامة ابن القيم في كتابه إعلام الموقعين[2]: وقد حرم الله -سبحانه -القول عليه بلا علم في الفتيا والقضاء، وجعله من أعظم المحرمات، بل جعله في المرتبة العليا منها، فقال تعالى: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [3] فرتَّبَ

---

[1] [النحل: ٧٤].

[2] (٢/ ٧٣).

[3] [الأعراف: ٣٣].

المحرماتِ أربعَ مراتبَ، وبدأ بأسهلها وهو الفواحش، ثم ثنَّى بما هو أشد تحريمًا وهو الإثم والظلم، ثم ثلَّثَ بما هو أعظم تحريمًا منهما وهو الشرك به سبحانه، ثم ربَّع بما هو أشد تحريمًا من ذلك كله وهو القول عليه بلا علم، وهذا يعمُّ القول عليه سبحانه بلا علم في أسمائه، وصفاته، وأفعاله، وفي دينه وشرعه.

وقوله: {ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ}[1] في سبع مواضع:

في سورة الأعراف؛ قوله: {إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ}[2].

وفي سورة يونس – عليه السلام: {إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ}[3].

وفي سورة الرعد: {ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ}[4].

وفي سورة طه: {ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ}[5].

وفي سورة الفرقان: {ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۛ ٱلرَّحۡمَٰنُ}[6]، وقال في سورة آلم السجدة: {ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ}[7].

وقال في سورة الحديد: {هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يَعۡلَمُ}[8].

وإن صفة الاستواء من أكثر الصفات التي تعرضت لإنكار المنكرين وإن ابن القيم في نونيته ذكر أن لفظة الاستواء لها أربع معان: هي استقر، وعلا، وارتفع، وصعد هذه هي المعاني الأربعة للفظة استوى لغة، فنحن نؤمن بأن الله عز وجل استوى على عرشه، ولا نكيف، لا نقول استوى جلوسًا ولا وقوفًا ولا استقرارًا؛ إنما نقول استوى استواءً يليق بجلاله.

وذلك قد جاء عن الإمام مالك رحمه الله: "الكيف غير معقول، والاستواء منه غير مجهول"[9].

ولا يجوز لنا أن نقول كما قالت المعطلة: إن استوى لفظة ليس لها معنى، لا نعرف معناها، لأنها كلمة ذات معنى، ولا يجوز أن نحرف كما حرف المحرفون ونقول استوى بمعنى: استولى؛ إنما الاستواء يعني: العلو والارتفاع، فالله عالٍ على عرشه، مرتفعٌ بائنٌ من خلقه، فله سبحانه وتعالى العلو الكامل علو القدر، وعلو القهر، وعلو المكانة، فهو فوق عرشه.

ولذلك جاءت الآيات في قوله تعالى: {يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ}[10]، {بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ}(١)، {إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ}[2]، {يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ * أَسۡبَٰبَ

---

[1] [طه: ٥].
[2] [الأعراف: ٥٤].
[3] [يونس: ٣].
[4] [الرعد: ٢].
[5] [طه: ٥].
[6] [الفرقان: ٥٩].
[7] [السجدة: ٤].
[8] [الحديد: ٤].
[9] أخرجه الدرامي في الرد على الجهمية (١٠٤).
[10] [آل عمران: ٥٥].

أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ}[٣]، وقوله: {ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ}[٤]

فهذه الآيات مع آيات إثبات الاستواء تدل على أنه استواء رفعة وعلو فهو عال على عرشه، بائن من خلقه. ويقول سبحانه: {هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ}[٥].

وقوله: {مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ}[٦]، ويقول سبحانه: {لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ}(٧)، وقوله: {إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ}[٨]، {إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ}[٩]، {وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ}[١٠]، ويقول {كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةَۢ كَثِيرَةُۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ}[١١].

هنا نريد أن نقف وقفة يسيرة مع صفتي الاستواء، والمعية؛ فنقول: إن الله عز وجل عالٍ على عرشه، هذا نص القرآن والسنة؛ فهو كلام الله، وكلام رسوله ﷺ، ثم هو اعتقاد الصحابة والتابعين، والأئمة من بعدهم، لم يكن في قرون الفضل والخير من قولٍ سواه، حتى جاءت المبتدعة من المعتزلة والجهمية فردوا ذلك وصرفوه على غير ما جاء به سلف الأمة.

أما الآيات فقد ذكرناها.

وأما من الأحاديث: فمنه قول النبي ﷺ: لما حكم سعد بن معاذ في بني قريظة، فقال ﷺ: نطق سعد بما حكم به رب العزة من فوق سبع سماوات"[١٢].

وأما قول الصحابة: فمنه قول زينب بنت جحش رضي الله عنها عندما قالت: "زوجكن أهليكن، وزوجني الله من فوق سبع سموات"[١٣].

---

(١) [النساء: ١٥٨].
(٢) [فاطر: ١٠].
(٣) [غافر: ٣٦-٣٧].
(٤) [الملك: ١٦-١٧].
(٥) [الحديد: ٤].
(٦) [المجادلة: ٧].
(٧) [التوبة: ٤٠].
(٨) [طه: ٤٦].
(٩) [النحل: ١٢٨].
(١٠) [الأنفال: ٤٦].
(١١) [البقرة: ٢٤٩].
(١٢) أخرجه البزار (١٠٩١)، والحاكم في المستدرك (٢٦٠٦).
(١٣) أخرجه البخاري (٧٤٢٠).

وأما قول التابعين: ففيما قاله مسروق مولى عائشة رضي الله تعالى عنها عندما يروي عن عائشة فيقول: حدثتني الصديقة بنت الصديق المبرأة من رب العزة من فوق سبع سماوات.

فلا يجوز لأحد أن ينكر أن الله جلت قدرته فوق سبع سماوات.

وانتبه لهذا الأمر فنحن نتكلم عن أنفسنا والكون الذي خلقه الله عز وجل من حولنا، وأننا نستطيع أن نرى الأشياء القريبة ونستطيع أن نرى أشياء بعيدة، وإنما نكيف الأشياء التي نراها بمقدار إحساسنا لها، فأقول هذا طويل، هذا قصير، هذا ثقيل، هذا خفيف، عندما يقع تحت تجربتي وخبرتي؛ فإذا نظرنا إلى الكون الذي يبعد عنا قليلًا رأينا شمسًا تضيء الأرض ونراها كأنها صغيرة الحجم مع أن علماء الهيئة يقولون: أنها تزيد عن الأرض في حجمها بملايين المرات، ثم نرى النجوم ويقولون: إن من هذه النجوم ما يزيد عن الشمس، ومنها ما يصغر عنها، ومنها ما هو قريب، ومنها ما هو بعيد؛ كل ذلك الذي نراه إنما هو مما ذكره رب العزة من النجوم التي جعلها رب العزة زينة للسماء الدنيا، وتتحير العقول في معرفة هذه الكواكب التي هي دون السماء الدنيا.

ثم إذًا فعلوم أهل الأرض لم تصل إلى أن تعرف شيئًا من السماء الدنيا، كل علوم أهل الأرض التي عندهم لم تصل إلى أن تعرف شيئًا من السماء الدنيا، إنما تعرفوا على الزينة التي هي دون السماء الدنيا.

ثم نعرف بالشرع أن السموات سبع، وأن غلظ السماء الدنيا كما بين الأرض والسماء الدنيا، وأن فوق ذلك السماء الثانية وأن بينهما كما بين السماء والأرض، وغلظ الثانية مثل ذلك وهكذا إلى سبع سماوات كل سماء بينها وبين الأخرى كما بين الأرض والسماء الدنيا لا نعرف ذلك إلا بالخبر، ولا طاقة لنا أن نعرفه، وغلظ كل سماء كما بين السماء والأرض وهذه السموات السبع على تلك السعة الشاسعة التي لا تستطيع العقول أن تتصورها كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "هي في الكرسي كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض"[1].

انظر إلى صحراء مترامية الأطراف وإلى حلقة سقطت من أصبعك في تلك الصحراء الشاسعة، انظر لو أن الحلقة سقطت في مثل مسجدنا هذا وهو ليس بالفلاة من الأرض؛ فإنك ستحتاج إلى بحث دقيق، فما بالكم لو سقطت في صحراء، السماوات السبع في الكرسي كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض، والكرسي في العرش كخردلة في كف أحدكم.

إذًا أنا أسلم عندما أتحدث عن السماء الدنيا لما قاله علماء الهيئة من أبعاد الكواكب والنجوم والمسافات التي بينها، ثم إذا صعدت فوق ذلك فلا طاقة لعلماء الهيئة أن يتكلموا في هذا، لا طريق لنا إلا القرآن والوحي، فنسلم إليه في نصه ولفظه، ونؤمن أن القرآن جاء عربيًا فصيحًا بكلام عربي فنؤمن أن الله فوق عرشه، والله أكبر، أنا لا أستطيع أن أكيف السماء الدنيا ولا ما دونها، ولا السماوات السبع، فما بالكم بالكرسي!، وما بالكم بالعرش! والله أكبر، العرش محمول بقدرته، والملائكة مشمولة بعنايته ورحمته وهو على كل شيء قدير، فكيف أتيح لنفسي أن أكيف رب العالمين؟ أقول لا، لا يليق به أن أقول استوى، وقد قال عن نفسه: استوى، لا يليق أن يقول على العرش، وهو قال عن نفسه: على العرش،

---

[1] أخرجه ابن حبان في صحيحه (٣٦١).

لا يليق أن أقول في السماء، وهو قال آمنتم من في السماء؛ إذًا فغاية العقل هي الوقوف عند النقل، إذًا القرآن الكريم أخبرنا بسماوات سبع، وأخبرنا بأراضين سبع، نحن ما نعلم من الأراضين السبع إلا قشرة صغيرة من واحدة، ولا نعلم عن بقية السبع شيء، وأما السماوات السبع فلا نعلم عن واحدة منها شيء إلا ما جاء بالخبر، لا نعلم إلا الزينة.

احذر أن تظن أنك عندما ترى النجوم والكواكب أنك ترى السماء الدنيا؛ إنما ترى السماء بمعنى الذي يعلوك، وأن الله أنزل من السماء ماء أي مما يعلونا من السحاب الذي هو يعلونا، أما السماوات السبع فهذه لا طاقة لنا أن نعرفها، فكيف بك أيها المسكين أن تصف رب العالمين بغير ما وصف نفسه، كيف بك أيها العاجز تريد أن تصرف عن الله، تنفي عنه وتثبت له ما لم يثبته لنفسك، إذًا كمال العقل في الرضا بالنقل، في الرضا به، فإذا ظن أحد أن آيات المعية تخالف آيات الاستواء.

فاعلم أن العرب استخدموا المعية في معان: إما معية المصاحبة، أو معية التأييد والنصر،

ولذلك يقول أبو حنيفة: عندما سئل: الرحمن على العرش استوى؟ قال: علا وارتفع، فلما قيل له: ولكن الله عز وجل يقول: {وهو معكم أينما كنتم}، قال: تكتب إلى الرجل وبينك وبينه المسافات البعيدة تقول: إني معك.

يعني أنتم مجموعة جلستم تتحاورون في مسألة ثم اتصلتم بي وأنا في مصر، وقال بعضكم: قول، وقال الآخر قول، فقلت لكم: أنا مع فلان، هذه معية التأييد، معية النصر، وليست معية المصاحبة.

لما سئل بعض أهل العلم: أنت تقول وهو معكم أينما كنتم؟ قال أنت تقول: القمر مع المسافر.

وانظر رب العزة سبحانه وتعالى يقول له موسى وهارون: {رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ}[1]، فقال: {إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ}[2]، في هذا المجلس كانوا مع فرعون، فإنني معكما أي: أنصركما وأؤيدكما.

ورب العزة يقول يوم بدر للملائكة: {أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ}[3].

إذًا هذه المعية اسمها المعية الخاصة، ورب العزة لما خرج الرسول عليه الصلاة والسلام مهاجرًا هو وأبو بكر الصديق ودخل إلى الغار وجاء المشركون فبلغوا إلى باب الغار ووقفوا عنده وأبو بكر الصديق ينظر إلى أقدام القوم ويقول: يا رسول الله لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا! فيقول له: "لا تحزن إن الله معنا، ما ظنك باثنين الله ثالثهما"[4].

هم والمشركون في مكان واحد لكن الله مع رسوله ومع أبي بكر الصديق، وليس مع المشركين، هذه معية تأييد ومعية نصر.

ولذلك فإن المعية على قسمين: معية الإحاطة، ومعية النصر، فالأولى: هي المعية العامة، والثانية: المعية الخاصة.

فالله مع المؤمنين، مع المحسنين، مع الصابرين، مع المتقين، والله مع من يعمل بشرعه.

---

[1] [طه: ٤٦].

[2] [طه: ٤٦].

[3] [الأنفال: ١٢].

[4] أخرجه البخاري (٣٦١٥)، ومسلم (٧٦٢٤).

ومن آيات المعية العامة قوله تعال: {مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ}[1] إذًا هذه معية العلم، وسبحانه وتعالى: {يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ}[2]، إذًا فالمعية هنا معية علم.

ولذلك فالمعية معية عامة تشمل جميع المخلوقات، ومعية خاصة هي معية النصر والتأييد والإعانة وهي التي جاءت فيها هذه الآيات الكريمة.

وفي إثبات صفة الكلام لله عز وجل:

فيقول: وقوله: {وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثا}[3]، {وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلا}[4]، {وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ}[5]، {وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقا وَعَدۡلاۚ}[6]، وقوله: {وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيما}[7]، {مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ}[8]، {وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ}[9]، {وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّا}(١٠)، وقوله: {نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ}[11] {وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ}[12]، وقوله: {وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ}[13].

فهذه الآيات جاءت في إثبات كلام لله عز وجل، وأنه كلم بعض خلقه واختصهم بالكلام، ولا يجوز أن نقول هذا الكلام إلقاء في النفس وإلا لما كان لموسى خاصية أنه كليم الرحمن

لو قلنا: إن الكلام إلقاء في النفس، فإن الله عز وجل أوحي إلى كل الأنبياء والرسل فما الميزة التي اختص بها موسى، وإذا قلنا: كما يقول بعضهم: إن الله عز وجل خلق الكلام في شجرة وأن الشجرة تكلمت، هل يجوز للشجرة أن تقول إني أنا ربك؟ هذا إيمان أم كفر؟ هذا كفر، فلا يجوز للشجرة أن تقول: إني أنا ربك إنما رب العزة سبحانه وتعالى هو الذي تكلم، وكلامه سبحانه وتعالى صفة من صفاته وهو قائم بذاته.

---

[1] [المجادلة: ٧].
[2] [الحديد: ٤].
[3] [النساء: ٨٧].
[4] [النساء: ١٢٢].
[5] [المائدة: ١١٦].
[6] [الأنعام: ١١٥].
[7] [النساء: ١٦٤].
[8] [البقرة: ٢٥٣].
[9] [الأعراف: ١٤٣].
[10] [مريم: ٥٢].
[11] [الشعراء: ١٠].
[12] [الأعراف: ٢٢].
[13] [القصص: ٦٥].

وخلاصة مذهب أهل السنة والجماعة في هذه المسألة: أن الله تعالى لم يزل متكلمًا إذا شاء، وأن الكلام صفة له قائمة بذاته، يتكلم بها بمشيئته وقدرته، فهو لم يزل ولا يزال متكلمًا إذا شاء، وما تكلم الله به فهو قائم به ليس مخلوقًا منفصلًا عنه؛ كما تقول المعتزلة، ولا لازمًا لذاته لزوم الحياة لها؛ كما تقول الأشاعرة؛ بل هو تابع لمشيئته وقدرته.

والله سبحانه نادى موسى بصوت، ونادى آدم وحواء بصوت، وينادي عباده يوم القيامة بصوت، ويتكلم بالوحي بصوت، ولكن الحروف والأصوات التي تكلم الله بها صفة له غير مخلوقة، ولا تشبه أصوات المخلوقين وحروفهم، كما أن علم الله القائم بذاته ليس مثل علم عباده، فإن الله لا يماثل المخلوقين في شيء من صفاته.

ثم ينتقل شيخ الإسلام إلى ما هو مرتبط بذلك ارتباطًا وثيقًا فيقول الله عز وجل: {وَإِنْ أَحَد مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ}[1]، {وَقَدْ كَانَ فَرِيق مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}[2]، {يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ}[3]، {وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ}[4]، وقوله: {إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}[5]، {وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَك}[6]، {لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَل لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعا مُّتَصَدِّعا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِۚ}[7]، {قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ * وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَر لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّ مُّبِينٌ}[8].

يقول الشارح رحمه الله: وخلاصة القول في ذلك: أن القرآن العربي كلام الله، منزل، غير مخلوق، منه بدأ، وإليه يعود، والله تكلم به على الحقيقة، فهو كلامه حقيقة لا كلام غيره، وإذا قرأ الناس القرآن أو كتبوه في المصاحف لم يخرجه ذلك عن أن يكون كلام الله؛ فإن الكلام إنما يضاف حقيقة إلى من قاله مبتدئًا، لا إلى من بلغه مؤديًا، والله تكلم بحروفه ومعانيه بلفظ نفسه، ليس شيء منه كلامًا لغيره، لا لجبريل، ولا لمحمد، ولا لغيرهما، والله تكلم به أيضًا بصوت نفسه، فإذا قرأه العباد قرؤوه بصوت أنفسهم، فإذا قال القارئ مثلًا: {ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ}[9]؛ كان هذا الكلام المسموع منه كلام الله، لا كلام نفسه، وكان هو قرأه بصوت نفسه لا بصوت الله.

وكما أن القرآن كلام الله، فكذلك هو كتابه؛ لأنه كتبه في اللوح المحفوظ، ولأنه مكتوب في المصاحف؛ قال تعالى: {إِنَّهُۥ لَقُرْءَان كَرِيم* فِي كِتَٰب مَّكْنُون}[10]، وقال: {بَلْ هُوَ قُرْءَان مَّجِيد * فِي لَوْح مَّحْفُوظ}[1].

---

[1] [التوبة: ٦].
[2] [البقرة: ٧٥].
[3] [الفتح: ١٥].
[4] [الكهف: ٢٧].
[5] [النمل: ٧٦].
[6] [الأنعام: ٩٢].
[7] [الحشر: ٢١].
[8] [النحل: ١٠٢-١٠٣].
[9] [الفاتحة: ٢].
[10] [الواقعة: ٧٧-٧٨].

وقال: {فِي صُحُف مُّكَرَّمَة * مَّرْفُوعَة مُّطَهَّرَة * بِأَيْدِي سَفَرَة * كِرَام بَرَرَة}[٢].

والقرآن في الأصل: مصدر كالقراءة؛ كما في قوله تعالى: {إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا}[٣]

ثم ينتقل شيخ الإسلام رحمه الله إلى آخر ما جاء به من الاستدلال على الأسماء والصفات من آيات القرآن الكريم يقول: وقوله: {**وُجُوه يَوْمَئِذ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَة**}[٤]

رد على المعتزلة وبعض فرق الضلال في نفيهم النظر لوجه الله عز وجل، {عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ}[٥]، {لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَة}[٦]، والزيادة فسرها أهل العلم: بأنها النظر لوجه الله عز وجل، وقوله: {لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد}.

وهذا الباب في كتاب الله كثير، من تدبر القرآن طالبًا للهدى منه؛ تبين له طريق النجاة.

يقول الشارح رحمه الله: وقد نفاها المعتزلة؛ بناء على نفيهم الجهة عن الله؛ لأن المرئي يجب أن يكون في جهة من الرائي، وما دامت الجهة مستحيلة، وهي شرط في الرؤية؛ فالرؤية كذلك مستحيلة.

واحتجوا من النقل بقوله تعالى: {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ}، وقوله لموسى عليه السلام حين سأله الرؤية: { لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي }.

أما الأشاعرة؛ فهم مع نفيهم الجهة كالمعتزلة يثبتون الرؤية، ولذلك حاروا في تفسير تلك الرؤية، فمنهم من قال: يرونه من جميع الجهات، ومنهم من جعلها رؤية بالبصيرة لا بالبصر، وقال: المقصود زيادة الانكشاف والتجلي حتى كأنها رؤية عين.

وهذه الآيات التي أوردها المؤلف حجة على المعتزلة في نفيهم الرؤية؛ فإن الآية الأولى عدي النظر فيها بـ {إلى}، فيكون بمعنى الإبصار؛ يقال: نظرت إليه وأبصرته بمعنى، ومتعلق النظر هو الرب جل شأنه.

وأما ما يتكلفه المعتزلة من جعلهم {ناظرة} بمعنى منتظرة، و{إلى} بمعنى النعمة. والتقدير: ثواب ربها منتظرة؛ فهو تأويل مضحك، تأويل فاسد؛ لأن الانتظار تعذيب وليس تنعيم فكيف يذكره رب العزة في معرض التنعيم.

وأما الآية الثانية؛ فتفيد أن أهل الجنة، وهم على أرائكهم -يعني: أسرتهم، جمع أريكة -ينظرون إلى ربهم.

وأما الآيتان الأخيرتان؛ فقد صح عن النبي ﷺ تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله عز وجل.

ثم يقول: وأما ما احتج به المعتزلة من قوله لا تدركه الابصار فلا حجة له؛ لأن نفي الإدراك لا يستلزم نفي الرؤية يعني: يقولون أنت تعرف فلان، فيقول: نعم، فهل سرت معه؟ يقول: لا، يقول: إذًا أنت لا تعرفه، إذًا المعرفة درجات، والرؤية غير الإدراك، يرون ربهم ولا يحيطون به علمًا، لا يدركونه، فالإدراك معنى غير الرؤية، فما نفاه رب العزة في قوله:

---

[١] [البروج: ٢١-٢٢].

[٢] [عبس: ١٣-١٦].

[٣] [الإسراء: ٧٨].

[٤] [القيامة: ٢٢-٢٣].

[٥] [المطففين: ٢٣].

[٦] [يونس: ٢٦].

{لا تدركه الأبصار} ليس هو ما أثبته لأهل الجنة من قوله: وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة، فالمراد أن الأبصار تراه، ولكن لا تحيط به رؤية؛ كما أن العقول تعلمه ولكن لا تحيط به علمًا؛ لأن الإدراك هو الرؤية على جهة الإحاطة، فهو رؤية خاصة، ونفي الخاص لا يستلزم نفي مطلق الرؤية.

وكذلك استدلالهم على نفي الرؤية بقوله تعالى لموسى عليه السلام: {لن تراني} لا يصلح دليلًا، بل الآية تدل على الرؤية من وجوه كثيرة؛ منها:

١ -وقوع السؤال من موسى، وهو رسول الله وكليمه، وهو أعلم بما يستحيل في حق الله من هؤلاء المعتزلة، فلو كانت الرؤية ممتنعة لما طلبها.

٢ -أن الله عز وجل علق الرؤية على استقرار الجبل حال التجلي وهو ممكن، والمعلق على الممكن ممكن.

٣ -أن الله تجلى للجبل بالفعل، وهو جماد، فلا يمتنع إذًا أن يتجلى لأهل محبته وأصفيائه.

ثم يقول الشارح رحمه الله: مباحث عامة حول آيات الصفات:

إن الناظر في آيات الصفات التي ساقها المؤلف رحمه الله يستطيع أن يستنبط منها قواعد وأصولا هامة يجب الرجوع إليها في هذا الباب:

الأصل الأول: اتفق السلف على أنه يجب الإيمان بجميع الأسماء الحسني، وما دلت عليه من الصفات، وما ينشأ عنها من الأفعال.

مثال ذلك: القدرة مثلا، يجب الإيمان بأنه سبحانه على كل شيء قدير، والإيمان بكمال قدرته، والإيمان بأن قدرته نشأت عنها جميع الكائنات.

وهكذا بقية الأسماء الحسني على هذا النمط.

وعلى هذا؛ فما ورد في هذه الآيات التي ساقها المصنف من الأسماء الحسني؛ فإنها داخلة في الإيمان بالاسم.

وما فيها من ذكر الصفات؛ مثل: عزة الله، وقدرته، وعلمه، وحكمته، وإرادته، ومشيئته، فإنها داخلة في الإيمان بالصفات.

وما فيها من ذكر الأفعال المطلقة والمقيدة، مثل: يعلم كذا، ويحكم ما يريد، ويرى، ويسمع، وينادي، ويناجي، وكلم، ويكلم؛ فإنها داخلة في الإيمان بالأفعال.

الأصل الثاني: دلت هذه النصوص القرآنية على أن صفات الباري قسمان:

١ -صفات ذاتية لا تنفك عنها الذات، بل هي لازمة لها أزلا وأبدا، ولا تتعلق بها مشيئته تعالى وقدرته، وذلك كصفات: الحياة، والعلم، والقدرة، والقوة، والعزة، والملك، والعظمة، والكبرياء، والمجد، والجلال إلى آخره.

٢ -صفات فعلية تتعلق بها مشيئته وقدرته كل وقت وآن، وتحدث بمشيئته وقدرته آحاد تلك الصفات من الأفعال، وإن كان هو لم يزل موصوفًا بها، حتى قبل وقوع سببها، بمعنى أن نوعها قديم، وأفرادها حادثة، فهو سبحانه لم يزل فعالًا لما يريد، ولم يزل ولا يزال يقول ويتكلم ويخلق ويدبر الأمور، وأفعاله تقع شيئًا فشيئًا، تبعًا لحكمته وإرادته.

فعلى المؤمن الإيمان بكل ما نسبه الله لنفسه من الأفعال المتعلقة بذاته؛ كالاستواء على العرش، والمجيء، والإتيان، والنزول إلى السماء الدنيا، والضحك، والرضى، والغضب، والكراهية، والمحبة.

والمتعلقة بخلقه؛ كالخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة، وأنواع التدبير المختلفة.

إذًا الأصل الثاني أن الصفات تنقسم إلى:

١- صفات ذات.

٢- وصفات أفعال.

صفات الذات: صفات لازمة للذات.

وصفات الأفعال: صفات تقع بالمشيئة يحدثها متى شاء، يخلق متى شاء، يرزق متى شاء، يعطي متى شاء، صفات ضحكه، غضبه، نزوله، كلها متعلقة بمشيئته.

الأصل الثالث: إثبات تفرد الرب جل شأنه بكل صفة كمال، وأنه ليس له شريك أو مثيل في شيء منها.

وما ورد في الآيات السابقة من إثبات المثل الأعلى له وحده، ونفي الند والمثل والكفء والسمي والشريك عنه يدل على ذلك؛ كما يدل على أنه منزه عن كل نقص وعيب وآفة.

الأصل الرابع: إثبات جميع ما ورد به الكتاب والسنة من الصفات، لا فرق بين الذاتية منها؛ كالعلم والقدرة والإرادة والحياة والسمع والبصر ونحوها، والفعلية؛ كالرضا والمحبة والغضب والكراهة، وكذلك لا فرق بين إثبات الوجه واليدين ونحوهما، وبين الاستواء على العرش والنزول، فكلها مما اتفق السلف على إثباته بلا تأويل ولا تعطيل، وبلا تشبيه وتمثيل.

يقول: والمخالف في هذا الأصل -الذي هو الأصل الرابع -في الإثبات (الجهمية والمعتزلة والأشاعرة)

الجهمية: ينفون جميع الأسماء والصفات.

المعتزلة: فإنهم ينفون جميع الصفات، ويثبتون الأسماء، فيقولون: عليم بلا علم، وقدير بلا قدرة، وحي بلا حياة؛ لأنهم ظنوا أنهم لو أثبتوا العلم والقدرة والحياة لتعددت القدماء لصار ذلك من الشرك، يفهمون الصفة كأنها شيء قائم بذاته، ما يفهمون ذاتًا لها صفات، وهذا القول في غاية الفساد؛ فإن إثبات موصوف بلا صفة، وإثبات ما للصفة للذات المجردة محال في العقل؛ كما هو باطل في الشرع.

أما الأشعرية ومن تبعهم؛ فإنهم يوافقون أهل السنة في إثبات سبع صفات يسمونها صفات المعاني، ويدعون ثبوتها بالعقل، وهي: الحياة، والعلم، والقدرة، والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام.

ولكنهم وافقوا المعتزلة في نفي ما عدا هذه السبع من الصفات الخبرية التي صح بها الخبر.

والكل محجوجون بالكتاب والسنة وإجماع الصحابة والقرون المفضلة على الإثبات العام.

هذه الأصول الأربعة هي خلاصة السابق بل وخلاصة جزء كبير من اللاحق؛ لأن المصنف رحمه الله استدل أولًا بالآيات على الصفات؛ ثم يستدل بالأحاديث على الصفات؛ ولذلك سنقرأ الأحاديث التي ذكرها في الصفات.

قوله: فصل: إذًا هذا الفصل يفصل بين الأحاديث والآيات التي جاءت بالصفات.

فصل: ثم في سنة رسول الله ﷺ، فالسنة تفسر القرآن، وتبينه، وتدل عليه، وتعبر عنه، وما وصف الرسول به ربه عز وجل من الأحاديث الصحاح التي تلقاها أهل المعرفة بالقبول؛ وجب الإيمان بها كذلك، كما نؤمن بالآيات.

فمن ذلك مثل قوله: " يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي، فَأَسْتَجِيبَ لَهُ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ"[١].

وقوله: " يَضْحَكُ اللَّهُ إِلَى رَجُلَيْنِ يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الآخَرَ يَدْخُلَانِ الجَنَّةَ: يُقَاتِلُ هَذَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَيُقْتَلُ، ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَى القَاتِلِ، فَيُسْتَشْهَدُ"[٢].

ويقول: "عجب ربنا من قنوط عباده وقرب غِيَرِه، ينظر إليكم آزلين قنطين، فيظل يضحك يعلم أن فرجكم قريب" حديث حسن[٣].

وقوله: " لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَى فِيهَا وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ، حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا قَدَمَهُ، فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ وَتَقُولُ: قَطْ قَطْ، بِعِزَّتِكَ وَكَرَمِكَ، وَلَا يَزَالُ فِي الْجَنَّةِ فَضْلٌ حَتَّى يُنْشِئَ اللهُ لَهَا خَلْقًا، فَيُسْكِنَهُمْ فَضْلَ الْجَنَّةِ "[٤].

وقوله: " يَقُولُ اللَّهُ: يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، فَيُنَادَى بِصَوْتٍ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ "[٥] متفق عليه.

وقوله: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ، وَلَا حِجَابٌ يَحْجُبُهُ"[٦].

وقوله في رقية المريض: "ربنا الله الذي في السماء، تقدس اسمك، أمرك في السماء والأرض، كما رحمتك في السماء، اجعل رحمتك في الأرض، اغفر لنا حوبنا وخطايانا، أنت رب الطيبين، أنزل رحمة من رحمتك، وشفاء من شفائك على هذا الوجع، فيبرأ"[٧].

وقوله: "أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ، يَأْتِينِي خَبَرُ السَّمَاءِ صَبَاحًا وَمَسَاءً...."[٨].

وقوله: "والعرش فوق الماء والله فوق العرش وهو يعلم ما أنتم عليه"[٩].

وقوله للجارية: «أَيْنَ اللهُ؟» قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «مَنْ أَنَا؟» قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: «أَعْتِقْهَا، فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ"[١٠].

---

[١] أخرجه البخاري (١١٤٥).

[٢] أخرجه البخاري (٢٨٢٦)، ومسلم (١٨٩٠).

[٣] أخرجه ابن ماجه (١٨١).

[٤] أخرجه مسلم (٢٨٤٨).

[٥] أخرجه البخاري (٧٤٨٣).

[٦] أخرجه البخاري (٧٤٤٣).

[٧] أخرجه النسائي في الكبرى (١٠٩٨٥).

[٨] أخرجه البخاري (٤٣٥١)، (١٠٦٤).

[٩] أخرجه الدارمي (٨١).

[١٠] أخرجه مسلم (٥٣٧).

وقوله: "أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيثما كنت"[١].

وقوله: "إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ يُصَلِّي، فَلَا يَبْصُقُ قِبَلَ وَجْهِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ قِبَلَ وَجْهِهِ إِذَا صَلَّى"[٢].

وقوله: «اللهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَرَبَّ الْأَرْضِ وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، وَمُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ، اللهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ، وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ"[٣].

وقوله لما ارتفعت أصوات الصحابة بالذكر: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّهُ مَعَكُمْ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ، تَبَارَكَ اسْمُهُ وَتَعَالَى جَدُّهُ"[٤].

وقوله: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا، فَافْعَلُوا"[٥].

إلى أمثال هذه الأحاديث التي يخبر فيها الرسول عن ربه بما يخبر به.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: فإن الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة يؤمنون بذلك؛ كما يؤمنون بما أخبر الله به في كتابه؛ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، بل هم الوسط في فرق الأمة؛ كما أن الأمة هي الوسط في الأمم.

ويشرح في ذلك في قوله تعالى: {وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ}[٦] ومعنى {وسطًا}: عدولًا خيارًا؛ كما ورد الحديث بذلك، فهذه الأمة وسط بين الأمم التي تجنح إلى الغلو الضار والأمم التي تميل إلى التفريط المهلك، فإن من الأمم من غلا في المخلوقين، وجعل لهم من صفات الخالق وحقوقه ما جعل؛ كالنصارى الذين غلوا في المسيح والرهبان، ومنهم من جفا الأنبياء وأتباعهم، حتى قتلهم، ورد دعوتهم؛ كاليهود الذين قتلوا زكريا ويحيى، وحاولوا قتل المسيح، ورموه بالبهتان.

وأما هذه الأمة؛ فقد آمنت بكل رسول أرسله الله، واعتقدت رسالتهم، وعرفت لهم مقاماتهم الرفيعة التي فضلهم الله بها.

ومن الأمم أيضًا من استحلت كل خبيث وطيب، ومنها من حرم الطيبات غلوا ومجاوزة.

---

[١] أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٨٧٩٦).

[٢] أخرجه البخاري (٤٠٦)، ومسلم (٥٤٧).

[٣] أخرجه مسلم (٢٧١٣).

[٤] أخرجه البخاري (٢٩٩٢).

[٥] أخرجه البخاري (٤٨٥١).

[٦] [البقرة: ١٤٣].

وأما هذه الأمة؛ فقد أحل الله لها الطيبات، وحرم عليها الخبائث.. إلى غير ذلك من الأمور التي مَنَّ الله على هذه الأمة الكاملة بالتوسط فيها.

فكذلك أهل السنة والجماعة متوسطون بين فرق الأمة المبتدعة التي انحرفت عن الصراط المستقيم.

ويقول شيخ الإسلام: فهم وسط في باب صفات الله سبحانه وتعالى بين أهل التعطيل الجهمية، وأهل التمثيل المشبهة، يعني: أن أهل السنة والجماعة وسط في باب الصفات بين من ينفيها ويعطل الذات العلية عنها، ويحرف ما ورد فيها من الآيات والأحاديث عن معانيها الصحيحة إلى ما يعتقده هو من معان بلا دليل صحيح، ولا عقل صريح؛ كقولهم: رحمة الله: إرادته الإحسان، ويده: قدرته، وعينه: حفظه ورعايته، واستواؤه على العرش: استيلاؤه... إلى أمثال ذلك من أنواع النفي والتعطيل التي أوقعهم فيها سوء ظنهم بربهم، وتوهمهم أن قيام هذه الصفات به لا يعقل إلا على النحو الموجود في قيامها بالمخلوق.

ولقد أحسن القائل حيث قال:

وقصـــارى أمـــر مـــن أول أن ظنـــوا الظنـــونا فيقولـــون علـــى الـــرحمن مـــا لا يعلمـــونا

وإنما سمي أهل التعطيل جهمية نسبة إلى الجهم بن صفوان الترمذي رأس الفتنة والضلال، وقد توسع في هذا اللفظ حتى أصبح يطلق على كل من نفى شيئًا من الأسماء والصفات، فهو شامل لجميع فرق النفاة؛ من فلاسفة، ومعتزلة، وأشعرية، وقرامطة باطنية.

فأهل السنة والجماعة وسط بين هؤلاء الجهمية النفاة، وبين أهل التمثيل المشبهة الذين شبهوا الله بخلقه، ومثلوه بعباده.

وقد رد الله على الطائفتين بقوله: {ليس كمثله شيء}، فهذا يرد على المشبهة.

وقوله: {وهو السميع البصير} يرد على المعطلة.

وأما أهل الحق؛ فهم الذين يثبتون الصفات لله تعالى إثباتًا بلا تمثيل، وينزهونه عن مشابهة المخلوقات تنزيهًا بلا تعطيل، فجمعوا أحسن ما عند الفريقين؛ أعني: التنزيه والإثبات، وتركوا ما أخطؤوا وأساؤوا فيه من التعطيل والتشبيه.

ثم يقول شيخ الإسلام: وهم وسط في باب أفعال الله بين الجبرية، والقدرية.

قال الشيخ العلامة مُحَمَّد بن العزيز بن مانع في تعليقه على هذه العبارة ما نصه: اعلم أن الناس اختلفوا في أفعال العباد؛ هل هي مقدورة للرب أم لا؟

فقال جهم وأتباعه –وهم الجبرية –: إن ذلك الفعل مقدور للرب لا للعبد.

وكذلك قال الأشعري وأتباعه: إن المؤثر في المقدور قدرة الرب دون قدرة العبد.

وقال جمهور المعتزلة –وهم القدرية؛ أي: نفاة القدر –: إن الرب لا يقدر على عين مقدور العبد.

واختلفوا: هل يقدر على مثل مقدوره؟ فأثبته البصريون؛ كأبي علي، وأبي هاشم، ونفاه الكعبي وأتباعه البغداديون.

وقال أهل الحق: أفعال العباد بها صاروا مطيعين وعصاة، وهي مخلوقة لله تعالى، والحق سبحانه منفرد بخلق المخلوقات، لا خالق لها سواه.

يعني: حتى أوضِّح هذه المسألة أقول: رجل حمل آلة قتل فضرب بها إنسانًا فمات، القاتل هو الذي كسب القتل؛ لكن من الذي خلق الموت؟ الله، لا الميت خلق لنفسه موت، ولا القاتل خلق موتًا، فالذي يخلق سائر الأفعال هو الله، وكسب الأفعال للعباد الذين فعلوها.

فالجبرية غلوا في إثبات القدر، فنفوا فعل العبد أصلًا.

والمعتزلة نفاة القدر جعلوا العباد خالقين مع الله، ولهذا كانوا مجوس هذه الأمة، يعني: الله عز وجل خلقنا وأعمالنا، {خلقكم وما تعملون}، فأفعال العباد مخلوقة خالقها هو الله، فالكسب للعبد، والخلق لله رب العالمين لأنه لا خالق إلا الله، المعتزلة قالوا: العبد يخلق أفعال نفسه، وهذا إثبات مخلوقين لا عدد لهم، لا حصر لهم، لذلك سموا مجوس هذه الأمة.

وهدى الله المؤمنين أهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، { وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ }، فقالوا: العباد فاعلون، والله خالقهم وخالق أفعالهم؛ كما قال تعالى: { وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ }.

إذًا أهل السنة وسط في باب أفعال الله بين الجبرية والقدرية، وفي باب وعيد الله بين المرجئة وبين الوعيدية من القدرية وغيرهم.

قوله: وفي باب وعيد الله... إلخ؛ يعني: أن أهل السنة والجماعة وسط في باب الوعيد بين المفرطين من المرجئة الذين قالوا: لا يضر مع الإيمان ذنب، كما لا تنفع مع الكفر طاعة. وزعموا أن الإيمان مجرد التصديق بالقلب، وإن لم ينطق به، وسُموا بذلك نسبة إلى الإرجاء؛ أي التأخير؛ لأنهم أخروا الأعمال عن الإيمان.

ولا شك أن الإرجاء بهذا المعنى كفر يخرج صاحبه من الملة؛ فإنه لا بد في الإيمان من قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان، فإذا اختل واحد منها لم يكن الرجل مؤمنًا.

وأما الإرجاء الذي نسب إلى بعض الأئمة من أهل الكوفة؛ كأبي حنيفة وغيره، وهو قولهم: إن الأعمال ليست من الإيمان، ولكنهم مع ذلك يوافقون أهل السنة على أن الله يعذب من يعذب من أهل الكبائر بالنار، ثم يخرجهم منها بالشفاعة وغيرها، وعلى أنه لا بد في الإيمان من نطق باللسان، وعلى أن الأعمال المفروضة واجبة يستحق تاركها الذم والعقاب؛ فهذا النوع من الإرجاء ليس كفرًا، وإن كان قولًا باطلًا مبتدعًا؛ لإخراجهم الأعمال عن الإيمان.

وأما الوعيدية: فهم القائلون بأن الله يجب عليه عقلا أن يعذب العاصي، كما يجب عليه أن يثيب المطيع، فمن مات على كبيرة ولم يتب منها لا يجوز عندهم أن يغفر الله له.

ومذهبهم باطل مخالف للكتاب والسنة؛ قال تعالى: {إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ}[1].

---

[1] [النساء: ٤٨].

إذًا أهل السنة وسط بين المرجئة الذين هم خارجون من الملة وهم الذين لم يجعلوا العمل من الإيمان أصلًا، أو المرجئة الذين نسب إليهم بعض الأئمة -وإن كنا نبرئ الأئمة من أن يقعوا في مثل هذا الضلال-، لكن هذا الإرجاء الذي نسب إليه بعضهم فهو على أن الأعمال المفروضة واجبة يستحق تاركه الذم، ومع ذلك يؤمنون أن الله عز وجل يعذب من يعذب من أهل الكبائر بالنار ثم يخرجهم منها بالشفاعة وغيرها، وعلى أنه لا بد في الإيمان من نطق باللسان، وعلى أن الأعمال المفروضة واجبة يستحق تاركها الذم والعقاب.

هذا النوع من الإرجاء الذي يقولونه لا يجوز أن يكفر صاحبه وإن أبطلنا قوله.

يقول: وقد استفاضت الأحاديث في خروج عصاة الموحدين من النار ودخولهم الجنة.

فمذهب أهل السنة والجماعة: وسط بين نفاة الوعيد من المرجئة، وبين موجبيه من القدرية، فمن مات على كبيرة عندهم؛ فأمره مفوض إلى الله، إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه؛ كما دلت عليه الآية السابقة.

وإذا عاقبه بها؛ فإنه لا يخلد خلود الكفار، بل يخرج من النار، ويدخل الجنة.

إذًا الوعيدية قالوا: فاعل الكبيرة داخل النار، لا يجوز لله عز وجل أن يغفر لهم فحرموا رب العالمين مما أثبته لنفسه { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ }.(١)

والمرجئة قالوا: كما أنه لا ينفع مع الكفر طاعة، فإنه لا يضر مع الإيمان معصية فإيمان أفسق الفاسقين كإيمان الأنبياء والمرسلين، فلا يجعلون المعاصي مؤثرة في الأعمال.

أما أهل السنة والجماعة: يؤمنون أن الإيمان: قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالأركان لا يجوز أن نؤخر واحدة منها فلا نجعله من الإيمان.

ويقول شيخ الإسلام: **[وفي باب أسماء الإيمان والدين بين الحرورية، والمعتزلة، وبين المرجئة، والجهمية]**: يعني أهل السنة وسط في أسماء الإيمان والدين يعني: مؤمن وفاسق وكافر في هذه الأسماء، وسط بين الحرورية والمعتزلة، وبين المرجئة والجهمية.

يقول: كانت مسألة الأسماء والأحكام من أول ما وقع فيه النزاع في الإسلام بين الطوائف المختلفة، وكان للأحداث السياسية والحروب التي جرت بين علي ومعاوية رضي الله عنهما في ذلك الحين، وما ترتب عليها من ظهور الخوارج والرافضة والقدرية أثر كبير في ذلك النزاع.

والمراد بالأسماء هنا أسماء الدين، مثل: مؤمن، ومسلم، وكافر، وفاسق... إلى آخره التي هي قضية الوعد والوعيد، فكما يقول هذه أول ما وقع الخلاف فيها بين فرق الأمة قضية الوعد والوعيد، وهي أول ما تميز به المرجئة والجهمية والحرورية الخوارج والمعتزلة.

والمراد بالأحكام أحكام أصحابها في الدنيا والآخرة.

---

(١) [النساء: ٤٨].

فالخوارج الحرورية والمعتزلة: ذهبوا إلى أنه لا يستحق اسم الإيمان إلا من صدَّق بجنانه، وأقر بلسانه، وقام بجميع الواجبات، واجتنب جميع الكبائر.

فمرتكب الكبيرة عندهم لا يسمى مؤمنًا باتفاق بين الفريقين.

ولكنهم اختلفوا: هل يسمى كافرا أم لا؟

فالخوارج: يسمونه كافرًا، ويستحلون دمه وماله، ولهذا كفروا عليًا ومعاوية وأصحابهما ﷺ، واستحلوا منهم ما يستحلون من الكفار الأموال والدماء والأعراض.

وأما المعتزلة؛ فقالوا: إن مرتكب الكبيرة خرج من الإيمان ولم يدخل في الكفر؛ فهو بمنزلة بين المنزلتين، وهذا أحد الأصول التي قام عليها مذهب الاعتزال.

واتفق الفريقان أيضًا على أن من مات على كبيرة ولم يتب منها فهو مخلد في النار.

فوقع الاتفاق بينهما في أمرين:

١ –نفي الإيمان عن مرتكب الكبيرة، يعني لو سألنا من الذي ينفي الإيمان عن مرتكب الكبيرة؟ الجواب هم الخوارج والمعتزلة.

٢ –خلوده في النار مع الكفار، مؤمن فاعل للكبيرة عندهم خالد في النار مع الكفار.

ووقع الخلاف أيضا في موضعين:

أحدهما: تسميته كافرًا، الخوارج يسمونه كافر، والمعتزلة لا يسمونه كافر، ولكن يقولون منزلة بين المنزلتين.

والثاني: استحلال دمه وماله، وهو الحكم الدنيوي، المعتزلة لا يستحلون دمه وماله، والخوارج يستحلون دمه وماله.

وأما المرجئة؛ فقد سبق بيان مذهبهم، وهو أنه لا يضر مع الإيمان معصية؛ فمرتكب الكبيرة عندهم مؤمن كامل الإيمان، ولا يستحق دخول النار.

فمذهب أهل السنة والجماعة: وسط بين هذين المذهبين؛ فمرتكب الكبيرة عندهم مؤمن ناقص الإيمان، قد نقص من إيمانه بقدر ما ارتكب من معصية، فلا ينفون عنه الإيمان أصلا؛ كالخوارج والمعتزلة، ولا يقولون: بأنه كامل الإيمان؛ كالمرجئة والجهمية.

وحكمه في الآخرة عندهم أنه قد يعفو الله عز وجل عنه فيدخل الجنة ابتداء، أو يعذبه بقدر معصيته، ثم يخرجه ويدخله الجنة كما سبق، وهذا الحكم أيضا وسط بين من يقول بخلوده في النار، وبين من يقول: إنه لا يستحق على المعصية عقابًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: [وَفِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ الرَّافِضَةِ وَالْخَوَارِجِ].

قال الشارح رحمه الله: قوله: (وفي أصحاب رسول الله... إلخ) المعروف أن الرافضة قبحهم الله يسبون الصحابة ﷺ، ويلعنونهم، وربما كفروهم، أو كفروا بعضهم، والغالبية منهم – مع سبهم لكثير من الصحابة والخلفاء – يغلون في علي ﷺ وأولاده، ويعتقدون فيهم الإلهية.

وقد ظهر هؤلاء في حياة علي ﷺ، بزعامة عبد الله بن سبأ؛ الذي كان يهوديًا وأسلم، وأراد أن يكيد للإسلام وأهله؛ كما كاد اليهود من قبل للنصرانية فأفسدوها على أهلها، وقد حرقهم عليٌّ ﷺ بالنار، لإطفاء فتنتهم، وروي عنه في ذلك قوله:

لمـــا رأيـــت الأمـــر أمـــرًا منكـــرًا أجَّجْـــتُ ناري ودعـــوت قنـــبرًا

فالشيعة الروافض يسبون أصحاب الرسول ﷺ، ويدخلون في هذا السب زوجاتِ النبي ﷺ، والمقربين من أصحابه ﷺ، والحقيقة أن من سب الصحابة ﷺ، فقد سب الرسول ﷺ ولا بد، لأن المرء على دين خليله، والطيور على أشكالها تقع، فإذا كان الأصحاب ﷺ هكذا، فالرسول ﷺ لا بد أنه هكذا!.

وأما الخوارج؛ فقد قابلوا هؤلاء الروافض، فكفروا عليًّا، ومعاوية، ومن معهما من الصحابة ﷺ، وقاتلوهم، واستحلوا دماءهم وأموالهم.

وأما أهل السنة والجماعة؛ فكانوا وسطًا بين غلو هؤلاء، وتقصير أولئك، وهداهم الله إلى الاعتراف بفضل أصحاب نبيهم، وأنهم أكمل هذه الأمة إسلامًا، وإيمانًا، وعلمًا، وحكمة، ولكنهم لم يُغلوا فيهم، ولم يعتقدوا عصمتهم؛ بل قاموا بحقوقهم، وأحبوهم، لعظيم سابقتهم، وحسن بلائهم في نصرة الإسلام، وجهادهم مع رسول الله ﷺ.

إذًا فمسألة الصحابة من مسائل الأصول؛ لأن الصحابة وإن كانوا ليسوا معصومين، لكنهم طريق وصول الدين، فهم حملته ونقلته، فمن طعن فيهم فقد طعن في الدين، فكيف يأتينا هذا الدين عن طريق الكافرين؟!

ولذلك فإن الشيعة حتى يزعموا لأنفسهم دينًا، فقد اتخذوا له مصدرًا غير الصحابة، وهم أئمتهم، فقالوا بالأئمة المعصومين، وهذا الكلام لو قلنا بلازمه لكفروا، لأن عصمتهم تعني أن كلامهم وحي، يعني أنه ينسخ القرآن والسنة، لأنه متأخر عنه، وهذا الكلام كفر محض.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (فَصْلٌ): [وَقَدْ دَخَلَ فِيمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ الْإِيمَانِ بِاَللَّهِ: الْإِيمَانُ بِمَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ، وَتَوَاتَرَ عَنْ رَسُولِهِ ﷺ، وَأَجْمَعَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ، مِنْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ فَوْقَ سَمَوَاتِهِ عَلَى عَرْشِهِ، عَلِيٌّ عَلَى خَلْقِهِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا، يَعْلَمُ مَا هُمْ عَامِلُونَ، كَمَا جَمَعَ بَيْنَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}[1]، وَلَيْسَ مَعْنَى قَوْلِهِ: {وَهُوَ مَعَكُمْ} أَنَّهُ مُخْتَلِطٌ

[1] [الحديد: ٤].

بِالْخَلْقِ، فَإِنَّ هَذَا لَا تُوجِبُهُ اللُّغَةُ، وَهُوَ خِلَافُ مَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ، وَخِلَافُ مَا فَطَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْخَلْقَ؛ بَلْ الْقَمَرُ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مِنْ أَصْغَرِ مَخْلُوقَاتِهِ هُوَ مَوْضُوعٌ فِي السَّمَاءِ؛ وَهُوَ مَعَ الْمُسَافِرِ وَغَيْرِ الْمُسَافِرِ أَيْنَمَا كَانَ؛ وَهُوَ سُبْحَانَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، رَقِيبٌ عَلَى خَلْقِهِ، مُهَيْمِنٌ عَلَيْهِمْ، مُطَّلِعٌ إلَيْهِمْ، إلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَعَانِي رُبُوبِيَّتِهِ، وَكُلُّ هَذَا الْكَلَامِ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ – مِنْ أَنَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، وَأَنَّهُ مَعَنَا – حَقٌّ عَلَى حَقِيقَتِهِ، لَا يَحْتَاجُ إلَى تَحْرِيفٍ، وَلَكِنْ يُصَانُ عَنْ الظُّنُونِ الْكَاذِبَةِ؛ مِثْلُ أَنْ يَظُنَّ أَنَّ ظَاهِرَ قَوْلِهِ: {فِي السَّمَاءِ}[1] أَنَّ السَّمَاءَ تُقِلُّهُ أَوْ تُظِلُّهُ؛ وَهَذَا بَاطِلٌ بِإِجْمَاعِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَهُوَ الَّذِي يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا، وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إلَّا بِإِذْنِهِ، {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ}[2]].

قال الشارح رحمه الله: قوله: (وقد دخل فيما ذكرناه من الإيمان...، إلخ)، صرح المؤلف هنا بمسألة علو الله تعالى، واستوائه على عرشه، بائنًا من خلقه؛ كما أخبر الله عن ذلك في كتابه، وكما تواتر الخبر بذلك عن رسوله ﷺ، وكما أجمع عليه سلف الأمة؛ الذين هم أكملها علمًا وإيمانًا، مؤكدًا بذلك ما سبق ذكره في هذا الصدد، ومشددًا النكير على من أنكر ذلك من الجهمية، والمعتزلة، ومن تبعهم من الأشاعرة.

ثم بين أن استواء الله تعالى على عرشه، لا ينافي معيته وقربه من خلقه؛ فإن المعية ليس معناها الاختلاط والمجاورة الحسية.

وضرب لذلك مثلًا بالقمر؛ الذي هو موضوع في السماء، وهو مع المسافر وغيره أينما كان؛ بظهوره، واتصال نوره، فإذا جاز هذا بالنسبة للقمر، وهو من أصغر مخلوقات الله؛ أفلا يجوز بالنسبة إلى اللطيف الخبير، الذي أحاط بعباده علمًا وقدرة، والذي هو شهيد مطلع عليهم، يسمعهم، ويراهم، ويعلم سرهم ونجواهم، بل العالم كله، سماواته وأرضه، من العرش إلى الفرش، كله بين يديه سبحانه؛ كأنه خردلة في يد أحدنا؛ أفلا يجوز لمن هذا شأنه أن يقال: إنه مع خلقه، مع كونه عاليًا عليهم، بائنًا منهم، فوق عرشه؟!

بلى؛ يجب الإيمان بكلٍّ، من علوه تعالى ومعيته، واعتقاد أن ذلك كله حق على حقيقته، من غير أن يُساء فهم ذلك، أو يحمل على معان فاسدة؛ كأن يفهم من قوله: {وَهُوَ مَعَكُمْ} معية الاختلاط والامتزاج؛ كما يزعمه الحلولية! أو يفهم من قوله: {فِي السَّمَاءِ} أن السماء ظرف حاو له، محيط به! كيف وقد وسع كرسيه السموات والأرض جميعًا؟! وهو الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، فسبحان من لا يبلغه وهم الواهمين، ولا تدركه أفهام العالمين.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: (فَصْلٌ): [وَقَدْ دَخَلَ فِي ذَلِكَ: الْإِيمَانُ بِأَنَّهُ قَرِيبٌ مِنْ خَلْقِهِ، مُجِيبٌ، كَمَا جَمَعَ بَيْنَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ } الْآيَةَ[3]، وَقَوْلُهُ ﷺ لِلصَّحَابَةِ لَمَّا رَفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ بِالذِّكْرِ: { أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا؛ إنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ

---

[1] [الملك: ١٦].

[2] [الروم: ٢٥].

[3] [البقرة: ١٨٦].

أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ}، وَمَا ذَكَرَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ قُرْبِهِ وَمَعِيَّتِهِ، لَا يُنَافِي مَا ذَكَرَ مِنْ عُلُوِّهِ وَفَوْقِيَّتِهِ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فِي جَمِيعِ نُعُوتِهِ، وَهُوَ عَلِيٌّ فِي دُنُوِّهِ، قَرِيبٌ فِي عُلُوِّهِ].

قال الشارح رحمه الله: قوله: (وقد دخل في ذلك الإيمان... إلخ) يجب الإيمان بما وصف الله به نفسه، من أنه قريب مجيب، فهو سبحانه قريب ممن يدعوه ويناجيه، يسمع دعاءه ونجواه، ويجيب دعاءه متى شاء، وكيف شاء، فهو تعالى قريب قرب علم وإحاطة؛ كما قال تعالى:{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ}[1]، وبهذا يتبين أنه لا منافاة أصلًا بين ما ذُكِر في الكتاب والسنة من قربه تعالى ومعيته، وبين ما فيهما من علوه تعالى وفوقيته، فهذه كلها نعوت له على ما يليق به سبحانه، ليس كمثله شيء في شيء منها.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: (فَصْلٌ): [وَمِنْ الْإِيمَانِ بِاَللَّهِ وَكُتُبِهِ: الْإِيمَانُ بِأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ، مُنَزَّلٌ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، مِنْهُ بَدَأَ وَإِلَيْهِ يَعُودُ؛ وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى تَكَلَّمَ بِهِ حَقِيقَةً، وَأَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ كَلَامُ اللَّهِ حَقِيقَةً لَا كَلَامُ غَيْرِهِ؛ وَلَا يَجُوزُ إطْلَاقُ الْقَوْلِ بِأَنَّهُ حِكَايَةٌ عَنْ كَلَامِ اللَّهِ، أَوْ عِبَارَةٌ عَنْهُ، بَلْ إذَا قَرَأَهُ النَّاسُ أَوْ كَتَبُوهُ بِذَلِكَ فِي الْمَصَاحِفِ، لَمْ يَخْرُجْ بِذَلِكَ عَنْ أَنْ يَكُونَ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى حَقِيقَةً، فَإِنَّ الْكَلَامَ إنَّمَا يُضَافُ حَقِيقَةً إلَى مَنْ قَالَهُ مُبْتَدِئًا، لَا إلَى مَنْ قَالَهُ مُبَلِّغًا مُؤَدِّيًا. وَهُوَ كَلَامُ اللَّهِ؛ حُرُوفُهُ وَمَعَانِيهِ، لَيْسَ كَلَامُ اللَّهِ الْحُرُوفَ دُونَ الْمَعَانِي، وَلَا الْمَعَانِيَ دُونَ الْحُرُوفِ].

قال الشارح رحمه الله: قوله: (ومن الإيمان بالله وكتبه...إلخ) جعل المصنف رحمه الله الإيمان بأن القرآن كلام الله داخلًا في الإيمان بالله؛ لأنه صفة من صفاته، فلا يتم الإيمان به سبحانه إلا بها، إذ الكلام لا يكون إلا صفة للمتكلم، والله سبحانه موصوف بأنه متكلم بما شاء متى شاء، وأنه لم يزل ولا يزال يتكلم؛ بمعنى أن كلامه قديم، وإن كانت آحاده لا تزال تقع شيئًا بعد شيء بحسب حكمته.

وقد قلنا فيما سبق: إن الإضافة في قولنا: القرآن كلام الله؛ هي من إضافة الصفة للموصوف، فتفيد: أن القرآن صفة الرب سبحانه، وأنه تكلم به حقيقة بألفاظه ومعانيه، بصوت نفسه.

فمن زعم من المعتزلة أن القرآن مخلوق؛ فقد أعظم الفرية على الله، ونفى كلام الله عن الله وصفًا، وجعله وصفًا لمخلوق، وكان أيضًا متجنيًا على اللغة، فليس في لغة العرب متكلم بمعنى خالق للكلام، ومن زعم أن القرآن الموجود بيننا حكاية عن كلام الله؛ كما تقوله الكلابية، أو أنه عبارة عنه؛ كما تقوله الأشعرية؛ فقد قال بنصف قول المعتزلة؛ حيث فرق بين الألفاظ والمعاني، فجعل الألفاظ مخلوقة، والمعاني من الله، والمعاني عندهم عبارة عن الصفة القديمة؛ كما أنه يكون بذلك ضاهى النصارى في قولهم بحلول اللاهوت – وهو الكلمة – في الناسوت، – وهو جسد عيسى عليه السلام –؛ إذ قال بحلول المعاني التي هي الصفة القديمة، في هذه الألفاظ المخلوقة، فجعل الألفاظ ناسوتًا لها.

---

[1] [ق: ١٦].

والقرآن كلام الله؛ حيث تصرف، فمهما كتبناه في المصاحف، أو تلوناه بالألسنة؛ لم يخرج بذلك عن أن يكون كلام الله؛ لأن الكلام – كما قال المصنف – إنما يضاف إلى من قاله مبتدئًا به؛ لا إلى من قاله مبلغًا مؤديًا.

وأما معنى قول السلف: (منه بدأ وإليه يعود) فهو من البدء، يعني: أن الله هو الذي تكلم به ابتداء، لم يبتدأ من غيره، ويحتمل أن يكون من البدو بمعنى الظهور؛ يعني أنه هو الذي تكلم به وظهر منه، لم يظهر من غيره.

ومعنى: (إليه يعود) أي: يرجع إليه وصفًا؛ لأنه وصفه القائم به، وقيل: معناه يعود إليه في آخر الزمان، حين يرفع من المصاحف والصدور، كما ورد في أشراط الساعة.

وأما كون الإيمان بأن القرآن كلام الله داخلًا في الإيمان بالكتب؛ فإن الإيمان بها إيمانًا صحيحًا يقتضي إيمان العبد بأن الله تكلم بها؛ بألفاظها ومعانيها، وأنها جميعًا كلامه، لا كلام غيره، فهو الذي تكلم بالتوراة بالعبرانية، وبالإنجيل بالسريانية، وبالقرآن بلسان عربي مبين.

ثم يقول شيخ الإسلام رحمه الله: (فَصْلٌ): [وَقَدْ دَخَلَ أَيْضًا فِيمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ الْإِيمَانِ بِهِ وَبِكُتُبِهِ وَبِرُسُلِهِ: الْإِيمَانُ بِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِيَانًا بِأَبْصَارِهِمْ، كَمَا يَرَوْنَ الشَّمْسَ صَحْوًا لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ، وَكَمَا يَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَا يضامون فِي رُؤْيَتِهِ، يَرَوْنَهُ سُبْحَانَهُ وَهُمْ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَرَوْنَهُ بَعْدَ دُخُولِ الْجَنَّةِ، كَمَا يَشَاءُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى].

تدبر: لترى أن المصنف يركز على المعاني مرة أخرى، ويكرر كما كرر أمر الأسماء والصفات، يكرر أمر الإيمان بأن القرآن كلام الله، ويكرر أن المؤمنين من أهل السنة والجماعة يؤمنون بأنهم يرون ربهم.

يقول الشارح رحمه الله: قوله: (وقد دخل أيضا فيما ذكرناه...إلخ)؛ تقدم الكلام على رؤية المؤمنين لربهم عز وجل في الجنة؛ كما دلت على ذلك الآيات، والأحاديث الصريحة، فلا حاجة بنا إلى إعادة الكلام فيها.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: (فَصْلٌ): [وَمِنْ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ: الْإِيمَانُ بِكُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِمَّا يَكُونُ بَعْدَ الْمَوْتِ، فَيُؤْمِنُونَ بِفِتْنَةِ الْقَبْرِ، وَبِعَذَابِ الْقَبْرِ وَبِنَعِيمِهِ، فَأَمَّا الْفِتْنَةُ: فَإِنَّ النَّاسَ يُفْتَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ، فَيُقَالُ لِلرَّجُلِ: {مَنْ رَبُّك، وَمَا دِينُك، وَمَنْ نَبِيُّك؟ فَيُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: اللَّهُ رَبِّي، وَالْإِسْلَامُ دِينِي، وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَبِيِّي، وَأَمَّا الْمُرْتَابُ فَيَقُولُ: هاه هاه لَا أَدْرِي، سَمِعْت النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْته، فَيُضْرَبُ بِمِرْزَبَةٍ مِنْ حَدِيدٍ، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا كُلُّ شَيْءٍ إلَّا الْإِنْسَانُ، وَلَوْ سَمِعَهَا الْإِنْسَانُ لَصَعِقَ} ثُمَّ بَعْدَ هَذِهِ الْفِتْنَةِ: إمَّا نَعِيمٌ وَإِمَّا عَذَابٌ، إلَى أَنْ تَقُومَ الْقِيَامَةُ الْكُبْرَى، فَتُعَادُ الْأَرْوَاحُ إلَى الْأَجْسَادِ].

يقول الشارح رحمه الله: قوله: (ومن الإيمان باليوم الآخر... إلخ) إذا كان الإيمان باليوم الآخر أحد الأركان الستة التي يقوم عليها الإيمان؛ فإن الإيمان به إيمانًا تامًا كاملًا لا يتحقق إلا إذا آمن العبد بكل ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم من أمور الغيب، التي تكون بعد الموت.

والضابط في ذلك: أنها أمور ممكنة، أخبر بها الصادق ﷺ، وكل ممكن أخبر به الصادق يجب الإيمان بوقوعه كما أخبر؛ فإن هذه الأمور لا تستفاد إلا من خبر الرسول، فأهل السنة والجماعة يؤمنون بذلك كله.

وأما أهل المروق والإلحاد من الفلاسفة والمعتزلة؛ فينكرون هذه الأمور؛ من سؤال القبر، ومن نعيم القبر، وعذابه، والصراط، والميزان، وغير ذلك؛ بدعوى أنها لم تثبت بالعقل، والعقل عندهم هو الحاكم الأول الذي لا يجوز الإيمان بشيء إلا عن طريقه، وهم يردون الأحاديث الواردة في هذه الأمور بدعوى أنها أحاديث آحاد، لا تُقبل في باب الاعتقاد، وأما الآيات فيؤولونها بما يصرفها عن معانيها، فانظر: كيف طعنوا في السنة بأنها آحاد، وطعنوا في القرآن بأن معانيه غير مرادة، فقاموا بتأويلها.

والإضافة في قوله: (بفتنة القبر) أي: بالفتنة التي تكون في القبر.

وأما عذاب القبر ونعيمه؛ فيدل عليه قوله تعالى في حق آل فرعون: {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا }[1]، وقوله سبحانه عن قوم نوح: {مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا }[2]، وقوله ﷺ: "القَبْرُ إِمَّا رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الجَنَّةِ، أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النَّارِ"[3].

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: [وَتَقُومُ الْقِيَامَةُ الَّتِي أَخْبَرَ اللَّهُ بِهَا فِي كِتَابِهِ وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ، وَأَجْمَعَ عَلَيْهَا الْمُسْلِمُونَ، فَيَقُومُ النَّاسُ مِنْ قُبُورِهِمْ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا، وَتَدْنُو مِنْهُمْ الشَّمْسُ، وَيُلْجِمُهُمْ الْعَرَقُ، وَتُنْصَبُ الْمَوَازِينُ، فَتُوزَنُ فِيهَا أَعْمَالُ الْعِبَادِ، {فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ}[4]، وَتُنْشَرُ الدَّوَاوِينُ – وَهِيَ صَحَائِفُ الْأَعْمَالِ –، فَآخِذٌ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ، وَآخِذٌ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ، أَوْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا}[5]].

يقول الشارح رحمه الله: قوله: (وتقوم القيامة...إلخ) يعني: القيامة الكبرى، وهذا الوصف للتخصيص، احترز به عن القيامة الصغرى التي تكون عند الموت؛ فمن مات فقد قامت قيامته، وذلك أن الله عز وجل إذا أذن بانقضاء هذه الدنيا؛ أمر إسرافيل عليه السلام أن ينفخ في الصور النفخة الأولى، فيُصعق كل من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله، وتصبح الأرض صعيدًا جرزًا، وتصير الجبال كثيبًا مهيلًا، ويحدث كل ما أخبر الله به في كتابه، ومن ذلك ما جاء في سورتي التكوير، والانفطار، وهذا هو آخر أيام الدنيا.

ثم يأمر الله السماء، فتمطر مطرًا كمَنِيّ الرجال، أربعين يومًا، فينبت منه الناس في قبورهم، من عجب أذنابهم، وكل ابن آدم يبلى إلا عَجْب الذنب.

---

[1] [غافر: ٤٦].

[2] [نوح: ٢٥].

[3] أخرجه الترمذي (٢٦٢٩)، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (٤٩٩٠).

[4] [المؤمنون: ١٠٢، ١٠٣].

[5] [الإسراء: ١٣، ١٤].

حتى إذا تم خلقهم وتركيبهم؛ أمر الله إسرافيل بأن ينفخ في الصور النفخة الثانية، فيقوم الناس من الأجداث أحياء، فيقول الكفار والمنافقون حينئذ: {يَاوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا}[1]، ويقول المؤمنون: {هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ}[2]، ثم تحشرهم الملائكة إلى الموقف حفاة غير منتعلين، عراة غير مكتسين، غرلًا غير مختتنين[3].

وأول من يكتسي يوم القيامة إبراهيم؛ كما في الحديث، وهناك في الموقف تدنو الشمس من رؤوس الخلائق، ويلجمهم العرق، فمنهم من يبلغ كعبيه، ومنهم من يبلغ ركبتيه، ومنهم من يبلغ ثدييه، ومنهم من يبلغ ترقوته؛ كل على قدر عمله، ويكون أناس في ظل الله عز وجل.

فإذا اشتد بهم الأمر، وعظم الكرب؛ استشفعوا إلى الله عز وجل بالرسل والأنبياء أن ينقذوهم مما هم فيه، وكل رسول يحيلهم على من بعده؛ حتى يأتوا نبينا ﷺ، فيقول: "أنا لها"[4] ، ويشفع فيهم، فينصرفون إلى فصل القضاء.

وهناك تنصب الموازين، فتوزن بها أعمال العباد، وهي موازين حقيقية، كل ميزان منها له لسان وكفتان، ويقلب الله أعمال العباد، – وهي أعراض – أجسامًا؛ لها ثقل، فتوضع الحسنات في كفة، والسيئات في كفة؛ كما قال تعالى: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ}[5]، ثم تنشر الدواوين، وهي صحائف الأعمال، {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَى سَعِيرًا}[6]، {فَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ}[7]، وقال تعالى: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا}[8].

وأما قوله تعالى: {وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ}[9]؛ فقد قال الراغب: أي: عمله الذي طار عنه من خير وشر، ولكن الظاهر أن المراد بالطائر هنا: نصيبه في هذه الدنيا، وما كتب له فيها من رزق وعمل؛ كما في قوله تعالى: {أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ}[10].

---

[1] [يس: ٥٢].

[2] [يس: ٥٢].

[3] جمع أغرل، وهو الأقلف، والغرلة: القلفة.

[4] أخرجه البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (٣٩٨).

[5] [الأنبياء: ٤٧].

[6] [الانشقاق: ٧ – ١٢].

[7] [الحاقة: ٢٥-٢٦].

[8] [الكهف: ٤٩].

[9] [الإسراء: ١٣].

[10] [الأعراف: ٣٧].

ثم يقول شيخ الإسلام رحمه الله: [وَيُحَاسِبُ اللَّهُ الْخَلَائِقَ، وَيَخْلُو بِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ، كَمَا وُصِفَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَأَمَّا الْكُفَّارُ: فَلَا يُحَاسَبُونَ مُحَاسَبَةَ مَنْ تُوزَنُ حَسَنَاتُهُ وَسَيِّئَاتُهُ؛ فَإِنَّهُ لَا حَسَنَاتِ لَهُمْ، وَلَكِنْ تُعَدُّ أَعْمَالُهُمْ وَتُحْصَى، فَيُوقَفُونَ عَلَيْهَا، وَيُقَرَّرُونَ بِهَا، وَيُجْزَوْنَ بِهَا].

ثم قال شيخ الإسلام رحمه الله: [وَفِي عَرْصَاتِ الْقِيَامَةِ: الْحَوْضُ الْمَوْرُودُ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنْ اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِنْ الْعَسَلِ، آنِيَتُهُ عَدَدَ نُجُومِ السَّمَاءِ، طُولُهُ شَهْرٌ، وَعَرْضُهُ شَهْرٌ، مَنْ يَشْرَبُ مِنْهُ شَرْبَةً لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهَا أَبَدًا، وَالصِّرَاطُ مَنْصُوبٌ عَلَى مَتْنِ جَهَنَّمَ – وَهُوَ الْجِسْرُ الَّذِي بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ –، يَمُرُّ النَّاسُ عَلَيْهِ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالْبَرْقِ الْخَاطِفِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالرِّيحِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالْفَرَسِ الْجَوَادِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَرُكَّابِ الْإِبِلِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْدُو عَدْوًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي مَشْيًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَزْحَفُ زَحْفًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يُخْطَفُ فَيُلْقَى فِي جَهَنَّمَ؛ فَإِنَّ الْجِسْرَ عَلَيْهِ كَلَالِيبُ تَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ، فَمَنْ مَرَّ عَلَى الصِّرَاطِ دَخَلَ الْجَنَّةَ، فَإِذَا عَبَرُوا عَلَيْهِ وَقَفُوا عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقْتَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ، فَإِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَسْتَفْتِحُ بَابَ الْجَنَّةِ: مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ الْأُمَمِ: أُمَّتُهُ.

وَلَهُ فِي الْقِيَامَةِ ثَلَاثُ شَفَاعَاتٍ:

أَمَّا الشَّفَاعَةُ الْأُولَى: فَيُشَفَّعُ فِي أَهْلِ الْمَوْقِفِ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَهُمْ بَعْدَ أَنْ تَتَرَاجَعَ الْأَنْبِيَاءُ؛ آدَمَ، وَنُوحٌ، وَإِبْرَاهِيمُ، وَمُوسَى، وَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، عَنْ الشَّفَاعَةِ، حَتَّى تَنْتَهِيَ إلَيْهِ.

وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ الثَّانِيَةُ: فَيُشَفَّعُ فِي أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ؛ وَهَاتَانِ الشَّفَاعَتَانِ خَاصَّتَانِ لَهُ. وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ الثَّالِثَةُ: فَيُشَفَّعُ فِيمَنْ اسْتَحَقَّ النَّارَ، وَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ لَهُ وَلِسَائِرِ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَغَيْرِهِمْ، فَيُشَفَّعُ فِيمَنْ اسْتَحَقَّ النَّارَ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا، وَيُشَفَّعَ فِيمَنْ دَخَلَهَا أَنْ يَخْرُجَ مِنْهَا، وَيُخْرِجُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ النَّارِ أَقْوَامًا بِغَيْرِ شَفَاعَةٍ، بَلْ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَيَبْقَى فِي الْجَنَّةِ فَضْلٌ عَمَّنْ دَخَلَهَا مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، فَيُنْشِئُ اللَّهُ لَهَا أَقْوَامًا، فَيُدْخِلُهُمْ الْجَنَّةَ، وَأَصْنَافُ مَا تَضَمَّنَتْهُ الدَّارُ الْآخِرَةُ مِنْ الْحِسَابِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَتَفَاصِيلُ ذَلِكَ مَذْكُورَةٌ فِي الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ مِنْ السَّمَاءِ، وَالْآثَارِ مِنْ الْعِلْمِ الْمَأْثُورَةِ عَنْ الْأَنْبِيَاءِ، وَفِي الْعِلْمِ الْمَوْرُوثِ عَنْ مُحَمَّدٍ مِنْ ذَلِكَ مَا يَشْفِي وَيَكْفِي، فَمَنْ ابْتَغَاهُ وَجَدَهُ].

ينبغي أن ننتبه إلى أن الشفاعة فيها حق، وفيها باطل؛ فالشفاعة فيها المنفي، كما قال تعالى: {مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ} [1] هذا نفي، {إِلَّا بِإِذْنِهِ} وهذا إثبات، {وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى} [2].

---

[1] [البقرة: ٢٥٥].

[2] [الأنبياء: ٢٨].

فالشفاعة عند الله تختلف عن شفاعة أهل الدنيا عند بعضهم، فقد يشفع بعضهم عند صاحب ملك أو منزلة، فيقبل شفاعته مكرهًا، فمثلًا: أنت ترى أن رجلًا من أهل السلطان لا يريد أن يعطي فلانًا، فيأتي رجل من أصحاب السطوة أو المنزلة عنده، فيشفع، فيغير قراره، ويبدل أمره، وأما عند رب العالمين فلا يملك أحد أن يشفع عنده إلا بإذنه سبحانه، ولنتأمل هذا المعنى في المواقف الآتية:

الموقف الأول: أن الله تعالى يبعث الخلائق يوم القيامة للحساب، ومع ذلك فإنه لا يأذن في الفصل في الحساب إلا بعد شفاعة النبي ﷺ، فرب العزة قرر ألا يحكم بين الخلائق، فجاء رسول الله فشفع فتغير القرار، فهل بدل ما أراده الله؟ لا، إنما أراد الله أن يُعلي منزلة نبيه ﷺ على رؤوس الخلائق، فقرر ألا يأذن في الفصل في القضاء إلا بشفاعته.

الموقف الثاني: أن الله تعالى خلق الجنة ليُنعَّم فيها المؤمنون، ومع ذلك فإنه لا يأذن بفتح الجنة إلا بشفاعة النبي ﷺ، وليس معنى هذا أنه قرر أن يغلق الجنة، فلما جاء الرسول عليه الصلاة والسلام يشفع غير قراره! لا، إنما خلق سبحانه الجنة لينعِّم فيها المؤمنين، ولكنه أراد ألا يدخل أحد الجنة إلا بعد أن يشفع مُحَمَّد ﷺ.

قد يسأل سائل: لماذا خص مُحَمَّد ﷺ بذلك؟ ولماذا لم يكن موسى، ولا عيسى، ولا نبي من الأنبياء؟

والجواب: أن رسول الله ﷺ دعا دعوة فتُحت لها قلوب خلائق فتحًا لم تفتحه لمن قبله، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما، قال: خرج علينا النبي ﷺ يومًا، فقال: "عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَجَعَلَ يَمُرُّ النَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلُ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، وَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الأُفُقَ، فَرَجَوْتُ أَنْ تَكُونَ أُمَّتِي، فَقِيلَ: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ، ثُمَّ قِيلَ لِي: انْظُرْ، فَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الأُفُقَ، فَقِيلَ لِي: انْظُرْ هَكَذَا وَهَكَذَا، فَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الأُفُقَ، فَقِيلَ: هَؤُلَاءِ أُمَّتُكَ،...الحديث"[1].

فرسول الله ﷺ خاتم الأنبياء، جمع الله له أجور جميع هؤلاء، فهو أوفى الخلق ميزانًا وقد أراد الله تعالى أن يثيبه في الآخرة؛ لأنه لم ينل في الدنيا على ذلك جزاء؛ فقد عاش في الدنيا لم يأكل سميطًا قط، ولم يشبع من خبز الشعير يومين متتاليين، وعاش مجاهدًا، وكان يربط الحجر والحجرين على بطنه، فيبعثه رب العزة يوم القيامة المقام المحمود، والمقام المحمود: هو المقام الذي يقومه ﷺ عندما تلجأ إليه كل الأمم، يقولون: اشفع لنا عند ربك، فيقول: أنا لها، أنا لها، فيشفع، فيأذن رب العزة في فصل القضاء، لينصرف الناس من الموقف، ثم يشفع فيستفتح باب الجنة، فأهل كل باب من أبواب الجنة واقفون على بابهم، حتى يأتي الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الباب الذي يدخل منه، ويستفتح فيقال من؟ فيقول: مُحَمَّد، فيقال: بك أُمرنا أن نفتح.

فالمسألة ليست مسألة عصبية لأمة ننتمي إليها، ولا نبي بعثه الله عز وجل إلينا، إنما هي قواعد العدل التي أوجدها رب العزة سبحانه في سائر الأمم، فلا بد أن يكون هناك مَن هو أوفى الخلق ميزانًا، وهو نبينا ﷺ، الذي جعله رب العزة سبحانه يوم القيامة شفيعًا للخلائق.

---

[1] أخرجه البخاري (٥٧٥٢).

وينبغي أن ننتبه: إلى أن الشفاعة لا تكون إلا بإذن الله تعالى، ورضاه عن الشافع، فالرسول ﷺ يقول: " فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي، فَيُؤْذَنُ لِي، وَيُلْهِمُنِي مَحَامِدَ أَحْمَدُهُ بِهَا لاَ تَحْضُرُنِي الآنَ، فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ المَحَامِدِ، وَأَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ..."[1].

فيشفع رب العالمين في الإذن في فصل القضاء بين الخلائق، فتتطاير الصحف، وتنصب الموازين، ويحكم الله عز وجل بين الخلائق، ثم ينصب الصراط على ظهر جهنم ويعبر الناس، ثم يشفع عند رب العزة كما في الحديث: "فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، أَدْخِلْ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَبْوَابِ".

وبعد أن يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، يشفع ﷺ، فيأتي يسجد عند العرش فيقول: "وَيُلْهِمُنِي مَحَامِدَ أَحْمَدُهُ بِهَا لَا تَحْضُرُنِي الآنَ، فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ المَحَامِدِ، وَأَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَعُودُ، فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ المَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ – أَوْ خَرْدَلَةٍ – مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ، فَأَنْطَلِقُ، فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَعُودُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ المَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالِ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ، ....الحديث"[2].

والمسألة هنا تقتضي أن نعلم أن الله عز وجل يصيب المؤمن في الدنيا بمصائب تحط عنه من خطاياه، فمن أقبل إلى الله عند موته وليست له من خطيئة، بسبب المصائب التي أصابته، دخل الجنة، ففُرش قبره من الجنة، ونُعِّم في قبره، فلم يعذب فيه، ومن بقيت عليه من أهل الإيمان ذنوب فدخلوا إلى قبورهم، عُذبوا في قبورهم حتى يتطهروا، فمن جاء يوم القيامة وقد تطهر من الذنوب، بُعث يوم القيامة فدخل الجنة بغير حساب، ولا سابقة عذاب، ومن بقيت عليه ذنوب يوم القيامة، حَطَّت عنه من خطاياه بقدر النصب والتعب الذي يلقاه يوم القيامة، فيدخل الجنة بغير حساب، ولا سابقة عذاب؛ ثم يحاسب الله الخلائق، ثم يساق من ثقلت موازينهم إلى الجنة، ويساق من خفت موازينهم إلى النار، فمنهم من تدركه – وهو يساق إلى النار – شفاعة النبي ﷺ، فيؤخذ به من النار إلى الجنة بعد أن سيق إليها خائفًا وجِلًا، فيتجاوز الله عز وجل عن أخطائه، ويُدخله الجنة بغير سابقة دخول إلى النار، ثم يَرد النارَ الناسُ، فتدركهم الشفاعة بحسب أعمالهم من الإيمان، وبقدر أخطائهم التي فعلوها، فيخرج أصحاب الدينار ونصفه، والدرهم تباعًا، ثم يخرج أصحاب البرة، والشعيرة، والخردلة، حتى يبقى في النار أقوام لم يفعلوا حسنة قط، وإن كانوا قد دخلوا في أصل الإيمان.

---

[1] أخرجه البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (٣٢٧).

[2] أخرجه البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (٣٢٧).

ومن الأنبياء والرسل من تُرد شفاعتهم، كما قال النبي ﷺ: "يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَعَلَى وَجْهِ آزَرَ قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ، فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لاَ تَعْصِنِي، فَيَقُولُ أَبُوهُ: فَاليَوْمَ لاَ أَعْصِيكَ، فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: يَا رَبِّ إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لاَ تُخْزِيَنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الأَبْعَدِ؟ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: "إِنِّي حَرَّمْتُ الجَنَّةَ عَلَى الكَافِرِينَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا إِبْرَاهِيمُ، مَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ؟ فَيَنْظُرُ، فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُلْتَطِخٍ، فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ"[1]، فهذا إبراهيم عليه السلام يشفع لأبيه؛ فلا يُشفَّع.

وأبلغ من ذلك أن النبي ﷺ لا تقبل شفاعته في بعض المواقف، كما قال في حديث الشفاعة حيث قال ﷺ: "فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ لِي: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، ائْذَنْ لِي فِيمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلّا اللهُ، قَالَ: لَيْسَ ذَاكَ لَكَ -أَوْ قَالَ: لَيْسَ ذَاكَ إِلَيْكَ"[2].

فلم يقبل الله عز وجل شفاعته ﷺ، لا لأنه لم يحب الشافع، ولكنه لم يأذن في المشفوع فيهم، ثم يقول أهل النار لهؤلاء الذين شهدوا أن لا إله إلا الله، وبقوا في النار، ماذا تميزتم عنا؟ استوينا نحن وأنتم في النار، فيقول الله تعالى: "وَعِزَّتِي وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي وَجِبْرِيَائِي، لَأُخْرِجَنَّ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلّا اللهُ"[3]، فهؤلاء سيخرجهم الله تعالى من النار، فبعد أن يشفع الأنبياء، وتشفع الملائكة، ويشفع الصالحون، ويشفع الشهداء، يقول الله تعالى: بقيت شفاعتي، فيقبض قبضة من أهل النار فيدخلهم الجنة، لم يفعلوا حسنة قط.

ومن أنواع الشفاعة: شفاعة رجال قضى رب العزة لهم بدرجات في الجنة، فهذه الشفاعة تبلغهم منازل لم يبلغوها بالعمل.

وقد ذكر شيخ الإسلام هنا ثلاث أنواع من الشفاعات – وإن كان هناك أنواع منها ذكرها ضمنًا –، يعني: كما ذكر أن أقوامًا يساق بهم إلى النار، فيؤخذ بهم إلى الجنة بشفاعة النبي ﷺ.

الشفاعة الأولى: شفاعة الإذن في الفصل في القضاء، وهي التي يدخل فيها الكافرون، وهي لمحمد ﷺ وحده دون سائر الأنبياء.

الشفاعة الثانية: شفاعته ﷺ في استفتاح الجنة، وهذه ينالها كل مؤمن، سواء آمن بالنبي مُحَمَّد ﷺ، أو تبع نبيًا قبله من الأنبياء.

الشفاعة الثالثة: شفاعته ﷺ في أقوام استوت حسناتهم وسيئاتهم، فيؤخذ بهم إلى الجنة.

الشفاعة الرابعة: شفاعته ﷺ في أقوام أُخذ بهم إلى النار، فتقبل شفاعته فيهم، فيعفو الله عز وجل عنهم، فيدخلون الجنة بغير سابقة عذاب.

---

[1] أخرجه البخاري (٣٣٥٠).

[2] أخرجه البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (٣٢٧).

[3] أخرجه البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (٣٢٧).

الشفاعة الخامسة: الشفاعة لأقوام من أهل الجنة ترفع درجاتهم في منزلة عالية، لم يكونوا لينالوها بالأعمال، يعني: لهم درجات قدرها الله عز وجل لهم، ثم قدر لهم بشفاعة النبي ﷺ درجات تعلوها.

القسم السادس: الشفاعة لأهل النار الذين يخلدون فيها، كما يشفع النبي ﷺ لأبي طالب، كما قال النبي ﷺ لما قال له العباس: يا رسول الله، إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك فهل نفعه ذلك؟ قال: "نعم، وجدته في غمرات من النار، فأخرجته إلى ضحضاح"[1].

فكل هذه الشفاعات قد تكون مسلَّمة؛ لكن الشفاعة التي ناقش فيها الكثير من فرق الضلال، هي الشفاعة لمن دخلوا النار، كيف يخرجون منها فيدخلون الجنة؟!.

فهذه الشفاعة هي التي ينكرها الخوارج، والمعتزلة، وفرق الضلال، لكن هذه الشفاعة لا نستطيع أن نؤمن بقوله تعالى: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}[2]، إلا إذا آمنا بهذه، يعني: رجل له حسنات وسيئات، فالسيئات دخل بها النار، والحسنات لم يرها، إلا أن يكون قد تطهر في النار من سيئاته، ثم أُخرج فأدخل الجنة.

الناس في الدنيا عندهم الطالب في الامتحان إما ناجح أو راسب، فيقيسون أمر الآخرة على أمر الدنيا، وهذا خطأ، فرب العزة حسابه الأخروي مبني على الاستيفاء، {لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ}[3]، فلا يستوي أصحاب الجنة، فهم في منازل الجنة، ولا يستوي أصحاب النار فهم في دركات في النار، لا يستوي أهل الإيمان مع أهل الكفر، ولا يستوي أهل الطاعات مع أهل المعاصي، فلكل درجة.

ثم يقول شيخ الإسلام رحمه الله: [وَتُؤْمِنُ الْفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ – أَهْلُ السُّنَّة وَالْجَمَاعَةِ – بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، وَالْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ عَلَى دَرَجَتَيْنِ؛ كُلُّ دَرَجَةٍ تَتَضَمَّنُ شَيْئَيْنِ:

فَالدَّرَجَةُ الْأُولَى: الْإِيمَانُ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَلِمَ مَا الْخَلْقُ عَامِلُونَ، بِعِلْمِهِ الْقَدِيمِ الَّذِي هُوَ مَوْصُوفٌ بِهِ أَزَلًا، وَعَلِمَ جَمِيعَ أَحْوَالِهِمْ مِنْ الطَّاعَاتِ وَالْمَعَاصِي وَالْأَرْزَاقِ وَالْآجَالِ، ثُمَّ كَتَبَ اللَّهُ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مَقَادِيرَ الْخَلْقِ، { فَأَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، قَالَ لَهُ: اُكْتُبْ. قَالَ: مَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اُكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَمَا أَصَابَ الْإِنْسَانَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ، جَفَّتْ الْأَقْلَامُ، وَطُوِيَتْ الصُّحُفُ}، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}[4]، وَقَالَ: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}[5]، وَهَذَا التَّقْدِيرُ التَّابِعُ لِعِلْمِهِ سُبْحَانَهُ يَكُونُ فِي مَوَاضِعَ جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا، فَقَدْ كَتَبَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مَا شَاءَ، وَإِذَا خَلَقَ جَسَدَ الْجَنِينِ قَبْلَ نَفْخِ

---

[1] أخرجه مسلم (٢٠٩).

[2] [الزلزلة: ٧-٨].

[3] [الحشر: ٢٠].

[4] [الحج: ٧٠].

[5] [الحديد: ٢٢].

الرُّوحِ فِيهِ بَعَثَ إِلَيْهِ مَلَكًا؛ فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، فَيُقَالُ لَهُ: أُكْتُبْ رِزْقَهُ وَأَجَلَهُ وَعَمَلَهُ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ؛ وَنَحْوُ ذَلِكَ، فَهَذَا الْقَدَرُ قَدْ كَانَ يُنْكِرُهُ غُلَاةُ الْقَدَرِيَّةِ قَدِيمًا، وَمُنْكِرُهُ الْيَوْمَ قَلِيلٌ.

وَأَمَّا الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: فَهُوَ مَشِيئَةُ اللَّهِ النَّافِذَةُ، وَقُدْرَتُهُ الشَّامِلَةُ، وَهُوَ الْإِيمَانُ بِأَنَّ مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَأَنَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْ حَرَكَةٍ وَلَا سُكُونٍ إِلَّا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، لَا يَكُونُ فِي مُلْكِهِ إِلَّا مَا يُرِيدُ، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ مِنْ الْمَوْجُودَاتِ وَالْمَعْدُومَاتِ، فَمَا مِنْ مَخْلُوقٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ إِلَّا اللَّهُ خَالِقُهُ سُبْحَانَهُ، لَا خَالِقَ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ أَمَرَ الْعِبَادَ بِطَاعَتِهِ، وَطَاعَةِ رُسُلِهِ، وَنَهَاهُمْ عَنْ مَعْصِيَتِهِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ، وَالْمُحْسِنِينَ، وَالْمُقْسِطِينَ، وَيَرْضَى عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وَلَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ، وَلَا يَرْضَى عَنْ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ، وَلَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ، وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ، وَلَا يُحِبُّ الْفَسَادَ].

فقد بين رحمه الله: أن القدر على درجتين، كل درجة تتضمن شيئين، **فهذه أربع مراتب:**

المرتبة الأولى: مرتبة العلم.

المرتبة الثانية: مرتبة الكتابة.

المرتبة الثالثة: مرتبة المشيئة.

المرتبة الرابعة: مرتبة الخلق.

فالثلاث مراتب الأولى نسميها القضاء، والمراتب الأربعة مع بعضها نسميها القدر.

والقضاء يمكن أن نسميه القضاء المعلق، يعني: أن الله تعالى بعلمه السابق علم كل شيء، ثم أمر القلم فكتب، وهذه الكتابة التي كتبها في اللوح، ما أطلع عليها من الخلق أحدًا، ثم إذا شاء الله عز وجل نَزَل، فإذا خلَقَه كان، وهذا يفهم منه حديث النبي ﷺ: "إن البلاء والقضاء يتعالجان"[1].

إذًا قضاء نازل؛ ودعاء صاعد، فهما يتعالجان، فإن كان الدعاء أقوى دفعه، وإن كانا متساويين بقيا يتعالجان، وإن كان البلاء أقوى نزل؛ لكن الدعاء الذي صعد يخفف منه بحسبه.

ففي قصة الخضر مع موسى عليه السلام، قتل الغلام وقال: {فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا}[2]، فينبغي أن نفهم قضية القضاء المعلق، والقضاء النافذ، فالله قضى قضاء وعلقه، ثم قضي قضاء وأوقعه، قضى قضاء وعلقه: هو أن يعيش الغلام فيضل والديه، وقضى قضاء فأوقعه: هو أن يُقتل الغلام صغيرًا، فمثل هذا يجعل العبد يجتهد في الدعاء؛ لأن الله عز وجل يرفع به بلاء فلا يقع، ويخفف به من بلاء وقع، يعني: لو قلنا فلان مرض، إذًا نقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، اللهم اشفه، يعني: يا ربي هذا القضاء الذي قضيت وقوعه، خفف في وقوعه، خفف عنه أجل ذلك المرض، اجعله ساعة، إذًا يخفف من البلاء النازل.

---

[1] أخرجه البزار (٨١٤٩)، وضعفه جدًّا الألباني في السلسة الضعيفة (٦٧٦٤).

[2] [الكهف: ٨٠].

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: [وَالْعِبَادُ فَاعِلُونَ حَقِيقَةً، وَاَللَّهُ خَالِقُ أَفْعَالِهِمْ؛ وَالْعَبْدُ هُوَ الْمُؤْمِنُ، وَالْكَافِرُ، وَالْبَرُّ، وَالْفَاجِرُ، وَالْمُصَلِّي، وَالصَّائِمُ؛ وَلِلْعِبَادِ قُدْرَةٌ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، وَلَهُمْ إرَادَةٌ؛ وَاَللَّهُ خَالِقُهُمْ وَخَالِقُ قُدْرَتِهِمْ وَإِرَادَتِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: { لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}[1]].

فرب العزة سبحانه وتعالى له مشيئته، وقد جعل للعباد مشيئة، ومشيئة الله عز وجل هي النافذة.

ولذلك قال الشارح رحمه الله: وخلاصة مذهب أهل السنة والجماعة في القدر وأفعال العباد: ما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة؛ من أن الله سبحانه هو الخالق لكل شيء من الأعيان والأوصاف والأفعال وغيرها، وأن مشيئته تعالى عامة شاملة لجميع الكائنات، فلا يقع منها شيء إلا بتلك المشيئة، وأن خلقه سبحانه الأشياء بمشيئته إنما يكون وفقًا لما علمه منها بعلمه القديم، ولما كتبه وقدره في اللوح المحفوظ، وأن للعباد قدرة وإرادة تقع بها أفعالهم، وأنهم الفاعلون حقيقة لهذه الأفعال بمحض اختيارهم، وأنهم لهذا يستحقون عليها الجزاء: إما بالمدح والمثوبة، وإما بالذم والعقوبة، وأن نسبة هذه الأفعال إلى العباد فعلًا لا ينافي نسبتها إلى الله إيجادًا وخلقًا؛ لأنه هو الخالق لجميع الأسباب التي وقعت بها.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: [وَهَذِهِ الدَّرَجَةُ مِنْ الْقَدَرِ– وهي المشيئة –: يُكَذِّبُ بِهَا عَامَّةُ الْقَدَرِيَّةِ، الَّذِينَ سَمَّاهُمْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَجُوسَ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَيَغْلُو فِيهَا قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْإِثْبَاتِ، حَتَّى سَلَبُوا الْعَبْدَ قُدْرَتَهُ وَاخْتِيَارَهُ، وَيَخْرُجُونَ عَنْ أَفْعَالِ اللَّهِ وَأَحْكَامِهِ حِكَمَهَا وَمَصَالِحَهَا].

كأن شيخ الإسلام يتكلم هنا عن المرتبة الثانية من مراتب القدر، على أساس أنه قسمها إلى درجتين، الدرجة الثانية هي المشيئة، والخلق، ويقول أن القدرية يكذبون بها، ومنهم – من القدرية – من يُغلون فيثبتونها لله عز وجل، حتى يسلبوا عن العبد كافة إرادته، يعني يقولون: إن حركة المرتعش كحركة المصلي الصائم الذي يرتعش، هكذا حتف أنفه، كالمصلي المكبر الصائم الراكع الساجد، يعني تكون هذه الحركات وهذه الحركات متساوية.

فنفاة القدر ضلوا بذلك، والقدرية طائفتان:

الطائفة الأولى: نفاة القدر، الذين هم مجوس هذه الأمة، كما ورد في بعض الاحاديث مرفوعًا وموقوفًا، وهؤلاء ضلوا بالتفريط وإنكار القدر، وزعموا أنه لا يمكن الجمع بين ما هو ثابت بالضرورة من اختيار العبد في فعله ومسؤوليته عنه، وبين ما دلت عليه النصوص من عموم خلقه تعالى ومشيئته؛ لأن ذلك العموم في زعمهم إبطال لمسؤولية العبد عن فعله، وهدم للتكاليف، فرجحوا جانب الأمر والنهي، وخصصوا النصوص الدالة على عموم الخلق والمشيئة، بما عدا أفعال العباد، وأثبتوا أن العبد خالق لفعله بقدرته وإرادته، فأثبتوا خالقين غير الله، ولهذا سموا مجوس هذه الأمة؛ لأن المجوس يزعمون أن الشيطان يخلق الشر والأشياء المؤذية، فجعلوه خالقًا مع الله، فكذلك هؤلاء جعلوا العباد خالقين مع الله، يعني جعلوا خلقَ العباد خلق أنفسهم، ولذلك قال بعضهم: القدرية شرٌ من المجوس؛ لأن المجوس يثبتون خالقًا واحدًا مع الله، لكن القدرية يقولون: كل إنسان يخلق أفعاله.

---

[1] [التكوير: ٢٨-٢٩].

والطائفة الثانية: يقال لها: الجبرية، وهؤلاء غلوا في إثبات القدر، حتى أنكروا أن يكون للعبد فعل حقيقة، بل هو في زعمهم لا حرية له، ولا اختيار، ولا فعل؛ كالريشة في مهب الرياح، وإنما تسند الأفعال إليه مجازًا، فيقال: صلى، وصام، وقتل، وسرق؛ كما يقال: طلعت الشمس، وجرت الريح، ونزل المطر، فاتهموا ربهم بالظلم، وتكليف العباد بما لا قدرة لهم عليه، ومجازاتهم على ما ليس من فعلهم، واتهموه بالعبث في تكليف العباد، وأبطلوا الحكمة من الأمر والنهي، ألا ساء ما يحكمون.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: (فَصْلٌ): [وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ: أَنَّ الدِّينَ وَالْإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ: قَوْلُ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ، وَعَمَلُ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْجَوَارِحِ].

فقول القلب: تصديقه ويقينه، وقول اللسان: النطق بالشهادتين، وعمل القلب: النية والإخلاص والمحبة والانقياد، وعمل اللسان: ما يؤديه من أعمال؛ كتلاوة القرآن، وسائر الأذكار، وعمل الجوارح: ما لا يؤدى إلا بها، مثل: القيام والركوع والسجود وغير ذلك، فهذا تفسير ما ذكره شيخ الإسلام، من أن أهل السنة والجماعة يؤمنون بأن الإيمان قول وعمل، قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح.

ثم قال رحمه الله: [وَأَنَّ الْإِيمَانَ يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ وَيَنْقُصُ بِالْمَعْصِيَةِ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لَا يُكَفِّرُونَ أَهْلَ الْقِبْلَةِ بِمُطْلَقِ الْمَعَاصِي وَالْكَبَائِرِ، كَمَا يَفْعَلُهُ الْخَوَارِجُ؛ بَلْ الْأُخُوَّةُ الْإِيمَانِيَّةُ ثَابِتَةٌ مَعَ الْمَعَاصِي، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي آيَةِ الْقِصَاصِ: {فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ}[1]].

فالمقصود بقوله: {مِنْ أَخِيهِ}، الذي قتل وليه، والأخوة هنا أخوة الإيمان.

ثم قال: وَقَالَ: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}[2].

فالمراد بالمؤمنين هنا: المتقاتلون، أو البغاة الذين أمرتم أن تقاتلوهم، فأهل السنة لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر، كما يفعل الخوارج، ولكنهم يؤمنون أنها أخوة الإيمان.

يقول الشارح رحمه الله: ومع أن الإيمان المطلق مركب من الأقوال والأعمال والاعتقادات؛ فهي ليست كلها بدرجة واحدة؛ بل العقائد أصل في الإيمان، فمن أنكر شيئًا مما يجب اعتقاده في الله أو في ملائكته، أو كتبه، أو رسله، أو اليوم الآخر، أو مما هو معلوم من الدين بالضرورة؛ كوجوب الصلاة، والزكاة، وحرمة الزنا والقتل؛ فهو كافر، قد خرج من الإيمان بهذا الإنكار، لكن هذا غير المعاصي.

---

[1] [البقرة: ١٧٨].

[2] [الحجرات: ٩، ١٠].

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: [وَلَا يَسْلُبُونَ الْفَاسِقَ الملي اسْمَ الْإِيمَانِ بِالْكُلِّيَّةِ، وَلَا يُخَلِّدُونَهُ فِي النَّارِ كَمَا تَقُولُهُ الْمُعْتَزِلَةُ، بَلْ الْفَاسِقُ يَدْخُلُ فِي اسْمِ الْإِيمَانِ فِي مِثْلِ قَوْله تَعَالَى: {فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ}[1]، وَقَدْ لَا يَدْخُلُ فِي اسْمِ الْإِيمَانِ الْمُطْلَقِ، كَمَا فِي قَوْله تَعَالَى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا}[2]، وَقَوْله: "لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً ذَاتَ شَرَفٍ يَرْفَعُ النَّاسُ إلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ" [3]، وَيَقُولُونَ: هُوَ مُؤْمِنٌ نَاقِصُ الْإِيمَانِ، أَوْ مُؤْمِنٌ بِإِيمَانِهِ فَاسِقٌ بِكَبِيرَتِهِ؛ فَلَا يُعْطَى الِاسْمَ الْمُطْلَقَ، وَلَا يُسْلَبُ مُطْلَقَ الِاسْمِ].

فقوله رحمه الله: (ولا يسلبون الفاسق المِلّي) أي: الذي على ملة الإسلام، لا يسلبونه الإسلام بالكلية، ولا يخلدونه في النار؛ كما تقول المعتزلة، والذين يسلبونه الإسلام بالكلية هم الخوارج؛ لأن المعتزلة لا يقولوا عنه كافر، ولكن يقولوا هو في منزلة بين المنزلتين، ثم يخلدونه في النار، بل الفاسق يدخل في اسم الإيمان، كما في قوله: {فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ} [4].

وقد لا يدخل في اسم الإيمان المطلق؛ كما في قوله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا}[5]، يعني: الإيمان المطلق هو الإيمان الكامل، وهو صفة المؤمنين؛ الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، لكن ليس كل من لم يوجل قلبه يكون قد نزع أصل الإيمان، وإنما يوصف بأنه ليس عنده كمال الإيمان.

يقول الشارح رحمه الله: وأما الفاسق الملي الذي يرتكب بعض الكبائر مع اعتقاده حرمتها؛ فأهل السنة والجماعة لا يسلبون عنه اسم الإيمان بالكلية، ولا يخلدونه في النار؛ كما تقول المعتزلة والخوارج، بل هو عندهم مؤمن ناقص الإيمان، قد نقص من إيمانه بقدر معصيته، أو هو مؤمن فاسق، لا يعطونه اسم الإيمان المطلق، ولا يسلبونه مطلق الإيمان.

وأدلة الكتاب والسنة دالة على ما ذكره المؤلف رحمه الله، في ثبوت مطلق الإيمان مع المعصية، كما قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ}[6]، فناداهم باسم الإيمان مع وجود المعصية؛ وهي موالاة الكفار.

فائدة: الإيمان والإسلام الشرعيان متلازمان في الوجود، فلا يوجد أحدهما بدون الآخر، بل كلما وجد إيمان صحيح معتد به، وجد معه إسلام، وكذلك العكس.

ولهذا قد يستغنى بذكر أحدهما عن الآخر؛ لأن أحدهما إذا أفرد بالذكر؛ دخل فيه الآخر، وأما إذا ذكرا معًا مقترنين؛ أريد بالإيمان: التصديق والاعتقاد، وأريد بالإسلام: الانقياد الظاهري، وهو الإقرار باللسان، وعمل الجوارح.

---

[1] [النساء: ٩٢].
[2] [الأنفال: ٢].
[3] أخرجه البخاري (٢٤٧٥)، ومسلم (١٠٠).
[4] [النساء: ٩٢].
[5] [الأنفال: ٢].
[6] [الممتحنة: ١].

ولكن هذا بالنسبة إلى مطلق الإيمان، أما الإيمان المطلق؛ فهو أخص مطلقًا من الإسلام، وقد يوجد الإسلام بدونه؛ كما في قوله تعالى: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا}[1].

فنفى عنهم الإيمان المطلق، ولم ينف عنهم مطلق الإيمان، فأخبر بإسلامهم مع نفي الإيمان عنهم، وفي حديث جبريل ذكر المراتب الثلاث: الإسلام، والإيمان، والإحسان، فدل على أن كلًا منها أخص مما قبله.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: (فَصْلٌ): [وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ: سَلَامَةُ قُلُوبِهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ لِأَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، كَمَا وَصَفَهُمْ اللَّهُ بِهِ فِي قَوْله تَعَالَى: {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ}[2]].

وهذه المسألة من المسائل الهامة جدًا في أمور الإسلام، خاصة أن الخوارج يكفرون الصحابة الذين وقعوا في الاقتتال، والروافض يكفرون الصحابة إلا نفرًا معدودين على أصابع اليد الواحدة، والمعتزلة يكفرون طائفة لا يدرون أيَّ الطائفتين.

ثم قال: [وَطَاعَةُ النَّبِيِّ فِي قَوْلِهِ: "لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ}[3].

وَيَقْبَلُونَ مَا جَاءَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَالْإِجْمَاعُ مِنْ فَضَائِلِهِمْ وَمَرَاتِبِهِمْ، فَيُفَضِّلُونَ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ – وَهُوَ صُلْحُ الْحُدَيْبِيَةِ – وَقَاتَلَ، عَلَى مَنْ أَنْفَقَ مِنْ بَعْدِهِ وَقَاتَلَ، وَيُقَدِّمُونَ الْمُهَاجِرِينَ عَلَى الْأَنْصَارِ، وَيُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللَّهَ قَالَ لِأَهْلِ بَدْرٍ – وَكَانُوا ثَلَاثَمِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ –:" اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْت لَكُمْ"[4]، وَبِأَنَّهُ لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، كَمَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَلْ قَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ، وَكَانُوا أَكْثَرَ مِنْ أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ.

وَيَشْهَدُونَ بِالْجَنَّةِ لِمَنْ شَهِدَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْجَنَّةِ، كَالْعَشَرَةِ، وَكَثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ، وَغَيْرِهِمْ مِنْ الصَّحَابَةِ.

وَيُقِرُّونَ بِمَا تَوَاتَرَ بِهِ النَّقْلُ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَعَنْ غَيْرِهِ، مِنْ أَنَّ خَيْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، وَيُثَلِّثُونَ بِعُثْمَانَ، وَيُرَبِّعُونَ بِعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْآثَارُ، وَكَمَا أَجْمَعَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَلَى تَقْدِيمِ عُثْمَانَ فِي الْبَيْعَةِ، مَعَ أَنَّ بَعْضَ أَهْلِ السُّنَّةِ كَانُوا قَدْ اخْتَلَفُوا فِي عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، – بَعْدَ اتِّفَاقِهِمْ عَلَى تَقْدِيمِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ – أَيُّهُمَا أَفْضَلُ؟ فَقَدَّمَ قَوْمٌ عُثْمَانَ وَسَكَتُوا، أَوْ رَبَّعُوا بِعَلِيٍّ، وَقَدَّمَ قَوْمٌ عَلِيًّا، وَقَوْمٌ تَوَقَّفُوا؛ لَكِنْ اسْتَقَرَّ أَمْرُ أَهْلِ السُّنَّةِ عَلَى تَقْدِيمِ عُثْمَانَ، وَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ

---

[1] [الحجرات: ١٤].

[2] [الحشر: ١٠].

[3] أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٢١)

[4] أخرجه البخاري (٣٣٢)، ومسلم (١٦١).

– مَسْأَلَةُ عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ – لَيْسَتْ مِنْ الْأُصُولِ الَّتِي يُضَلَّلُ الْمُخَالِفُ فِيهَا عِنْدَ جُمْهُورِ أَهْلِ السُّنَّة، لَكِنَّ الْمَسْأَلَةَ الَّتِي يُضَلَّلُ الْمُخَالِفُ فِيهَا هِيَ مَسْأَلَةُ الْخِلَافَةِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ الْخَلِيفَةَ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ثُمَّ عُثْمَانُ، ثُمَّ عَلِيٌّ، وَمَنْ طَعَنَ فِي خِلَافَةِ أَحَدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَئِمَّةِ فَهُوَ أَضَلُّ مِنْ حِمَارِ أَهْلِهِ].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: "وَيُحِبُّونَ أَهْلَ بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَيَتَوَلَّوْنَهُمْ، وَيَحْفَظُونَ فِيهِمْ وَصِيَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ حَيْثُ قَالَ يَوْمَ غَدِيرِ خُمٍّ: "أُذَكِّرُكُمُ اللَّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللَّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي(١).

وَقَالَ أَيْضًا لِلْعَبَّاسِ عَمِّهِ؛ وَقَدْ شَكَا إِلَيْهِ أَنَّ بَعْضَ قُرَيْشٍ يَجْفُو بَنِي هَاشِمٍ؛ فَقَالَ: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحِبُّوكُمْ لِلَّهِ وَلِقَرَابَتِي"(٢).

وَقَالَ: "إِنَّ اللهَ اصْطَفَى بَنِي إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ كِنَانَةَ قُرَيْشًا، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ"(٣).

قال الشارح رحمه الله: أهل بيته ﷺ هم من تحرم عليهم الصدقة، وهم: آل علي، وآل جعفر، وآل عُقَيل، وآل العباس، وكلهم من بني هاشم، ويلحق بهم بنو المطلب؛ لقوله عليه السلام: "إنهم لم يفارقونا جاهلية ولا إسلامًا"، فأهل السنة والجماعة يرعون لهم حرمتهم وقرابتهم من رسول الله ﷺ؛ كما يحبونهم لإسلامهم، وسبقهم، وحسن بلائهم في نصرة دين الله عز وجل.

(وغَدير خم) بضم الخاء، قيل: اسم رجل صباغ أضيف إليه الغدير الذي بين مكة والمدينة بالجحفة. وقيل: خم اسم غيضة هناك نسب إليها الغدير، والغيضة: الشجر الملتف.

وأما قوله عليه السلام لعمه: (والله، لا يدخل قلب رجل الإيمان حتى يحبهم لله ولقرابتهم مني)؛ فمعناه: لا يتم إيمان أحد حتى يحب أهل بيت رسول الله ﷺ لله. أولًا: لأنهم من أوليائه وأهل طاعته الذين تجب محبتهم وموالاتهم فيه. وثانيًا: لمكانتهم من رسول الله، واتصال نسبهم به.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: "وَيَتَوَلَّوْنَ أَزْوَاجَ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَيُؤْمِنُونَ بِأَنَّهُنَّ أَزْوَاجُهُ فِي الآخِرَةِ:

خُصُوصًا خَدِيجَةَ ﵂ أُمَّ أَكْثَرِ أَوْلاَدِهِ، وَأَوَّلَ مَنْ آمَنَ بِهِ وَعَاضَدَهُ عَلَى أَمْرِه، وَكَانَ لَهَا مِنْهُ الْمَنْزِلَةُ الْعَالِيَةُ.

وَالصِّدِّيقَةَ بِنْتَ الصِّدِّيقِ ﵄، الَّتِي قَالَ فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ: "فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ"(٤).

---

(١) أخرجه مسلم (٦٣٠٤) من حديث زيد بن أرقم.

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٤٠) من حديث العباس، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (٤٤٣٠).

(٣) أخرجه مسلم (٦٠٠٢) من حديث واثلة بن الأسقع.

(٤) أخرجه البخاري (٣٧٧٠)، ومسلم (٨٩).

قال الشارح رحمه الله: أزواجه ﷺ هن من تزوجهن بنكاح، فأولهن خديجة بنت خويلد ﵂ تزوجها بمكة قبل البعثة، وكانت سنه خمسًا وعشرين، وكانت تكبره بخمسة عشر عامًا، ولم يتزوج عليها حتى توفيت، وقد رزق منها أولاده كلها إلا إبراهيم، وهي أول من آمن به، وقواه على احتمال أعباء الرسالة.

ماتت قبل الهجرة بثلاث سنين عن خمس وستين سنة، فتزوج بعدها سودة بنت زمعة ﵂، وعقد على عائشة ﵂، وكانت بنت ست سنين، حتى إذا هاجر إلى المدينة بنى بها وهي بنت تسع سنين.

ومن زوجاته أيضًا: أم سلمة ﵂، تزوجها بعد زوجها أبي سلمة.

وزينب بنت جحش تزوجها بعد تطليق زيد بن حارثة لها، أو على الأصح: زوجه الله إياها.

وجويرية بنت الحارث، وصفية بنت حيي، وحفصة بنت عمر، وزينب بنت خزيمة، كلهن أمهات المؤمنين، وهن أزواجه ﷺ في الآخرة.

وأفضلهن على الإطلاق خديجة وعائشة رضي الله عنهما.

أقول: إن جوهر المسألة في الخلاف بين أهل السنة والروافض – الشيعة – في تحديد من هم أهل البيت، إذا حُدد من هم أهل البيت انهارت طريقة الشيعة فلم يبق منها شيء؛ لأن الشيعة لا يعدون من آل البيت إلا علي، والحسن والحسين، وذرية الحسين الذين هم على طريقتهم فيما يزعمون.

وإلا فإن الأئمة الذين يزعمون – الاثني عشر – منهم إحدى عشر إمامًا على السنة من أئمة أهل السنة، ومتبرئين من الخوارج جملة، والإمام الثاني عشر ليس له وجود، لم يولد أصلًا، لا يزالون ينتظرونه في السرداب وإنما نسبوه زورًا وبهتانًا ونسبوا غيبته ليبقى مذهبهم الباطل، ولتبقى طريقتهم الباطلة.

أما أهل السنة والجماعة فهم يؤمنون بالقرآن، وأنه جعل زوجات النبي ﷺ من أهل بيته، وكلمة أهل البيت لم ترد في القرآن الكريم إلا في موضعين اثنين:

الموضع الأول: في الحديث عن زوجة إبراهيم عليه السلام، في قوله تعالى: {قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ}[1].

الموضع الثاني: في الحديث عن زوجات رسول الله ﷺ، في قوله تعالى: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ}[2].

الموضع الثالث: في قصة موسى من كلام أخت موسى لما قالت: {هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ}(٣) إنما تعني أمَّ موسى.

---

[1] [هود: ٧٣].

[2] [الأحزاب: ٣٣].

(٣) [القصص: ١٢].

ولذلك فإنه ينبغي أن نعرف أن في لغة العرب تأهل أي: تزوج، فإن قيل أهلك يعني: زوجك، ويُلحق بالأهل من صاحبَهم، كقوله تعالى على لسان نوح: {رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي}(١) فالمقصود الأول من معنى أهل البيت هن الزوجات؛ ثم يلحق بهن غيرهم.

ولذلك فإن طريقة الإنصاف التي عليها أهل السنة أنهم يقولون: أن زوجات النبي من أهل بيته ويلحقون بهم كل من حُرم الصدقة كما ذكر المصنف، وهم: آل علي، وآل عقيل، وآل العباس، وكل من حُرم الصدقة.

ولذلك لما جاء ابن كثير عند تفسير سورة الأحزاب ذكر الآية الكريمة(٢)، ثم سأل هذا السؤال: "هل زوجات النبي ﷺ من أهل البيت؟ وقال: هن من أهل البيت. إما على القول أن سبب نزول الآية هو الداخل في معناها، أو على القول الراجح أنه الداخل في معناها مع غيره". ثم أخذ يسوق الأدلة على إضافة غير الزوجات إلى آل البيت.

وقد كتبت مقالًا بعنوان: "أهل البيت بين الهوى والإنصاف".

اقصد بالهوى طريقة الروافض، والإنصاف طريقة أهل السنة، يعني الآية الكريمة عند أهل السنة جائزة في أن يقولوا أهل البيت هم الزوجات فقط؛ لكن الإنصاف دعاهم أن يقولوا هم الزوجات ويدخل فيهم غير الزوجات.

أما الهوى فدعا الروافض إلى أن ينكروا الدلالة الواضحة من الآية الكريمة، والآية صريحة واضحة في سياق أهل البيت، واضحة جدًا في سياق الزوجات.

وطريقة الروافض أنهم يسيئون إلى أهل البيت إساءات ضمنية بالغة، وأول من يسيئون إليه علي بن أبي طالب، لأنهم ينسبون أن عليًا كان يعرف أنه هو الوصي، ثم سكت خوفًا وجُبنًا، وعليٌّ ما كان جبانًا، ولو تصورنا أنه سكت جُبنًا في خلافة الصديق، ثم سكت جُبنًا في خلافة عمر، ثم سكت جُبنًا في خلافة عثمان، فما الذي جعله يسكت وهو الخليفة وهو أمير المؤمنين؟، فلِم لم يُعلن ذلك الحق وقد تولى الخلافة؟! لذلك فطريقتهم مرفوضة، ولذلك لا أحب لأحد أن يناظر أمثال هؤلاء في فرعيات.

فإذا سألت فاسأل في أصل، فإذا انهار الأصل انهارت البقية من بعده، ولذلك ينبغي أن يكون السؤال هو: من هم أهل البيت؟ إذا حُددت هذه انهارت طريقة الروافض.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: "وَيَتَبَرَّؤُونَ مِنْ طَرِيقَةِ الرَّوَافِضِ الَّذِينَ يُبْغِضُونَ الصَّحَابَةَ وَيَسُبُّونَهُمْ. وَطَرِيقَةِ النَّوَاصِبِ الَّذِينَ يُؤْذُونَ أَهْلَ الْبَيْتِ بِقَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ.

وَيُمْسِكُونَ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَ الصَّحَابَةِ، وَيَقُولُونَ: إِنَّ هَذِهِ الآثَارَ الْمَرْوِيَّةَ فِي مَسَاوِيهِمْ مِنْهَا مَا هُوَ كَذِبٌ، وَمَنْهَا مَا قَدْ زِيدَ فِيهِ وَنُقِصَ وَغُيِّرَ عَنْ وَجْهِهِ، وَالصَّحِيحُ مِنْهُ هُمْ فِيهِ مَعْذُورُونَ: إِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُصِيبُونَ، وَإِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُخْطِئُونَ.

وَهُم مَّعَ ذَلِكَ لاَ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ مَعْصُومٌ عَنْ كَبَائِرِ الإِثْمِ وَصَغَائِرِهِ؛ بَلْ يَجُوزُ عَلَيْهِمُ الذُّنُوبُ فِي الْجُمْلَةِ.

---

(١) [هود: ٤٥].

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٦/٤١٠).

وَلَهُم مِّنَ السَّوَابِقِ وَالْفَضَائِلِ مَا يُوجِبُ مَغْفِرَةَ مَا يَصْدُرُ مِنْهُمْ . إِنْ صَدَرَ .، حَتَّى إِنَّهُمْ يُغْفَرُ لَهُم مِّنَ السَّيِّئَاتِ مَا لاَ يُغْفَرُ لِمَنْ بَعْدَهُمْ؛ لأَنَّ لَهُم مِّنَ الْحَسَنَاتِ الَّتِي تَمْحُو السَّيِّئَاتِ مَا لَيْسَ لِمَنْ بَعْدَهُمْ.

وَقَدْ ثَبَتَ بِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُمْ خَيْرُ الْقُرُونِ، وَأَنَّ الْمُدَّ مِنْ أَحَدِهِمْ إِذَا تَصَدَّقَ بِهِ كَانَ أَفْضَلَ مِنْ جَبَلِ أُحُدٍ ذَهَبًا مِمَّن بَعْدَهُمْ.

ثُمَّ إِذَا كَانَ قَدْ صَدَرَ مِنْ أَحَدِهِمْ ذَنْبٌ؛ فَيَكُونُ قَدْ تَابَ مِنْهُ، أَوْ أَتَى بِحَسَنَاتٍ تَمْحُوهُ، أَو غُفِرَ لَهُ؛ بِفَضْلِ سَابِقَتِهِ، أَوْ بِشَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّذِي هُمْ أَحَقُّ النَّاسِ بِشَفَاعَتِهِ، أَوْ ابْتُلِيَ بِبَلاَءٍ فِي الدُّنْيَا كُفِّرَ بِهِ عَنْهُ.

فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي الذُّنُوبِ الْمُحَقَّقَةِ؛ فَكَيْفَ الأُمُورُ الَّتِي كَانُوا فِيهَا مُجْتَهِدِينَ: إِنْ أَصَابُوا؛ فَلَهُمْ أَجْرَانِ، وَإِنْ أَخْطَؤُوا؛ فَلَهُمْ أَجْرٌ وَاحِدٌ، وَالْخَطَأُ مغْفُورٌ.

ثُمَّ إِنَّ الْقَدْرَ الَّذِي يُنْكَرُ مِنْ فِعْلِ بَعْضِهِمْ قَلِيلٌ نَزْرٌ مَغْفُورٌ فِي جَنْبِ فَضَائِلِ الْقَوْمِ وَمَحَاسِنِهِمْ؛ مِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ، وَرَسُولِهِ، وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، وَالْهِجْرَةِ، وَالنُّصْرَةِ، وَالْعِلْمِ النَّافِعِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ.

وَمَن نَّظَرَ فِي سِيرَةِ الْقَوْمِ بِعِلْمٍ وَبَصِيرَةٍ، وَمَا مَنَّ اللهُ عَلَيْهِم بِهِ مِنَ الْفَضَائِلِ؛ عَلِمَ يَقِينًا أَنَّهُمْ خَيْرُ الْخَلْقِ بَعْدَ الأَنْبِيَاءِ؛ لاَ كَانَ وَلا يَكُونُ مِثْلُهُمْ، وَأَنَّهُمُ الصَّفْوَةُ مِنْ قُرُونِ هَذِهِ الأُمَّةِ الَّتِي هِيَ خَيْرُ الأُمَمِ وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ".

قال الشارح رحمه الله: أحبُّ أن أنبه أن النبي ﷺ عندما قال: "خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم"(١)، أشار إلى موضع الخيرية من الأمة، ثم الله جلت قدرته أراد في هذه القرون أن يُقتل عمر، وعثمان، وعلي، وهو القادر أن يحمي هؤلاء، وأن يقع الاقتتال بين الصحابة، وأن تظهر الخوارج، وتظهر الشيعة الروافض والقدرية في هذه القرون الخيرية.

الله أمر نبيه فبلغ الدين كاملًا، بلغه بالنص والتطبيق، فعلَّم الصحابة أمر الدين كاملًا نصًا وتطبيقًا، لكن المنقول من أمر الرسول عليه الصلاة والسلام: النص في الحق أمرًا، والنص في الشر أو في الباطل نهيًا، والفعل في الحق امتثالًا، أما الباطل فليس كله فُعل به في حياة النبي ﷺ، فأمر نبيه أن يقول:" خير الناس قرني "، ثم قدر أن يقع بقية الباطل في حياة الصحابة ليقفوا منه الموقف السليم الذي سُمي بعد ذلك مذهب أهل السنة والجماعة، فماذا يعني هذا؟

الجواب: يعني أن من الصحابة من وقعت منه سرقة ثم غُفر له كالمخزومية، فلا ينبغي لنا أن نتكلم في حقها؛ لأن الله قد غفر لها.

وأن من الصحابة من وقع في الزنا ورجم فيه، وقال النبي ﷺ عنه: "والذي نفس مُحَمَّد بيده، إنه لينغمس في أنهار الجنة" ، ولم يسكت لما أساء إليه بعض الأصحاب في حديثه، وإنما قال له: "الذي أصبتما من أخيكما أنتن"[٢].

هذا الذي يجعلنا نسكت عما شجر من الصحابة أن لهم سوابق، هذه السوابق وُزنت وفاضت ودخلوا بها الجنة؛ لكن الله قدر هذه الأعمال وقدر هذه الأمور ليتم تنفيذ الشرع فنتعلم؛ ثم أوقع الله عز وجل بعد ذلك جملة من الشرور

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥٢)، ومسلم (٢١١) من حديث ابن مسعود.

٢ أخرجه النسائي في الكبرى (٧٣٢٨) من حديث أبي هريرة.

وقعت بين الصحابة فاجتهدوا فيها، وكانوا جميعًا يصلون خلف بعضهم، لم يترك أحد منهم الصلاة خلف أحد؛ لنعلم أنهم في حال الاقتتال لا يزالون على الإيمان، ويؤيد هذا قوله تعالى: {فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ}(١) يعني لا يزالون على الإيمان رغم وقوع هذا الاقتتال.

ولذلك ضلت فرقة الروافض والمعتزلة والخوارج، فكفروا الأصحاب بهذا الذي وقع منهم.

لكن أهل السنة يقولون: ليس الصحابة معصومين إنما يقع منهم الأخطاء، وهذه الأخطاء المدونة في الكتب منها ما هو مكذوب عليهم، ومنها ما هو محرف عن طريقه، ومنها ما هو كان محل اجتهاد فاجتهدوا، فبعضهم اجتهد وأصاب، وبعضهم اجتهد وأخطأ فهو مأجور على اجتهاده، وإنما ذلك لتتعلم الأمة من بعدهم ماذا يفعلون عند وقوع الشرور.

قال الشارح رحمه الله: يريد أن أهل السنة والجماعة يتبرؤون من طريقة الروافض التي هي الغلو في علي وأهل بيته، وبغض من عداه من كبار الصحابة، وسبهم، وتكفيرهم.

قال رحمه الله: وأول من سماهم بذلك زيد بن علي رحمه الله؛ لأنهم لما طلبوا منه أن يتبرأ من إمامة الشيخين أبي بكر وعمر ليبايعوه، أبى ذلك، فتفرقوا عنه، فقال: رفضتموني، فمن يومئذ قيل لهم: رافضة.

وهم فرق كثيرة: منهم الغالية، ومنهم دون ذلك، ويتبرؤون كذلك من طريقة النواصب الذين ناصبوا أهل بيت النبوة العداء لأسباب وأمور سياسية معروفة، ولم يعد لهؤلاء وجود الآن.

ويمسك أهل السنة والجماعة عن الخوض فيما وقع من نزاع بين الصحابة ﷺ؛ لا سيما ما وقع بين علي وطلحة والزبير بعد مقتل عثمان، وما وقع بعد ذلك بين علي ومعاوية وعمرو بن العاص وغيرهم.

ويرون أن الآثار المروية في مساوئهم أكثرها كذب أو محرَّف عن وجهه.

هذه مسألة هامة جدًا أن ننظر فنحقق كل الرواية لأن معظم الروايات كذب، وأما الصحيح منها، فيعذرونهم فيه، ويقولون: إنهم متأولون مجتهدون، وهم مع ذلك لا يدَّعون لهم العصمة من كبار الذنوب وصغارها، ولكن ما لهم من السوابق والفضائل وصحبة رسول الله ﷺ والجهاد معه قد يوجب مغفرة ما يصدر منهم من زلات؛ فهم بشهادة رسول الله ﷺ خير القرون، وأفضلها، ومد أحدهم أو نصيفه أفضل من جبل أحد ذهبًا يتصدق به من بعدهم، فسيئاتهم مغفورة إلى جانب حسناتهم الكثيرة.

ويريد المؤلف رحمه الله: أن ينفي عن الصحابة ﷺ أن يكون أحدهم قد مات مصرًّا على ما يوجب سخط الله عليه من الذنوب، بل إذا كان قد صدر الذنب من أحدهم فعلًا؛ فلا يخلو عن أحد هذه الأمور التي ذكرها، وهي:

الأول: إما أن يكون قد تاب منه قبل الموت.

الثاني: أو أتى بحسنات تذهبه وتمحوه.

---

(١) [الحجرات: ٩].

الثالث: أو غفر له بفضل سالفته في الإسلام؛ كما غفر لأهل بدر وأصحاب الشجرة.

الرابع: أو بشفاعة رسول الله ﷺ، وهم أسعد الناس بشفاعته، وأحقهم بها.

الخامس: أو ابتلي ببلاء في الدنيا في نفسه أو ماله أو ولده فكفر عنه به.

فإذا كان هذا هو ما يجب اعتقاده فيهم بالنسبة إلى ما ارتكبوه من الذنوب المحققة؛ فكيف في الأمور التي هي موضع اجتهاد والخطأ فيها مغفور، ثم إذا قيس هذا الذي أخطئوا فيه إلى جانب مالهم من محاسن وفضائل؛ لم يعد أن يكون قطرة في بحر، فالله الذي اختار نبيه ﷺ هو الذي اختار له هؤلاء الأصحاب، فهم خير الخلق بعد الأنبياء، والصفوة المختارة من هذه الأمة التي هي أفضل الأمم.

ومن تأمل كلام المؤلف رحمه الله في شأن الصحابة عجب أشد العجب مما يرميه به الجهلة المتعصبون، وادِّعائهم عليه أنه يتهجم على أقدارهم، ويغضُّ من شأنهم، ويخرق إجماعهم ... إلى آخر ما قالوه من مزاعم ومفتريات. هذا الشيخ الهراس رحمه الله يدافع عن المؤلف فيما ادعاه عليه أهل الباطل.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: "وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ: التَّصْدِيقُ بِكَرَامَاتَ الأَوْلِيَاءِ وَمَا يُجْرِي اللهُ عَلَى أَيْدِيهِم مِّنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ فِي أَنْوَاعِ الْعُلُومِ وَالْمُكَاشَفَاتِ وَأَنْوَاعِ الْقُدْرَةِ وَالتَّأْثِيرَاتِ، كالْمَأْثُورِ عَنْ سَالِفِ الأُمَمِ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ وَغَيْرِهَا، وَعَنْ صَدْرِ هَذِهِ الأُمَّةِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَسَائِرِ قُرُونِ الأُمَّةِ، وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ".

مسألة الكرامات هذه يقع فيها الناس بين مناهج ثلاثة:

الأول: غالين مفرطين.

الثاني: رافضين مفرطين.

الثالث: وسط، وهم أهل السنة والجماعة، يؤمنون بما ثبت بطريق نقل صحيح من الكرامات، سواء الذي جاء في القرآن، أو الذي جاء في السنة، ويتبرؤون من طريقة أهل الباطل أهل البدع من نسبتهم الكرامات إلى أوليائهم الذين يدَّعونهم وينسبون فيها أشياء باطلة كثيرة بل منكرة لا تليق من أحد من آحاد الناس، ومن أراد أن ينظر إلى مثل هذه فليقرأ ما كتبه الشعراني في كتابه الطبقات فقد حشاه وملأه بسوءات وعورات لا ينبغي أن تنشر بين الناس.

يقول: وقد تواترت نصوص الكتاب والسنة، ودلت الوقائع قديمًا وحديثًا على وقوع كرامات الله لأوليائه المتبعين لهدي أنبيائهم.

وتعريف الكرامة: هي أمر خارق للعادة، يجريه الله على يد ولي من أوليائه؛ معونة له على أمر ديني أو دنيوي، ويفرق بينها وبين المعجزة بأن المعجزة تكون مقرونة بدعوى الرسالة، بخلاف الكرامة.

ويتضمن وقوع هذه الكرامات حكم ومصالح كثيرة؛ فمنها:

أولًا: أنها كالمعجزة، تدل أعظم دلالة على كمال قدرة الله، ونفوذ مشيئته، وأنه فعَّال لما يريد، وأن له فوق هذه

السنن والأسباب المعتادة سننًا أخرى لا يقع عليها علم البشر، ولا تدركها أعمالهم، فمن ذلك قصة أصحاب الكهف، والنوم الذي أوقعه الله بهم في تلك المدة الطويلة، مع حفظه تعالى لأبدانهم من التحلل والفناء.

ومنها: ما أكرم الله به مريم بنت عمران من إيصال الرزق لها وهي في المحراب؛ حتى عجب من ذلك زكريا عليه السلام، وسألها: {أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا}(١).

وكذلك حملها بعيسى بلا أب، وولادتها إياه، وكلامه في المهد، وغير ذلك.

ثانيًا: أن وقوع كرامات الأولياء هو في الحقيقة معجزة للأنبياء؛ لأن تلك الكرامات لم تحصل لهم إلا ببركة متابعتهم لأنبيائهم وسيرهم على هديهم.

ثالثًا: أن كرامات الأولياء هي البشرى التي عجلها الله لهم في الدنيا؛ فإن المراد بالبشرى كل أمر يدل على ولايتهم وحسن عاقبتهم، ومن جملة ذلك الكرامات.

هذا؛ ولم تزل الكرامات موجودة لم تنقطع في هذه الأمة إلى يوم القيامة، والمشاهدة أكبر دليلًا.

ثم يقول: وأنكرت الفلاسفة كرامات الأولياء كما أنكروا معجزات الأنبياء، وأنكرت الكرامات أيضًا المعتزلة، وبعض الأشاعرة؛ بدعوى التباسها بالمعجزة، وهي دعوى باطلة؛ لأن الكرامة كما قلنا لا تقترن بدعوى الرسالة؛ لكن يجب التنبه إلى أن ما يقوم به الدجاجلة والمشعوذون من أصحاب الطرق المبتدعة، الذين يسمون أنفسهم بالمتصوفة من أعمال، ومخاريق شيطانية؛ كدخول النار، وضرب أنفسهم بالسلاح، والإمساك بالثعابين، والإخبار بالغيب ... إلى غير ذلك؛ ليس من الكرامات في شيء؛ فإن الكرامة إنما تكون لأولياء الله بحق، وهؤلاء أولياء الشيطان.

يعني: كأن – الشيخ الهراس – يريد أن يشير بهذه الكلمة إلى أن أعلى الكرامة الاستقامة، يعني من أكرمه الله بكرامة فإن أعلاها الاستقامة، أن يستقيم على شرع الله، فلو أن الله أكرمه بالمحافظة على الطاعات، وبالحرص على عمل الحسنات، وباجتناب السيئات، فإن هذا من أعلى الكرامات.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: "ثُمَّ مِنْ طَرِيقَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ اتِّبَاعُ آثَارِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَاطِنًا وَظَاهِرًا، وَاتِّبَاعُ سَبِيلِ السَّابِقِينَ الأَوَّلِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، وَاتِّبَاعُ وَصِيَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَيثُ قَالَ: "عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ"(٢).

وَيَعْلَمُونَ أَنَّ أَصْدَقَ الْكَلامِ كَلامُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ وَيُؤْثِرُونَ كَلامَ اللهِ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ كَلامِ أَصْنَافِ النَّاسِ، وَيُقَدِّمُونَ هَدْيَ مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى هَدْيِ كُلِّ أَحَدٍ. وَلِهَذَا سُمُّوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَسُمُّوا أَهْلَ الْجَمَاعَةِ؛ لأَنَّ الْجَمَاعَةَ هِيَ الاِجْتِمَاعُ، وَضِدُّهَا الْفُرْقَةُ، وَإِنْ كَانَ لَفْظُ الْجَمَاعَةِ قَدْ صَارَ اسْمًا لِنَفْسِ الْقَوْمِ الْمُجْتَمِعِينَ.

وَالإِجْمَاعُ هُوَ الأَصْلُ الثَّالِثُ الَّذِي يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ فِي الْعِلْمِ وَالدِينِ.

---

(١) [آل عمران: ٣٧].

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٧٥٣).

وَهُمْ يَزِنُونَ بِهَذِهِ الأُصُولِ الثَّلاثَةِ جَمِيعَ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ مِنْ أَقْوَالٍ وَأَعْمَالٍ بَاطِنَةٍ أَوْ ظَاهِرَةٍ مِمَّا لَهُ تَعَلُّقٌ بِالدِّينِ. وَالإِجْمَاعُ الَّذِي يَنْضَبِطُ هُوَ مَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ؛ إِذْ بَعْدَهُمْ كَثُرَ الاخْتِلاَفُ، وَانْتَشَرَ فِي الأُمَّةِ".

يقول الشارح: هذا بيان المنهج لأهل السنة والجماعة في استنباط الأحكام الدينية كلها، أصولها وفروعها، بعد طريقتهم في مسائل الأصول، وهذا المنهج يقوم على أصول ثلاثة:

أولها: كتاب الله عز وجل، الذي هو خير الكلام وأصدقه، فهم لا يقدمون على كلام الله كلام أحد من الناس.

وثانيها: سنة رسول الله ﷺ، وما أثر عنه من هدي وطريقة، لا يقدمون على ذلك هدي أحد من الناس.

وثالثها: ما وقع عليه إجماع الصدر الأول من هذه الأمة قبل التفرق والانتشار وظهور البدعة والمقالات، وما جاءهم بعد ذلك مما قاله الناس وذهبوا إليه من مقالات وزنوها بهذه الأصول الثلاثة التي هي الكتاب، والسنة، والإجماع، فإن وافقها؛ قبلوه، وإن خالفها ردوه؛ أيًا كان قائله.

وهذا هو المنهج الوسط، والصراط المستقيم، الذي لا يضل سالكه، ولا يشقى من اتبعه، وسط بين من يتلاعب بالنصوص، فيتأول الكتاب، وينكر الأحاديث الصحيحة، ولا يعبأ بإجماع السلف، وبين من يخبط خبط عشواء، فيتقبل كل رأي، ويأخذ بكل قول، لا يفرق في ذلك بين غث وسمين، وصحيح وسقيم.

أقول: قول شيخ الإسلام: "**وَالإِجْمَاعُ الَّذِي يَنْضَبِطُ**" هو ما كان عليه السلف الصالح، لأن الإجماع إجماع علماء عصر على مسألة تنقضي أعمارهم جميعًا ولم يرجع أحد منهم عن هذا القول.

بهذا التعريف لا نستطيع أن نضبط الإجماع في العصور المتأخرة، لأن الناس انتشروا في البلدان، وتفرقوا، لكن في العصور الأولى يمكن ضبطه؛ حيث يُعرف العلماء وتُعرف أقوالهم، ولهم دواوين جامعة جمعت هذه الأقوال.

وأريد أن أنبه أيضًا: إلى أن الإجماع لا يكون إلا بنص من قرآن، أو سنة، ليس هناك إجماع ليس عليه دليل، ومن هنا ترى من أهل العلم من يُقدم الإجماع على القرآن والسنة؛ فيقول خذ بالإجماع، لماذا؟

لأن الإجماع معناه نص من القرآن والسنة وفهم بَيَّنَه أهل العلم، إذًا الإجماع يصبح تقديمه ليس تقديم لأقوال الناس، إنما تقديم الإجماع لأنه لا إجماع إلا بنص، وإن غاب النص على أحاد الناس إلا أن هناك من يعرفه.

فينظر أولًا في الإجماع؛ فإذا وَجدت الإجماع علمت أن هذا الذي عليه النص، وهو الذي عليه الفهم.

إذًا كلمة الإجماع تعني فهم في نص من قرآن أو سنة، ثم يأتي بعد ذلك القرآن والسنة أي التي لم يُجمع الناس على فهم نصوصهم في قول، فتأخذ بأقوال أهل العلم وأفهامهم في هذه المسائل.

لا تظن أن الإجماع معناه أن الناس قالوا بقول ليس في القرآن أو السنة، وبذلك يصبح الإجماع كأنه أمر جديد.

لا يكون ذلك أبدًا؛ لأن الإجماع لا يكون إلا بنص من القرآن أو السنة، وإنما يزيد الأمر أنه قرآن وسنة بفهم اتفق عليه علماء الأمة.

ولذلك فالمسائل المجمع عليها في الاعتقاد كثيرة؛ ولا عبرة لمن خالف أهل السنة والجماعة، يعني: عندما نقول لا يُكَفَّر فاعل المعصية وهذا إجماع، يقول قائل: لا، كيف يكون إجماع؟ الخوارج خالفوا.

نقول: إن خلاف فرق الضلال لا يَطعنُ في الإجماع، يعني عندما نقول: إجماع الأمة على إثبات عذاب القبر، يقول قائل: لا، المعتزلة أنكرت عذاب القبر، نقول المعتزلة من فرق الضلال لا يعد إجماعهم ولا يعد قولهم خارقًا للإجماع؛ إنما الإجماع إجماع علماء الأمة، ولا يعد فرق الضلال من علماء الأمة.

ولذلك لا يجوز للعاقل الفاهم أن يقول: علماء الشيعة، ولا أن يقول علماء الخوارج، ولا أن يقول علماء المعتزلة، لأن كلمة علماء تحمل بذاتها المدح، وإنما يأتي الذم بالإضافة، فنقول علماء السوء، إذًا الذم جاء بسبب الإضافة، لكن نقول أئمة الشيعة، أئمة الخوارج، أئمة الروافض، أئمة النواصب، لأن كلمة إمام لا تحمل المدح ولا الذم بذاتها حتى تأتي الإضافة، فيمدح أئمة أهل السنة بأنهم نسبوا إلى أهل السنة، ويذم أئمة أهل البدعة لأنهم أضيفوا إلى البدعة، ويذم أئمة الكفر وأئمة المذاهب الضالة.

فكلمة إمام هذه لا تحمل ذمًا ولا مدحًا بذاتها؛ لكن كلمة علماء تحمل بذاتها المدح، ولذلك نحن ينبغي أن لا نستخدم كلمة علماء، فنقول علماء الشيعة، وعلماء الخوارج؛ إنما نقول أئمة الشيعة، وأئمة الخوارج، وأئمة الروافض؛ لأنهم أئمة وليسوا علماء، ولأن الله عز وجل قال: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ}(١) فإذا أطلقنا كلمة العلماء فإنما تحمل المدح.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: "ثُمَّ هُم مَّعَ هّذِهِ الأُصُولِ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَونَ عَنِ الْمُنْكَرِ عَلَى مَا تُوجِبُهُ الشَّرِيعَةُ.

وَيَرَوْنَ إِقَامَةَ الْحَجِّ وَالْجِهَادِ وَالْجُمَعِ وَالأَعْيَادِ مَعَ الأُمَرَاءِ أَبْرَارًا كَانُوا أَوْ فُجَّارًا، وَيُحَافِظُونَ عَلَى الْجَمَاعَاتِ".

هذا من أصول أهل السنة والجماعة، فبعد أن وقعت هذه المصائب التي رأيتموها في بلاد المسلمين، بغياب الأئمة فجارًا كانوا أو عادلين، ظهر حاجة الناس إلى وجود الإمام ولو كان فاجرًا، وعندئذ نعرف أن أهل السنة والجماعة كانوا على الصواب.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: "وَيَدِينُونَ بِالنَّصِيحَةِ للأُمَّةِ، وَيَعْتَقِدُونَ مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ: "الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ الْمَرْصُوصِ؛ يَشُدُّ بَعْضَهُ بَعْضًا"، وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ" (٢).

وَقَوْلِهِ ﷺ: "مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ؛ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ؛ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَّى وَالسَّهَرِ"(٣).

وَيَأْمُرُونَ بِالصَّبْرِ عِنْدَ الْبَلاءِ، وَالشُّكْرِ عِنْدَ الرَّخَاءِ وَالرِّضَا بِمُرِّ الْقَضَاءِ. وَيَدْعُونَ إِلَى مَكَارِمِ الأَخْلاقِ، وَمَحَاسِنِ الأَعْمَالِ، وَيَعْتَقِدُونَ مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ: "أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا"(٤).

---

(١) [فاطر: ٢٨].

(٢) أخرجه البخاري (٤٨١)، ومسلم (٦٦٧٧) من حديث أبي موسى الأشعري.

(٣) أخرجه البخاري (٦٠١١) ومسلم (٦٦٧٨) من حديث النعمان بن بشير.

(٤) أخرجه أبو داود (٤٥٩٥)، والترمذي (١١٩٤)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٨٤).

وَيَنْدُبُونَ إِلَى أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ، وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ، وَتَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ. وَيَأْمُرُونَ بِبِرِّ الْوَالِدَيْنِ، وَصِلَةِ الأَرْحَامِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالإِحْسانِ إِلَى الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ، وَالرِّفْقِ بِالْمَمْلُوكِ. وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْفَخْرِ، وَالْخُيَلاءِ، وَالْبَغْيِ، وَالاسْتِطَالَةِ عَلَى الْخَلْقِ بِحَقٍّ أَوْ بِغَيْرِ حَقٍّ".

وَيَأْمُرُونَ بِمَعَالِي الأَخْلاَقِ، وَيَنْهَوْنَ عَنْ سَفْسَافِهَا. وَكُلُّ مَا يَقُولُونَهُ وَيَفْعَلُونَهُ مِنْ هَذَا وَغَيْرِهِ؛ فَإِنَّمَا هُمْ فِيهِ مُتَّبِعُونَ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَطَرِيقَتُهُمْ هِيَ دِينُ الإِسْلاَمِ الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ".

يقول الشارح رحمه الله: جمع المؤلف في هذا الفصل جماع مكارم الأخلاق التي يتخلق بها أهل السنة والجماعة؛ من الأمر بالمعروف؛ وهو ما عُرف حسنه بالشرع والعقل، والنهي عن المنكر؛ وهو كل قبيح عقلًا وشرعًا، على حسب ما توجبه الشريعة من تلك الفريضة، كما يفهم من قوله عليه السلام: "من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان"(١).

ومن شهود الجمع والجماعات والحج والجهاد مع الأمراء أيًا كانوا.

ومن النصح لكل مسلم لقوله ﷺ: "الدين النصيحة"(٢).

ومن فهم صحيح لما توجبه الأخوة الإيمانية من تعاطف وتواد وتناصر؛ كما في هذه الأحاديث التي يشبه فيها الرسول ﷺ: "المؤمن للمؤمن كالبنيان" المتماسك اللبنات، أو بالجسد المترابط الأعضاء من دعوة إلى الخير، وإلى مكارم الأخلاق، فهم يدعون إلى الصبر على المصائب، والشكر على النعماء، والرضا بقضاء الله وقدره... إلى غير ذلك مما ذكره.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: "لَكِنْ لَمَّا أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ "أَنَّ أُمَّتُهُ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً؛ كُلُّهَا فِي النَّار؛ إلاَّ وَاحِدَةً، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ"(٣).

وَفِي حَدِيثٍ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: "هُمْ مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَومَ وَأَصْحَابِي"[٤]، صَارَ الْمُتَمَسِّكُونَ بِالإِسْلامِ الْمَحْضِ الْخَالِصِ عَنِ الشَّوْبِ هُمُ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ.

وَفِيهِمُ الصِّدِّيقُونَ، وَالشُّهَدَاءِ، وَالصَّالِحُونَ، وَمِنْهُمُ أَعْلامُ الْهُدَى، وَمَصَابِيحُ الدُّجَى، أُولو الْمَنَاقِبِ الْمَأْثُورَةِ، وَالْفَضَائِلِ الْمَذْكُورَةِ، وَفِيهِمُ الأَبْدَالُ، وَفِيهِمُ أَئِمَّةُ الدِّينِ، الَّذِينَ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى هِدَايَتِهِمْ وَدِرَايَتِهِمْ، وَهُمُ الطَّائِفَةُ الْمَنْصُورَةُ الَّذِينَ قَالَ فِيهِمُ النَّبِيُّ ﷺ: "لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ مَنْصُورَةً، لاَ يَضُرُّهُم مَّنْ خَالَفَهُمْ، وَلاَ مَنْ خَذَلَهُمْ؛ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ"(٥).

---

(١) أخرجه مسلم (٨٦).

(٢) أخرجه مسلم (١٠٦).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٩٩٣) من حديث عبد الله بن عمرو، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٥٣٤٣).

[٤] المصدر السابق.

(٥) أخرجه أبو داود (٤٢٠١)، والترمذي (٢٣٨٢)، وابن ماجه (١٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٧٠).

نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْهُمْ وَأَنْ لاَ يُزِيغَ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا، وَأَنْ يَهَبَ لَنَا مِن لَّدُنْهُ رَحْمَةً إِنَّهُ هُوَ الوَهَّابُ. وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

قال الشارح رحمه الله: يُشرح في هذه الجمل كلمات يسيرة فأقول:

الصديق مبالغة من الصدق يراد به كثير التصديق، وأبو بكر ﷺ هو الصديق الأول لهذه الأمة، وأما الشهداء فهم جمع شهيد وهو من قتل في المعركة، وأما الأبدال فهم جمع بدل وهم الذين يخلف بعضهم بعضًا في تجديد هذا الدين والدفاع عنه، كما في الحديث: "يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها"(١).

وفي الختام ينبغي أن نعلم معاشر المسلمين أن التحزب والتفرق لا يجوز، وكذلك ينبغي علينا أن نتعرف على طريقة أهل السنة والجماعة لنستقيم عليها.

وصلى الله على مُحَمَّد وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا أسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن يختم لنا بالصالحات وأن يوفقنا وإياكم إلى التمسك بطريقة أهل السنة والجماعة وأن يجعلنا لها وأن يجنبنا أهل الفرقة والزيغ والضلال وأن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه،

أسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن يجمعنا وإياكم على الخير، وأن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلم.

تم والحمد الله رب العالمين

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٣٤)، وصححه الألباني السلسلة الصحيحة (٥٩٩).